الباب الثالث

أخبـــار بنى العباس

obeikandl.com

١- فصل

ابتداء الدولة العباسية

[٤٢] كان القائم بهذه الدولة أبو مسلم الخراسانى وكان اسمه عبد الرحمن بن مسلم[١] فمن قوله :

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت ... عنه ملوك بنى مروان إذ حشدوا
مازلت أسعى بجهد فى دمارهم ... والقوم فى غفلة والناس قد رقدوا
حتى ضربتهمو بالسيف فانتبهوا ... من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنما فى أرض مسبعة ... ونام عنها تولى رعيها الأسد

---

(١) عبد الرحمن بن مسلم ، أبو مسلم الخرسانى : مؤسس الدولة العباسية ، تعهداه بالبصرة عيسى ومعقل ابنى إدريس العجلى ، فربياه إلى أن شبه فاتصل بإبراهيم بن الإمام محمد (من بنى العباس) فأرسله إلى خرسان داعية ، فأقام فيها واستمال أهلها . ووثب على ابن الكرمانى (والى نايسابور) فقتله واستولى على نيسابور . وسُلم عليه بإمرتها فخطب باسم السفاح العباسى . وقضى على الدولى الأموية وصفا الجو للسفاح إلى أن مات وخلفه أخوه المنصور فرأى المنصور من أبى مسلم ما أخافه أن يطمع فى الملك فقتله .[١٣٧هـ-٧٥٥م] . انظر : تاريخ بغداد (٢٠٧/١٠) ، الطبرى (١٥٩/٩) ، والأبيات انظر: وفيات الأعيان (١٥٢/٣) .

٢- فصل

أولهم عبد الله السفاح[١]

[٤٣] ذكر ابن الجوزى فى كتاب الأذكياء[٢] عن خالد بن صفوان[٣] : أنه دخل يوما على أبى العباس السفاح وليس عنده أحد ، فقال: ياأمير المؤمنين إنى والله مازلت منذ قلدك الله خلافته أطلب أن أصير معك بمثل هذا الموقف فى الخلوة فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإمساك الباب فعل حتى نفرغ ، فأمر الحاجب بذلك ، فقال: ياأمير المؤمنين إنى فكرت فى أمرك واستجلبت الفكر فيك فلم أر أحدا له قدرة واتساع فى الاستمتاع بالنساء ولاأضيق فيهن عيشا منك إنك ملّكت نفسك امرأة من

---

(١) عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، أبو العباس السفاح: أول خلفاء الدولة العباسية ، وأحد الجبارين الدهاة من ملوك العرب . قام بدعوته أبو مسلم الخراسانى ، فقوض عرش الدولة الأموية ، فبويع له بالخلافة جهرا فى الكوفة سنة [١٣٢هـ] وكان شديد العقوبة ، عظيم الانتقام ، تتبع بقايا الأمويين بالقتل والصلب والإحراق حتى لم يبق منهم غير الأطفال ، ولذلك لقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دمائهم . وهو الذى بنى "الهاشمية" وجعلها مقرا لحكمة ، وهو أول من أحدث الوزارة فى الإسلام ، وكان سخيا جوادا ، يوصف بالفصاحة والعلم والأدب ، ت[١٣٦هـ = ٧٥٤م] . انظر : الكامل لابن الأثير (١٥٢/٥) ، المسعودى (١٦٥/٢) الطبرى (١٥٤/٩) .

(٢) انظر : كتاب الأذكياء لابن الجوزى ص ١٤٢ ، وفيات الأعيان (٢٤٣/١) .

(٣) خالد بن صفوان بن عبد الله : من فصحاء العرب المشهورين . ولد ونشأ بالبصرة وكان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشيء وذمه ، ت[١٣٢هـ = ٧٥٠م] .انظر : وفيات الأعيان (٢٤٣/١) .

نساء العالمين فاقتصرت عليها فإن مرضت مرضت وإن غابت غبت وإن عزلت عزلت، وحرمت ياأمير المؤمنين على نفسك التلذذ بما يُشتهى منهن فإن منهن الطويلة التى تشتهى لحسنها ، والبيضاء التى تحب لرؤيتها ، والسمراء العساء[1] والصفراء الذهبية، ومولدات المدينة والطائف واليمامة ذوات الألسنة العذبة والجواب الحاضر، وبنات سائر الملوك ، ومايشتهى من نضارتهن ونظافتهن ، وتحلل خالد لسانه فأطنب فى صفات ضروب الجوارى وشوّقه إليهن ؛ فلما فرغ من كلامه قال له السفاح: ويحك ملأت مسامعى ماأشغل خاطرى والله ماسلك مسامعى كلام أحسن من هذا، فأعد علىَّ كلامك فقد وقع منى موقعا فأعاد عليه خالد كلامه بأحسن مما ابتدأ به، ثم قال له : انصرف فانصرف وبقى أبو العباس مفكرا فدخلت عليه أم سلمة[2] زوجته وكان قد حلف لها أنه لايتزوج عليها ولايتخذ عليها سرية ووفى لها فلما رأته على تلك الحالة قالت له : إنى لأنكرك ياأمير المؤمنين فهل حدث شىء تكرهه أو أتاك خبرا ارتعت له ؟ قال : لا فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد ، فقالت له : وماقلت لابن الفاعلة ، فقال لها : أينصحنى وتشتمينه ، فخرجت إلى مواليها وأمرتهم بضرب خالد .

قال خالد : فخرجت من الدار مسرورا بما ألقيت إلى أمير المؤمنين ولم أشك فى الصلة فبينما أنا واقف ، إذ أقبل موالى أم سلمة يسألون عنى فحققت الجائزة ، فقلت لهم: هاأنا واقف فاستبقى إلى أحدهم بخشبة

---

(١) العساء : شديدة السواد .

(٢) هند بنت يعقوب بن عبد الله المخزومى ، أم سلمة : سيدة جليلة ذات عقل وحزم ، غلبت على أمر زوجها أبى العباس السفاح غلبة شديدة فكان لايقطع أمر إلا بمشورتها. انظر : أعلام النساء (٢/٢٣٥) .

فغمزت برذوني[1] فلحقني وضرب كفل البرذون وركضت ففررت منهم واستخفيت في منزلي أياما ووقع في قلبي أني أمنت من أم سلمة ، فبينما أنا ذات يوم جالس في المنزل فلم أشعر إلابقوم هجموا علي ، فقالوا: أجب أمير المؤمنين فسبق إلى قلبي أنه الموت فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون لم أر دم شيخ أضيع من دمي فركبت إلى دار أمير المؤمنين فأصبته جالسا ولحظت في المجلس بيتا عليه ستور رقاق وسمعت حسا خفيفا خلف الستر ، فأجلسني ثم قال : ياخالد أنت وصفت لأمير المؤمنين صفة فأعدها فقلت : نعم ياأمير المؤمنين أعلمتك أن العرب ماشتقت اسم الضرتين إلا من الضر ، وإن أحدا لم يكثر من النساء أكثر من واحدة إلا كان ضر وتنغيص، فقال السفاح : لم يكن هذا من كلامك أولا ، قلت: بلى : ياأمير المؤمنين ، وأخبرتك أن الثلاث من النساء يدخلن على الرجل البؤس ، فقال: برئت من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا منك أولا أو مرة في حديثك، قلت: بلى ياأمير المؤمنين : وأخبرتك أن الأربع من النساء شر مجتمع لصاحبهن يشينه ويهرمه ، قال : والله ماسمعت منك هذا أولا ، قلت : بلى ياأمير المؤمنين وأخبرتك، أن أبكار الإماء رجال إلا أنه ليست لهن خصاء ، قال أمير المؤمنين : أفتكذبني ؟ قلت: أفتقتلني ؟ قال خالد : فسمعت ضحكا خلف الستر ، ثم قلت : وأخبرتك أن عندك ريحانة قريش وأنت تطمح بعينيك إلى النساء والجواري ، فقيل لي من وراء الستر: صدقت ياعماه هذا حديثك ولكنه غير حديثك ونطق بما في خاطره عن لسانك ، فقال السفاح: مابك قاتلك الله ؛ قال خالد : فانسللت وخرجت، فبعثت إلى أم سلمة بعشرة آلاف درهم وبرذونا وتخت ثياب ، انتهى .

---

(١) بِرْذَون : الدابة التي تحمل المتاع .

[٤٤] وروى : أن أبا دلامة[١] الشاعر كان واقفا بين يدى السفاح فى بعض الأيام ، فقال : سلنى حاجتك فقال له أبو دلامة : أريد كلب صيد، فقال : أعطوه إياه فقال : ودابة أتصيد عليها ، فقال : أعطوه دابة فقال : وغلاما يقود الكلب والصيد، فقال : أعطوه غلاما ، فقال : وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه ، فقال: أعطوه جارية فقال : هؤلاء ياأمير المؤمنين عيال ولابد لهم من دار يسكنونها ، فقال: أعطوه دارا تجمعهم ، ثم قال : وإن تكن لهم الدار فمن أين يعيشون قال : قد أقطعتك عشر ضياع عامرة وعشر غامرة من فيافى[٢] بنى إسرائيل ، قال : ومامعنى الغامرة ياأمير المؤمنين؟ قال: مالا نبات فيها ، قال : قد أقطعتك ياأمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافى بنى سعد ، فضحك منه وقال : أعطوها كلها عامرة. قال الحافظ[٣] : فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها كيف ابتدأ بكلب صيد فسهل القضية وجعل يأتى بمسألة مسألة على ترتيب وفكاهة حتى نال ماسأله ولو سأل ذلك بديهة لما وصل إليها بارك الله فيه ، انتهى[٤].

[٤٥] وروى عن الحسن بن الحصين قال : لما أفضت الخلافة إلى بنى العباس، كان من جملة من اختفى : إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك فلم يزل مختفيا إلى أن أضناه وأضجره الاختفاء ، فأخذ له أمان من

---

(١) زند بن المحون ، أبو دلامة :شاعر من أهل الظرف والدعابة ، أسود اللون ، جسيم ، نشأ فى الكوفة ، واتصل بالخلفاء من بنى العباس وله فيهم مدائح ، واتهم بالزندقة لتهتكه وأخباره كثيرة متفرقة ، ت[١٦١هـ] .

(٢) فيافى ، مفردها فيفى : المفازة لا ماء فيها .

(٣) الحافظ : أبو الفرج ابن الجوزى ، انظر : الأذكياء ص ١٢٨ .

(٤) انظر : ثمرات الأوراق ص٧٤ .

السفاح، وكان إبراهيم رجلا أديبا بليغا حسن المحاضرة فحظى عند السفاح ، فقال له : لقد مكثت زمانا طويلا مختفيا فحدثنى بأعجب مارأيت فى اختفائك ، فإنها كانت أيام تكدير[1] .

فقال : ياأمير المؤمنين وهل سُمع بأعجب من حديثى. لقد كنت مختفيا فى منزل أنظر منه إلى البطحاء فبينما أنا على مثل ذلك ، وإذا بأعلام سود قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة فوقع فى ذهنى أنها خرجت تطلبنى، فخرجت متفكرا حتى أتيت الكوفة من غير الطريق وأنا والله متحير ولاأعرف بها أحدا ، وإذا أنا بباب كبير فى رحبة منيعة فدخلت فى تلك الرحبة فوقفت قريبا من الدار ، وإذا برجل حسن الهيئة وهو راكب فرسا ومعه جماعة من أصحابه وغلمانه فدخل الرحبة فرآنى واقفا مرتابا ، فقال لى: ألك حاجة ؟ قلت: غريب خائف من القتل ، قال : ادخل فدخلت إلى حجرة فى داره ، فقال : هذه لك ، وهيأ لى ماأحتاج إليه من فرش وآنية ولباس وطعام وشراب وأقمت عنده ووالله ماسألنى قط من أنا ولاممن أخاف، وهو فى أثناء ذلك يركب فى كل يوم ويعود متعوبا متأسفا كأنه يطلب شيئا فاته ولم يجده ، فقلت له يوما : أراك تركب فى كل يوم وتعود متعوبا متأسفا كأنك تطلب شيئا فاتك فقال لى : إن إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك ، قتل أبى وقد بلغنى أنه مختف من السفاح وأنا أطلبه لعلى أجده وآخذ بثأرى منه ، فتعجبت والله ياأمير المؤمنين من هربى وشؤم بختى الذى ساقنى إلى منزل رجل يريد قتلى ، ويطلب ثأره منى فكرهت الحياة واستعجلت الموت لما نالنى من الشدة فسألت الرجل عن اسم أبيه وعن سبب قتله فعرفنى الخبر فوجدته صحيحا، فقلت : ياهذا قد وجب

---

(١) تَكَدُّرَ : غم .

على حقك وان من حقك أن أدلك على قاتل أبيك وأقرب إليك الخطوة وأسهل عليك مابعد ، فقال : أتعلم أين هو قلت : نعم ، فقال : أين هو؟ ، فقلت : والله هو أنا فخذ بثأرك منى ، فقال لى : أظن أن الاختفاء أضناك فكرهت الحياة ، قلت : نعم والله أنا قتلته يوم كذا وكذا فلما علم صدقى تغير لونه واحمرت عيناه وأطرق رأسه ساعة ثم رفع رأسه إلى وقال لى : أما أبى فسيلقاك غدا يوم القيامة فيحاكمك عند من لاتخفى عليه خافية ، وأما أنا فلست مخفرا[1] ذمتى ولامضيعا نزيلى، اخرج عنى فإنى لاآمن من نفسى عليك بعد هذا اليوم ؛ ثم وثب ياأمير المؤمنين إلى صندوق فأخرج منه صرة فيها خمسمائة دينار ، وقال : خذ هذه واستعن بها على اختفائك فكرهت أخذها وخرجت من عنده وهو أكرم رجل رأيت . فبقى السفاح يهتز طربا ويتعجب .

[٤٦] **وعن الهيثم بن عدى[2] ، قال** : كان أبو العباس السفاح تعجبه المسامرة ومنازعة الرجال ، فحضرت ذات ليلة فى مسامرة إبراهيم بن مخرمة الكندى وناس من بنى الحارث بن كعب وهم أخواله وخالد بن

---

(١) خفر : نقض العهد - الغدر .

(٢) الهيثم بن عدى بن عبد الرحمن الثعلى الطائى البحرى ، أبو عبد الرحمن : علام بالأدب والنسب ، مؤرخ ، اختص بمجالسة المنصور والمهدى والهادى والرشيد ، وروى عنهم وكان يتعرض لمعرفة أصول الناس ، ونقل أخبارهم فأورد فى بعض كتبه، معايبهم ، وأظهرها فكُره لذلك ، وطعن فى نسبه وقيل :

إذا نسبت عديا فى بنى ثعل فقدم الدال قبل العين فى النسب

قال بن قتيبة : كان يرى رأى الخوارج ، ت[٢٠٧هـ - ٨٢٢م] . انظر :المعارف ص٢٣٤ ، مرآة الجنان (٣٢/٢) .

صفوان بن إبراهيم التميمى فخاضوا فى الحديث وتذاكروا مضر واليمن ، فقال إبراهيم: ياأمير المؤمنين إن اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا وكانت لهم القرى ولم يزالوا ملوكا أرباباً وورثوا ذلك كابرا عن كابرا أولا عن آخر منهم : النعمانيات ، والمنذريات ، والقابوسيات ، والتبابعة ومنهم: من مدحته الزبر، ومنهم : غسيل الملائكة ، ومنهم : من اهتز لموته العرش، ومنهم : من كلمه الذئب ، ومنهم الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا ، وليس شيء له خطر إلا وإليهم ينسب من فرس رائع ، أو سيف قاطع ، أو درع حصينة ، أو حلة مصونة أو درة مكنونة ، إن سئلوا أعطوا ، وأن سيموا أبوا ، إن نزل بهم ضيف قروه، لايبلغهم مكابر ولاينالهم مفاخر هم العرب العرباء ، وغيرهم المتعربة .

قال : أبو العباس السفاح ماأظن التميمى يرضى بقولك ، ثم قال له : ماتقول ياخالد ؟ قال : إن أذنت لى فى الكلام تكلمت قال : أذنت لك فى الكلام فتكلم ولاتهب أحدا ، فقال: أخطأ ياأمير المؤمنين المقتحم بغير علم، والناطق بغير صواب فكيف يكون ماقال ، وإن القوم ليست لهم ألسن فصيحة ، ولاحجة رجيحة نزل بها كتاب ولاحاءت بها سنة ، وهم منا على منزلتين : إن حادوا عن قصدنا أكلوا وإن جاوزوا حكمنا قتلوا ، يفخرون علينا بالنعمانيات والمنذريات وغير ذلك مما سنأتى عليه ، ونفخر عليهم بخير الأنام وأكرم الكرام سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ولله المنة به علينا وعليهم، لقد كانوا أتباعه فبه عزوا وله أكرموا فمنا النبى ﷺ ، ومنا الخليفة المرتضى ، ولنا البيت المعمور ، والمسعى ، وزمزم ، والمقام ، والمنبر ، والركن ، والحطيم ، والمشاعر ، والحجابة ، والبطحاء، مع مالايخفى من المآثر ولايدرك من المفاخر ، فليس بعدل بنا

عادل ، ولايبلغ فضلنا قول قائل، ومنا الصديق ، والفاروق، والوصى ، وأسد الله ، وسيد الشهداء ، وذو الجناحين ، وسيف الله ، عرفوا أعالم الله وأتاهم اليقين ، فمن زاحمنا زاحمناه، ومن عادانا اصطلمناه[1] ، ثم التفت إلى إبراهيم فقال : أعالم أنت بلغة قومك ؟ قال : نعم ، قال : فما اسم العين ؟ قال: الحمجمة ، قال : فما اسم السن ؟ قال : الميدن ، قال : فما اسم الأذن؟ قال : الصنارة ، قال : فما اسم الأصابع ؟ قال : الشناتر ، قال: فما اسم اللحية ؟ قال: الذئب ، قال : فما اسم الذئب ؟ قال : الكنع ، قال: أفمؤمن أنت بكتاب الله ؟ قال: نعم فإن الله تعالىيقول ﴿**إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون**﴾ [يوسف: ٢] وقال تعالى ﴿**بلسان عربى مبين**﴾ [الشعراء: ١٩٥] وقال ﴿**ماأرسلنا من رسول إلا بلسان قومه**﴾ [إبراهيم: ٤] فنحن العرب والقرآن بلساننا نزل ؛ ألم تر أن الله تعالى قال ﴿**العين بالعين**﴾ [المائدة: ٤٥] ولم يقل الحمجمة بالحمجمة ، وقال ﴿**السن بالسن**﴾ [المائدة: ٤٥]ولم يقل الميدن بالميدن ، وقال ﴿**الأذن بالأذن**﴾ [المائدة: ٤٥] ولم يقل الصنارة بالصنارة ، وقال ﴿**يجعلون أصابعهم فى آذانهم**﴾ [البقرة: ١٩] ولم يقل شناترهم فى صناراتهم ، وقال ﴿**لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى**﴾ [طه: ٩٤] ولم يقل بذئبى وقال تعالى ﴿**فأكله الذئب**﴾ [يوسف: ١٧] ولم يقل فأكله الكنع ، ثم قال : أسألك عن أربع إن اقررت بهن قهرت ، وإن جحدتهن كفرت ، قال : وماهن ؟ قال: الرسول منا أو منكم ؟ قال : منكم ، قال : فالقرآن نزل علينا أو عليكم ؟ قال : عليكم ، قال : فالبيت الحرام لنا أو لكم ؟ قال: لكم قال : فالخلافة فينا أو فيكم ؟ قال خالد : فما كان بعد هذه الأربع فهو لكم.

---

(١) اصْطَلَمَ : استأصله .

٣- فصل

خلافة أبى جعفر المنصور[١]

[٤٧] **قيل** : إنه كان يحفظ الشعر من مرة ، وله مملوك يحفظه من مرتين ، وكان له جارية تحفظه من ثلاث مرات ، وكان بخيلا جدا حتى أنه كان يلقب بالدوانيقى لأنه كان يحاسب على الدوانق[٢] فكان إذا جاء شاعر بقصيدة قال له : إن كانت مطروقة بأن يكون أحد يحفظها أو أحد أنشأها أى بأن كان أتى بها أحد قبلك فلا نعطيك بها جائزة ، وإن لم يكن أحد يحفظها نعطيك زنة ماهى مكتوبة فيه فيقرأ الشاعر القصيدة، فيحفظها الخليفة من أول مرة ، ولو كانت ألف بيت ، ويقول للشاعر : اسمعها منى وينشدها بكمالها ، ثم يقول له وهذا المملوك يحفظها وقد سمعها المملوك مرتين مرة من الشاعر ومرة من الخليفة فيقرؤها ، ثم يقول الخليفة : وهذه الجارية التى خلف الستارة تحفظها أيضا ، وقد سمعتها الجارية ثلاث مرات فتقرؤها بحروفها ، فيذهب الشاعر بغير شىء .

---

(١) عبد الله بن محمد بن على بن العباس ، أبو جعفر المنصور : ثانى خلفاء بنى العباس ، كان عارفا بالفقه والأدب ، محبا للعلماء . ولد فى الحميمة من أرض الشراة ، وولى الخلافة بعد وفاة أخية السفاح [١٣٦هـ] ، وهو بانى مدينة "بغداد" أمر بتخطيطها سنة [١٤٥هـ] وجعلها دار ملكه بدلا من الهاشمية التى بناها السفاح ، وكان بعيدا عن اللهو والعبث كثير الجد والتفكير ، وهو والد الخلفاء العباسيين جميعا ، وكان أفحلهم شجاعة وحزما ، مدة خلافته [٢٢] عاما توفى ببئر ميمون محرما بالحج [١٥٨هـ - ٧٧٥م] . انظر : الكامل لابن الأثير (١٧٢/٥) ، تاريخ الطبرى (٢٩٢/٩-٣٢٢) .

(٢) الدَّوَانِق ، جمع دانق : جزء من الدرهم .

[٤٨] قال الراوى : وكان الأصمعى من جلسائه وندمائه فنظم أبياتا صعبة، وكتبها على قطعة عمود من رخام ، ولفها فى عباءة وجعلها على ظهر بعير ، وغير حليته فى صفة أعرابى غريب وضرب له لثاما ولم يبن منه غير عينيه ، وجاء إلى الخليفة ، وقال : إنى امتدحت أمير المؤمنين بقصيدة فقال : ياأخا العرب إن كانت لغيرك لانعطيك عليها جائزة ، وإلا نعطك زنة ماهى مكتوبة عليه فأنشد الأصمعى هذه القصيدة :

صوت صفير البلبل ... هيج قلبى الثمل
الماء والزهر معا ... مع زهر لحظ المقل
وأنت ياسيد لى ... وسيدى ومولى
وكم وكم تيمنى ... غزيل عقيقلى
قطفت من وجنته ... باللثم ورد الخجل
وقلت بس بسبسنى ... فلم يجد بالقبل
وقال لا لا للا ... وقد غدا مهرولى
والخود مالت طربا ... ولى ولى ياويللى[1]
من فعل هذا الرجل ... وولولت ولولة
لما رأته أشمطا ... فقلت لاتولولى
وبينى اللؤلؤ ... إلابطيب الوصللى
يريد غير القبل ... وبعده مايكتفى
وفتية سقوننى ... قالت له حين كذا
انهض وجد بالنقلى ... أزكى من القرنفل
قهيوة كالعسللى ... شممتها فى أنفقى

---

(١) خَوْد : المرأة الشابة .

بـــــالزهر والســـــروللى ... والعـــــود دنـــــدن دنلـــــى
فـــى وســـط بســـتان حلـــى ... والرقـــص قـــد طبطبلـــى
والســـــف سقسقســـــقلى ... والطبـــــل طبطبطبلـــــى
علـــــى ورق ســـــفرجل ... وغـــرد القمـــرى يصيـــح لـــى
شوواشوواشاهشـــــــــوا ... فلـــــو ترانـــــى راكبـــــا
علـــــى حمـــــار أهزلـــــى ... مـــــن ملـــــل فـــــى مللـــــى
يمشـــــى علـــــى ثلاثـــــة ... كمشـــــية العرنجلـــــى
والنـــــاس ترجمجملـــــى ... فـــــى الســـــوق بـــــالقلقلى
والكـــــل كعكـــــع كعكـــــع ... خلفـــــى ومـــــن حوللـــــى
لكـــــن مشـــــيت هاربـــــا ... مـــــن خشـــــية العقنقلـــــى
إلـــــى لعشـــــاء وذلـــــك ... معظـــــم مبجـــــل
يـــــأمر لـــــى بخلعـــــة ... حمـــــراء كـــــالدم دملـــــى
أجـــــر فيهـــــا ماشـــــيا ... مبغـــــدد اللديـــــل
أنـــــا الأديـــــب الألمعـــــى ... مـــــن حـــــى أرض الموصلـــــى
نظمـــــت قطعـــــا زخرفـــــت ... تعجـــــز الأدبللـــــى
أقـــــول فـــــى مطلعهـــــا ... صـــــوت صفـــــير البلبـــــل

قال الراوى : فلم يحفظها الملك لصعوبتها ونظر إلى المملوك وإلى الجارية فلم يحفظها أحد منهما ، فقال : يـا أخـا العـرب هـات الـذى هـى مكتوبة فيه نعطك زنته ، فقال : يامولاى إنى لم أجد ورقا أكتب فيه وكان عندى قطعة عمود من رخام من عهد أبى وهى ملقـاة ليـس لـى بهـا حاجـة فنقشتها فيها ؛ فلم يسع الخليفة إلا أنه أعطاه وزنها ذهبا ، فنفذ مافى خزينته من المال فأخذه وانصرف ، فلما ولى قال الخليفة : يغلب على ظنى أن هـذا الأصمعى ، فـأحضره وكشـف عـن وجهـه فـإذا هـو الأصمعـى ،

فتعجب منه ومن صنيعه وأجازة على عادته . قال : ياأمير المؤمنين إن الشعراء فقراء وأصحاب عيال ، وأنت تمنعهم العطاء بشدة حفظك ، وحفظ هذا المملوك وهذه الجارية ، فإذا أعطيتهم ماتيسر ليستعينوا به على عيالهم لم يضرك ، انتهى والله أعلم .

[٤٩] **وذكر الغزالي[1] وابن بليان وغيرهما** : أن أبا جعفر المنصور حج ونزل فى دار الندوة ، وكان يخرج سحرا فيطوف بالبيت فخرج ذات ليلة سحرا فبينما هو يطوف، إذ سمع قائلا يقول : اللهم أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ومايحول بين الحق وأهله من الطمع . فهرول المنصور فى مشيته حتى ملأ سمعه ، ثم رجع إلى دار الندوة وقال لصاحب شرطته : إن بالبيت رجلا يطوف فأتنى به ، فخرج صاحب الشرطة فوجد رجلا عند الركن اليمانى ، فقال : أجب أمير المؤمنين ، فلما دخل عليه قال: أنت الذى سمعتك آنفا تشكو إلى الله ظهور البغى والفساد فى الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع فوالله لقد حشوت مسامعى ماأمرضنى ، فقال له : ياأمير المؤمنين إن الذى دخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله وامتلأت بلاد الله بذلك بغيا وفسادا أنت هو ، فقال له المنصور : ويحك كيف يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء ببابى وملك

---

(١) محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسى زين الدين ، حجة الإسلام ، أبو حامد الغزالى : فقيه ، أصولى ، صوفى ، ارتحل إلى أبى نصر الإسماعيلى بجرجان ، ثم إلى إمام الحرمين الجوينى بنيسابور ، فشتغل عليه ولازمه ، ثم أقبل على العبادة والسياحة، له مولفات كثيرة أشهرها "إحياء علوم الدين" ، ت[٥٠٥هـ = ١١١١م] . انظر : سير أعلام النبلاء (١٢/ ٧٥-٨١) ، وفيات الأعيان (١/٥٨٦) .

الأرض فى قبضتى ، فقال الرجل : سبحان الله يا أمير المؤمنين وهل داخل أحدا من الطمع ما داخلك استرعاك الله أمور المؤمنين وأموالهم فأهملت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم واتخذت بينك وبين رعيتك حجابا من الجبس والآجر[1] ، وحجبة معهم السلاح ، وأمرت أن لايدخل عليك إلافلان وفلان نفرا استخلصتهم لنفسك ، وأمرتهم على رعيتك ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا العارى، ولا أحد إلاوله فى هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء ، الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك تجمع الأموال وتقسمها ، قالوا : هذا خان الله ورسوله فما لنالا نخونه ، فأجمعوا على أن لايصل إليك من أموال الناس إلا ماأرادوا فصار هؤلاء شركاءك فى سلطانك وأنت غافل عنهم فإذا جاء المظلوم إلى بابك وجدك أوقفت رجلا ينظر فى مظالم الناس ، فإن كان الظالم من بطانتك علل صاحب المظالم بالمظلوم، وسوف من وقت إلى وقت، فإذا اجتهد وظهرت أنت صرخ بين يديك فضربه أعوانك ضربا شديدا ليكون نكالا لغيره ، وأنت ترى ذلك ولا تنكر.

لقد كانت الخلفاء قبلك من بنى أمية إذا أتت إليهم الظلامة أزيلت فى الحال ، ولقد كنت أسافر الصين يا أمير المؤمنين ، فقدمت مرة فوجدت الملك الذى به قد فقد سمعه فبكى، فقال له : وزراؤه مايبكيك أيها الملك لا أبكى الله لك عينا إلامن خشيته ، فقال: والله مابكيت لمصيبة نزلت بى وإنما لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمعه ، ثم قال: إن كان سمعى ذهب فإن بصرى لم يذهب نادوا فى الناس لايلبس أحد ثوباً أحمر إلا مظلوم ، وكان يركب الفيل طرفى النهار ويدور فى البلد لعله يجد أحدا لابسا ثوباً أحمر ،

---

(١) الآجُرّ : ما يبنى به من الطين المشوى . وتسميه العامة : الفرميد .

فيعلم أنه مظلوم فينصفه ؛ هذا الأمير رجل مشرك غلبت عليه رأفته على شح نفسه بالمشركين ، وأنت مؤمن بالله ورسوله وابن عم رسول الله ﷺ يا أمير المؤمنين لاتجمع الأموال إلا لإحدى ثلاث ، فإن قلت: إنما أجمع الأموال لمصالح الملك ، فقد أراك الله عبرة فى الملوك والقرون من قبلك ما أغنى عنهم ما أعدوا من الأموال والرجال والكراع حين أراد الله بهم ما أراد ، وإن قلت : إنما أجمع للولد ، فقد أراك الله عبرة فيمن تقدم ممن جمع المال للولد فلم يغن ذلك عنهم شيئاً بل ربما مات فقيرا ذليلا حقيرا ، وإن قلت : إنما أجمعه لغاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها ، فو الله ما فوق منزلتك إلا منزلة لاتدرك إلا بالعمل الصالح .

فبكى المنصور بكاء شديداً ، ثم قال : وكيف أعمل وقد فرت منى العباد ولم تقربنى والصالحون لم يدخلوا على ؟ فقال : ياأمير المؤمنين افتح الباب ، وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم ، وخذا المال مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل ، وأنا ضامن من هرب أن يعود إليك ، فقال المنصور: نفعل إن شاء الله تعالى ، وجاء المؤذن فأذن للصلاة فقام وصلى، فلما قضى صلاته طلب الرجل فلم يجدة ، فقال : لصاحب الشرطة على بالرجل الساعة فخرج يطلبه فوجده عند الركن اليمانى فقال له : أجب أمير المؤمنين ، فقال : ليس إلى ذلك من سبيل ، فقال: إذن يضرب عنقى ، فقال : ولا إلى ضرب رقبتك من سبيل ، ثم أخرج من مزود[1] كان معه رقا[2] مكتوبا فقال له : خذه فإن فيه دعاء الفرج من دعا به صباحا ومات

---

(١) المزود : ما يوضع فيه الزاد ، و جمعه مزاود .

(٢) رِقّ : جلد رقيق يكتب فيه .

من يومه مات شيهدا ، ومن دعا به مساء ومات من ليلته مات شهيدا ، وذكر له فضلا عظيما وثوابا جزيلا ، فأخذه صاحب الشرطة وأتى به المنصور ، فلما رآه قال له : ويلك أو تحسن السحر ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ثم قص عليه القصة فأمر المنصور بنقله وأمر له بألف دينار وهو هذا «اللهم كما لطفت فى عظمتك دون اللطفاء ، وعلوت بعظمتك على العظماء ، وعلمك بما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك ، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر فى علمك وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذى سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك اجعل لى من كل هم وغم أصبحت وأمسيت فيه فرجا ومخرجا اللهم إن عفوك عن ذنوبى وتجاوزك عن خطيئتى وسترك على قبيح عملى أطمعنى أن أسألك مالا أستوجبه مما قصرت فيه أدعوك آمنا وأسألك مستأنسا فإنك أنت المحسن إلىَّ وأنا المسيء إلى نفسى فيما بينى وبينك تتودد إلى بالنعم وأتبغض إليك بالمعاصى ولكن الثقة بك حملتنى على الجراءة عليك فجد بفضلك وإحسانك على أنك أنت الرؤوف الرحيم» ، انتهى من حياة الحيوان .

[٥٠] **وحدث عبد الله البلتاجى قال** : دخل ابن أبى ليلى على أبى جعفر المنصور ، وكان ابن أبى ليلى قاضيا ، فقال أبو جعفر : إن القاضى يرد عليه من طرائف الناس ونوادرهم ، فإن كان ورد عليك شيء فحدثنيه فقد طال على يومى .

قال : والله ياأمير المؤمنين قد ورد على منذ ثلاثة أيام أمر ماورد على مثله : أتتنى عجوز ، تكاد أن تنال الأرض بوجهها ، أو تسقط من انحنائها

فقالت : أنا بالله وبالقاضى أن يأخذ لى بحقى ، وأن يعيننى على خصمى ، قلت : ومن خصمك ؟ قالت : ابنة أخ لى ، فدعوت بها فجاءت امرأة ضخمة ممتلئة شحما فجلست منبهرة فذهب العجوز تتظلم، فقالت الشابة أصلح الله القاضى مرها فلتسكت حتى أتكلم بحجتى وحجتها، فإن لحنت[1] بشيء فلترد علىّ فإن أذنْتَ لى أسفرتُ[2] ، فقالت : العجوز إن أسفرت قضيت لها ، فقلت لها : أسفرى فأسفرت عن وجه والله ما ظننت أن يكون مثله إلا فى الجنة .

فقالت : أصلح الله القاضى هذه عمتى مات والدى وتركنى يتمية فى حجرها فربتنى فأحسنت التربية حتى إذا بلغت مبلغ النساء ، قالت لى : يا بنت أخى هل لك فى التزويج ؟ قلت : ما أكره ذلك ياعمة ، قالت العجوز: نعم ، قالت: فخطبنى وجوه أهل الكوفة فلم ترض إلا رجلا صيرفيا[3] فتزوجنى ، فكنا كأننا ريحانتان ما نظن أن الله خلق غيره يغدو إلى سوقه ويروح على بما رزقه الله تعالى؛ فلما رأت العمة موقعه منى وموقعى منه ؛ حسدتنا على ذلك وكانت لها ابنة فشوفتها[4] وهيأتها لدخول زوجى فوقعت عينه عليها ، فقال : ياعمة هل لك أن تزوجينى ابنتك؟ قالت : نعم بشرط ، فقال لها : وما الشرط ؟ قالت: تصير أمر ابنة أخى إلى ، قال : قد صيرت أمرها إليك ، قالت : فإنى قد طلقتها ثلاثا بتة،

---

(١) لَحَنَ : أخطأ

(٢) أسفَرَت : كشفت عن وجهها .

(٣) صَيْرَفِيّ : بيَّاع النقود بنقودٍ غيرها .

(٤) شوفتها : زينتها .

وزوجت ابنتها زوجى فكان يغدو عليها ويروح ، فقلت لها : ياعمتى أتأذنين لى أن أنتقل عنك ؟ قالت : نعم ، فانتقلت عنها . وكان لعمتى زوج غائب فقدم فلما توسط منزلها قال : مالى لا أرى ربيبتنا ؟ قالت : طلقها زوجها فانتقلت عنا، فقال : إن لها من الحق علينا أن نعزيها بمصيبتها فلما بلغنى مجيئه إلى تهيأت له وتشوفت ، فلما دخل علىَّ عزانى بمصيبتى ثم قال : إن فيك بقية من الشباب فهل لك أن أتزوج بك ؟ قلت: ما أكره ذلك ولكن على شرط ، قال لى : وما الشرط ؟ قلت : تصير أمر عمتى بيدى، قال : فإنى قد فعلت وصيرت أمرها بيدك ، قلت : فإنى قد طلقتها ثلاثا بتة ؛ قالت: فقدم على بثقله من الغد ومعه ستة آلاف درهم فأقام عندى ، ثم إنه اعتل وتوفى ؛ فلما انقضت عدتى جاء زوجى الأول الصيرفى يعزينى بمصيبتى فلما بلغنى مجيئه تهيأت وتشوفت له ، فلما دخل على قال لى : يا فلانة إنك تعلمين أنك كنت أعز الناس على وأحبهم إلىّ وقد حلت المراجعة هل لك فى ذلك؟ قلت : ما أكره ، ولكن اجعل أمر ابنة عمتى بيدى ، قال : فإنى قد فعلت ، قلت : فإنى قد طلقتها ثلاثا بتة ، أصلح الله القاضى فرجعت إلى زوجى فما اعتدائى عليها ؟

فقالت العجوز : أنا فعلت مرة وفعلت مرة بعد أخرى ، فقلت : إن الله لم يؤقت فى هذا وقتا وقد قال ﴿**من عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله**﴾ [الحج: ٦٠] واحدة بواحدة والبادى أظلم ، فقال القاضى: إن زوج العمة لم يكن له أن يتزوج ابنة أخيها وهى فى عدته ، فأرادت العجوز أن تتولى التفريق بينه وبينها استيفاء لها ومجازاة لها على فعلها ، فقلت لها : قد فرقت بينكما قومى إلى منزلك ، انتهى .

[٥١] و[قيل] : ذكر المنصور يوما فى مجلسه زوال ملك بنى أمية وما جرى عليهم وأنهم عاشوا سعداء وماتوا فقراء ، فقال له إسماعيل بن على الهاشمى : إن عبد الله بن مروان بن محمد[١] فى حبسك وله قصة مع ملك النوبة فأحضره واسأله عنها ، فأحضره فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال المنصور : رد السلام أمن ولم تسمح نفسى بذلك، ولكن اقعد فقعد ، فقال : ما قصتك مع ملك النوبة ؟

فقال : يا أمير المؤمنين كنت ولى عهد أبى ، فلما طلبتنا دعوت عشرة من غلمانى ودفعت لكل واحد ألف دينار وأوسقت خمس بغال وشددت فى وسطى جوهرا له قيمة عظيمة وخرجت هاربا إلى بلاد النوبة فلما قربنا بعثت غلاما لى فقلت: امض إلى هذا الملك وأقرئه السلام وخذ لنا منه الأمان وابتغ لنا ميرة[٢] ، فمضى وأبطأ حتى أسأت به الظن ، ثم أقبل ومعه رجل فدخل وسلم ، وقال: الملك يقرئك السلام ويقول لك : من أنت وما جاء بك إلى بلادى أمحارب أم راغب فى دينى أم مستجير بى ، فقلت له : رد على الملك ما أنا بمحارب ولا راغب فى دينك ولا ممن يبتغى بدينه بدلا بل مستجير به ، فذهب الرسول ورجع إلى وقال : الملك يقول لك إنى أجىء إليك غدا فلا تحدث نفسك حدثا ولا شيئاً من الميرة، فقلت لأصحابى : افرشوا الفرش ففرش لى وجلست من الغد أرقبه وإذا هو

---

(١) عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، الأموى : شهد زوال دولتهم فى أيام أبيه [١٣١هـ] وفر من عبد الله بن على العباسى "عم السفاح" إلى بلاد النوبة ، ت[١٧٠هـ - ٧٨٧م] . انظر : تاريخ ابن خلدون (١١٢/٣)

(٢) الميْرَة : الطعام الذى يدخره الإنسان .

قد أقبل وعليه بردان قد ائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر حافى الرجلين ومعه عشرة معهم الحراب ثلاثة يقدمونه وسبعة خلفه فاستصغرت أمره وسولت لى نفسى قتله فلما قرب إذا سواد عظيم قلت: ماهذا ؟ قالوا : الخيل فوافى بها عشرة آلاف عنان[1] ووافت الخيل عند دخوله فأحدقوا بنا ؛ فلما دخل جلس على الأرض ، قال: فقلت لترجمانه : لِمَ لَمْ يقعد على الموضع الذى وطئ له فسأله فقال : قل له إنه ملك وكل ملك حقه أن يكون متواضعا لله وعظمته إذ رفعه الله على عباده، ثم نكت بأصبعه الأرض طويلا ، ورفع رأس ، وقال : قل له كيف سلبتم هذا الملك فأخذ منكم وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم؟ فقلت : جاء من أقرب منا قرابة إليه فسلبنا وغلبنا وطردنا ، فخرجت إليك مستجيرا بالله ثم بك ، قال : فلم كنتم تشربون الخمر وهو محرم عليكم ؟ قلت : فعل ذلك عبيد وأعاجم دخلوا فى ديننا وفى ملكنا من غير رأينا ، قال : فلم تركبون على الديباج وعلى خيولكم سروج الذهب والفضة وهى محرمة عليكم ؟ قلت : فعل ذلك عبيد وأعاجم دخلوا فى ديننا وفى ملكنا بغير رأينا ، قال : فلم كنتم إذا خرجتم إلى الصيد مررتم على القرى وكلفتم أهلها مالا طاقة لهم به : الضرب والإهانة ولا يقنعكم ذلك حتى تحطموا زرعهم فى طلب دراج[2] قيمته نصف درهم والتكليف والعناء محرم عليكم؟ قلت : فعل ذلك عبيد وغلمان وأتباع ، قال : لا ولكنكم استحللتم ما حرم الله عليكم وأتيتم مانهاكم الله عنه فسلبكم العز وألبسكم الذل ونصر أعداءكم عليكم ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها بعد ، وإنى أخاف أن ينزل بك النقمة إذا كنت من الظلمة فتشملنى

---

(١) عَنَان : لجام الخيل .

(٢) الدَرَّاج : القنقد لأنه يدرج فى الليل .

معك ، فإن النقمة إذا نزلت شملت، فاخرج بعد ثلاث فإن وجدتك بعدها أخذت مامعك وقتلتك ومن معك ، ثم وثب قائما وخرج وأقمت ثلاثا ورجعت الى مصر فأخذنى عاملك ، وبعث بى إليك وها أنا والموت أحب إلى من الحياة ، فرق له المنصور وهم بإطلاقه ، فقال له إسماعيل بن على: فى عنقى بيعة هذا ، قال : فما ترى قال ينزل فى دار من دورنا ، ويجرى عليه مايجرى على مثله ، ففعل به ذلك، انتهى .

[٥٢] و[قيل] **خطب المنصور يوما بالشام فقال : "أيها الناس ينبغى** لكم أن تحمدو الله تعالى على ماوهبكم الله فى فإنى منذ وليتكم صرف الله عنكم الطاعون الذى كان يجيئكم" ، فقال أعرابى : إن الله أكرم من أن يجمعك أنت والطاعون علينا.

[٥٣] و[قيل] : دخل ابن هرمة[1] على المنصور وامتدحه ، فقال له المنصور: سل حاجتك ، قال : تكتب إلى عاملك بالمدينة إذا وجدنى سكرانا لا يحدنى ، فقال له المنصور : هذا حد لاسبيل إلى تركه ، فقال : مالى حاجة غيرها ، فقال لكاتبه : اكتب إلى عاملنا بالمدينة من أتاك بابن هرمة وهو سكران فاجلده ثمانين واجلد الذى جاء به مائة فكان الشرطة

---

(١) إبراهيم بن على بن سلمة بن عامر : شاعر غزل من سكان المدينة ، من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، رحل إلى دمشق ومدح الوليد بن يزيد ثم وفد إلى المنصور العباسى فى وفد أهل المدينة فتحهم له ، ثم أكرمه ، وهو آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم . وقال الأصمعى : ختم الشعر بابن هرمة وكان مولعاً بالشراب ، وحلد فيه أكثر من مرة ، ت[١٧٦هـ] . انظر : عيون الأخبار لابن قتيبة (١٦٢/١) ، تاريخ بغداد (١٢٧/٦) ، البداية والنهاية (١٦٩/١٠).

يمرون عليه وهو سكران ويقولون من يشترى ثمانين بمائة فيمرون عليه ويتركونه ، انتهى[1] .

[٥٤] **وحدث أحمد بن موسى قال** : ما رأيت رجلا أثبت جنانا ولا أحسن معرفة ولا أظهر حجة من رجل رفع فيه عند المنصور بأن عنده أموالا لبنى أمية فأمر المنصور حاجبه الربيع[2] أن يحضره فلما حضر بين يديه ، قال المنصور : رفع إلينا أن عندك ودائع وأموالا وسلاحا لبنى أمية فأخرجها لنا لنجمع ذلك إلى بيت المال ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين أنت وارث لبنى أمية قال لا قال فلم تسأل إذن عما فى يدى من أموال بنى أمية ولست بوارث لهم ولا وصى فأطرق المنصور ساعة ثم قال : إن بنى أمية ظلموا الناس وغصبوا أموال المسلمين ، فقال الرجل : يحتاج أمير المؤمنين إلى بينة يقبلها الحاكم تشهد أن المال الذى لبنى أمية هو الذى فى يدى وأنه هو الذى غصبوه من الناس ، وأن أمير المؤمنين يعلم أن بنى أمية كانت لهم أموال لأنفسهم غير أموال المسلمين التى اغتصبوها على مايتهم أمير المؤمنين، قال: فسكت المنصور ساعة ، ثم قال : ياربيع صدق الرجل مايجب لنا على الرجل شيء ، ثم قال للرجل ألك حاجة ؟ قال : نعم قال

---

(١) جاء ذكر هذه القصة فى العقد الفريد لابن عبد ربه(٥٨/٨) ولكن كانت بين ابن هرمة مع المهدى .

(٢) الربيع بن يونس بن محمد بن أبى فروة ، كسبان أبو الفضل : من موالى بنى العباس ، وزير من العقلاء الموصوفين بالحزم ، اتخذه المنصور العباسى حاجبا ثم استوزره ، وعاش إلى خلافه المهدى ، وإليه تنسب "قطيعة الربيع" ببغداد وهى محلة كبيرة ، ت[١٩٦هـ - ٧٨٦م] .انظر :وفيات الأعيان (١٨٥/١) ، الأعلام للزركلى (١٥/٣).

ماهى ؟ أن تجمع بينى وبين من سعى فى إليك فوالله ياأمير المؤمنين ما لبنى أمية عندى مال ولا سلاح وإنما أحضرت بين يديك وعملت ما أنت فيه من العدل والإنصاف واتباع الحق واجتناب المظالم فأيقنت أن الكلام الذى صدر منى هو أنجح وأصلح لما سألتنى عنه ، فقال المنصور : ياربيع اجمع بينه وبين الذى سعى به فجمع بينهما ، فقال : ياأمير المؤمنين هذا أخذلى خمسمائة دينار وهرب ولى عليه مسطور شرعى فسأل المنصور الرجل فأقر بالمال قال فما حملك على السعى كاذبا ، قال : أردت قتله ليخلص لى المال ، فقال الرجل : قد وهبتها له ياأمير المؤمنين لأجل وقوفى بين يديك وحضورى مجلسك ووهبته خمسمائة دينار أخرى لكلامك لى، فاستحسن المنصور فعله وأكرمه ورده إلى بلده مكرما وكان المنصور كل وقت يقول ما رأيت مثل هذا الشيخ قط ولا أثبت من جنانه ولا من حجته مثله ولا رأيت مثل حلمه ومروءته ، انتهى .

٤ - فصل

خلافة المهدى[١]

[٥٥] اسمه محمد بن المنصور . حدثنا داود بن رشيد قال : قلت للهيثم بن عدى : بأى شيء استحق سعيد بن عبد الرحمن أن ولاه المهدى القضاء وأنزله منه تلك المنزلة الرفيعة ؛ فقال : إن خبر اتصاله بالمهدى ظريف فإن أحببت شرحته لك ، قلت: والله قد أحببت .

قال : اعلم أنه وافى الربيع الحاجب حين أفضت الخلافة إلى المهدى وقال له استأذن لى على أمير المؤمنين فقال له من أنت وما حاجتك ؟ قال أنا رجل قد رأيت لأمير المؤمنين أعزه الله رؤيا صالحة وقد أحببت أن تذكرنى له ، فقال الربيع : ياهذا إن القوم لايصدقون فيما يرونه لأنفسهم فكيف بما يراه لهم غيرهم فاحتل بحيلة غير هذا ، فقال : إن لم تخبره بمكانى سألت من يوصلنى إليه وأخبره أنى سألتك الإذن لى عليه فلم تفعل فدخل الربيع على المهدى فقال له يا أمير المؤمنين إنكم قد أطمعتم الناس فى أنفسكم فقد احتالوا عليكم بكل ضرب فقال له المهدى : هكذا تصنع

---

(١) محمد بن عبد الله بن محمد بن على العباسى ، المهدى : من خلفاء الدولة العباسية ، ولد بإذنج (من كور الأهواز) ولى الخلافة بعد وفاة أبيه وبعهد منه [١٥٨هـ] كان محمود العهد والسيرة ، محببا إلى الرعية ، جوادا . وكان يجلس للمظالم ويقول : أدخلوا على القضاة فلو لم يكن ردّى للمظالم إلا حياءً منهم لكفى . وهو أول من مشى بين يديه بالسيوف المتصلة والقسى والنشاب . وهو الذى بنى جامع الرصافة . وأقام فى الخلافة عشر سنين وشهرا ، ومات فى ماسبذان [١٦٩هـ = ٧٨٥م] . انظر: دول الإسلام للذهبى (٨٦/١) ، تاريخ الطبرى (١٠/١١-٢١) .

الملوك فماذا ؟ قال: رجل بالباب يزعم أنه رأى لأمير المؤمنين أيده الله رؤيا حسنة وقد أحب أن يقصها عليك ، فقال المهدى : ياربيع انى والله أرى الرؤيا لنفسى فلا تصح لى فكيف يمكن ادعاؤها ممن لعلة قد افتعلها ، قال : والله قلت له مثل هذا فلم يقبل ، قال : هات الرجل .

قال : فأدخل عليه سعيد وكان له رؤية ، وجمال ، ومروءة ظاهرة ، ولحية عظيمة ، ولسان طلق . فقال له : ما رأيت بارك الله فيك ؟ قال رأيت ياأمير المؤمنين آتياً أتانى فى منامى ، فقال : أخبر أمير المؤمنين أنه يعيش ثلاثين سنة فى الخلافة ، وآية ذلك أنه يرى فى ليلتة الآتية فى منامه كأنه يقلب ياقوتة ثم يعدها فيجدها ثلاثين ياقوتة كأنها قد وهبت له . فقال المهدى : ما أحسن مارأيت ونحن نمتحن رؤياك فى ليلتنا المقبلة على ماأخبرتنا ، فإن كان الأمر على ماذكرت أعطيناك فوق ماتريد وإن كان الأمر بخلاف ذلك لم نعاقبك ؛ لعلمنا أن الرؤيا الصالحة ربما صدقت وربما اختلفت . قال : ياأمير المؤمنين فما أصنع أنا الساعة إذا صرت إلى منزلى وعيالى وأخبرتهم أنى كنت عند أمير المؤمنين أكرمه الله ثم رجعت صفر اليد ، فقال له : المهدى فكيف نعمل ؟ فقال : يعجل لى أمير المؤمنين أعزه الله تعالى ما أحب وأحلف له بالطلاق أنى قد صدقت ، فأمر له بعشرة آلاف درهم وأمر بأن يؤخذ له كفيل ليحضر من غد ذلك اليوم فقبض المال وقال له : من يكفلك فمد عينه إلى خادم حسن الوجه والزى وقال : هذا يكفلنى ، فقال له المهدى: أتكفله ياغلام ؟ فاحمر وخجل وقال : نعم يا أمير المؤمنين فكفله ، وانصرف سعيد بن عبد الرحمن بالعشرة آلاف درهم فلما كانت تلك الليلة رأى المهدى ماذكره له سعيد

حرفا بحرف وأصبح سعيد فوافى الباب واستأذن فأذن له ، فلما وقعت عين المهدى عليه قال له : أين مصداق ماقلت لنا عليه ، فقلت له : وما رأى أمير المؤمنين فضجع فى جوابه[1] ، فقال له : امرأتى طالق إن لم تكن رأيت شيئاً . قال له المهدى : ما أجرأك على هذا الحلف بالطلاق فقال لأنى أحلف على صدق قال له المهدى فقد والله رأيت ذلك مبينا ، فقال له سعيد : الله أكبر فانجزلى يا أميرالمؤمنين ماوعدتنى قال : حبا وكرامة ثم أمر له بثلاثة آلاف دينار وعشرة تخوت[2] ثياب من كل صنف وثلاثة مراكب من أنفس دوابه محلاة فأخذ ذلك وانصرف ، فلحق به الخادم الذى كان كفله ، وقال له : سألتك بالله هل لهذه الرؤيا من أصل ؟ فقال سعيد : لا والله، فقال الخادم : كيف وقد رأى أمير المؤمنين ماذكرته ، قال : هذا من المخاريف التى لا أب لها ، وذلك أنى لما ألقيت هذا الكلام خطر بباله ، وحدث به نفسه ، وأسرى به قلبه واشتغل به فكره ، ففى ساعة نام خيل له ماحل فى قلبه واشتغل به فكره فنام فرآه . فقال له الخادم : قد حلفت بالطلاق ، قال : قد طلقت واحدة وبقيت معى على ثنتين وأزيد مهرها عشرة دراهم ، وأتحصل على عشرة آلاف درهم ، وثلاثة آلاف دينار ، وعشرة تخوت من أصناف الثياب، وثلاثة مراكب فارهة ، فبهت الخادم وتعجب من ذلك . فقال له سعيد : قد صدقتك وجعلت ذلك مكافأتك على كفالتك فاستر على . ثم طلبه المهدى لمنادمته فنادمه وحظى عنده وقلده القضاء على العسكر فلم يزل كذلك حتى مات ،انتهى.

---

(١) فضجع فى جوابه : أبطأ فى الرد .

(٢) التَخْت : خزانة الثياب .

[٥٦] **ويحكى** : أن المهدى خرج يتصيد فسار به فرسه حتى دخل إلى خباء أعرابى فقال : ياأعرابى هل من قرى ؟ قال : نعم ، فأخرج له قرص شعير فأكله ، ثم أخرج له فضلة من لبن فسقاه ، ثم أتاه بنبيذ فى ركوة فسقاه قعبا[١] فلما شرب ، قال: ياأخا أتدرى من أنا ؟ قال : لا والله، قال: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة ، قال: بارك الله فى موضعك ، ثم سقاه قعبا آخر فشربه ، فقال : ياأعرابى أتدرى من أنا ؟ قال : زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة ، قال : لابل أنا من قواد أمير المؤمنين قال: رحبت بلادك وطاب مرادك ، ثم سقاه ثالثا ، فلما فرغ منه ، قال : يا أعرابى أتدرى من أنا ؟ قال : زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين ، قال : لا ولكنى أمير المؤمنين ، فأخذ الأعرابى الركوة[٢] وأوكاها[٣] وقال : والله لو شربت الرابع لادعيت أنك رسول الله ، فضحك المهدى حتى غشى علية ، وأحاطت به الخيل ونزلت إليه الملوك والأشراف فطار قلب الأعرابى ، فقال له : لا بأس عليك ولا خوف ثم أمر له بكسوة ومال .

[٥٧] **وقيل** : كان لأسماء بنت المهدى جارية ، يقال لها : كاعب وكانت بكراً ناهداً ذات حسن وجمال وقد[٤] واعتدال وكانت بنت ست عشرة ، سنة قال : فتلاعب عليها أبو نواس[٥] لينالها ، فتمنعت منه مراراً

---

(١) القَعْب : قدح ضخم .

(٢) رِكْوَة : إناء صغير من جلد لشرب الماء وغيره .

(٣) أَوْكَأَ : أى شدها بالوِكاء ، والوكاء الخيط الذى تشد به الصرة وتعلق منه .

(٤) قد : معتدلة القامة .

(٥) الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن صباح الحكمى ، أبو نواس : شاعر العراق فى عصره، ولد بالأهواز من بلاد خوزستان ، ونشأ بالبصرة ورحل إلى بغداد فاتصل -

فظفر بها ليلة من الليالى فى ناحية من نواحى القصر فمسكها ، فبكت وقالت : الموت دون ذلك ، فقال أبو نواس : فى نفسه هذا جزع الأبكار فتركها مدة ، فاتفق أنه خرج من القصر ليلة ، وقد رقرق الدجى[1] فوجدها نائمة سكرى فتقرب منها وحل السراويل من وسطها ودهمها ، فإذا هى خالية من البكارة فارتاع وظن أن يكون أتاها دم فلم يجد ، و قام عنها وندم على ماكان منه وأخذ يقول[2] :

وناهدة الثديين من خدم القصر ... مرقوقة الخدين ليلة الشعر
كلفت بها دهرا على حسن وجهها ... طويلا وماحب الكواعب من أمرى
فمازلت بالأشعار حتى خدعتها ... وروضتها والشعر من خدع السحر
أطالبها شيئاً فقالت بعبرة ... أموت به داء ودمعتها تجرى
فلما تعانقنا توسطت لجة ... غرقت بها ياقوت فى لجج البحر
فصحت أغثنى ياغلام فجاءنى ... وقد زلقت رجلى ورحت إلى صدرى
ولولا صياحى بالغلام وأنه ... تداركنى بالحبل رحت إلى القعر
فاقسمت عمرى لا ركبت سفينة ... ولاسرت طول الدهر إلا على الظهر

فيها بالخلفاء من بنى العباس . قال الجاحظ : ما رأيت رجلا أعلم باللغة ولا أفصح لهجة من أبى نواس . قال الشافعى : لولا مجون أبى نواس لأخذت عنه العلم . وهو أول من نهج للشعر طريقته الحضارية وأخرجه من اللهجة البدوية . ولابن منظور "صاحب اللسان" كتاب سماه "أخبار أبى نواس" ، ت[١٩٨هـ = ٨١٤م] . انظر : الشعر والشعراء ص ٣١٣ ، وفيات الأعيان (١/١٣٥) ، تاريخ بغداد (٧/٤٣٦) .

(١) رَقْرَقَ الدُجى : خف الظلام .

(٢) انظر : ديوان أبى نواس ص ٢٣٦ .

حكاية أجنبية

[٥٨] قال المبرد[١] : صعدت من البصرة إلى بغداد ، فمررت بدير العاقول[٢] فرأيت مجنونا فيه ، فلم أر قط أظرف منه ولاأحسن ثيابا ويده الواحدة على صدره ، فلما دنوت منه أنشأ يقول :

الله يعلم أننى كمد	لاأستطيع أبث ماأجد
روحان لى روح تملكها	بلد وأخرى حازها بلد
وأرى الصبابة ليس ينفعها	صبر وليس لمثلها جلد
وأظن ظاعنتى كشاهدتى	بمكانها تجد الذى أجد

فقلت : أحسنت والله لله درك يامجنون ، فأهوى لشئ يرمينى به فبعدت عنه ، فقال لى :أنشدتك ماتحبه واستحسنته ، وتقول لى : يامجنون وتكون مع الزمان على ، فقلت له : أخطأت ، فقال : إذن اعترفت بخطئك، ثم قال : أنشدك شعرا أيضا ، قلت : نعم فأنشأ يقول :

ما أقتل البين للحب وما	أوجع قلب المحب بالكمد[٣]
عرضت نفسى على البلاء لقد	أسرى فى مهجتى وفى كبدى
ياحسرة إذ أبيت معتقلا	بين اختلاج الهموم والسهد[٤]

---

(١) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، أبو العباس المبرد : إمام العربية ببغداد فى زمنه . من كتبه ، الكامل ، شرح لامية العرب ، ت[٢٨٦هـ] . انظر : بغية الوعاة ص ١١٦ .

(٢) دير العاقول : دير بين مدائن كسرى ، والنعمانية بالقرب من بغداد .

(٣) البَيْن : الفرقة .

(٤) اختَلَجَ : شغلته الهموم والأرق . سُهْد : الأرق .

فقلت : أحسنت والله زدنا ، قال :

إن فتشوني فمحرق الكبد ... أو كشفوني فناحل الجسد
أضعف مابى وزادنى ألما ... أن لست أشكو النوى إلى أحد

فقلت : أحسنت والله زدنا ، فقال : يافتى أراك كلما أنشدتك بيتا ، قلت : زدنا وماذاك إلا لمفارقة حبيب أو خل أريب ، ثم قال : أحسبك أبا العباس المبرد بالله ماهو أنت ؟ قلت : أنا ذلك فمن أين عرفتنى ؟ فقال : وهل يخفى القمر ، ثم قال : ياأبا العباس أنشدنى من شعرك شيئاً تنتعش به روحى فأنشدته قولى :

بكيت حتى بكى من رحمتى الطلل ... ومن بكائى بكت أعدائى إذ رحلوا[1]
يامنزل الحى أين الحى قد نزلوا ... نفسى تساق إذا ماسيقت الإبل
أنعم صباحا سقاك الله من طلل ... غيثا وجاد عليك الوابل الهطل
سقياً لعهدهم والدار جامعة ... والشمل ملتئم والحبل متصل
فطال ماقد نعمنا والحبيب بها ... والدهر يسعد والواشون قد غفلوا
قد غير الدهر ماقد كنت أعرفه ... والدهر ذو دول بالناس ينتقل
بانوا فبان الذى قد كنت آمله ... والبين أعظم مايبلى به الرجل
فالشمل مفترق والقلب محترق ... والدمع منسكب والركب مرتحل
كأن قلبى لما سار عيسهم ... صب به دنف أو شارب ثمل[2]
لما أناخو قبيل الصبح عيسهم ... وثوروها وسارت بالهوى الإبل

---

(١) الطَّلَل : الشاخص من الآثار ، جمعه أطلال .

(٢) العِيْس : الإبل البيض يخالط بياضها سواد خفيف . الدَّنِفَ : من ثقل مرضه ودنا من الموت. الثَّمِل : شدة السكر .

وقلبت من خلال السجف ناظرها ترنو إلى ودمع العين منهمل[1]

ياحادى العيس عرج كى أودعهم ياحادى العيس فى ترحالك الأجل

إنى وحقك لاأنسى مودتهم ياليت شعرى لطول العهد ما فعلوا

قال أبو العباس المبرد فلما أتممت شعرى ، قال لى : مافعلوا قلت ماتوا فصاح صيحة عظيمة وخر مغشيا عليه فحركته فوجدته قد مات رحمة الله عليه ، انتهى .

---

(١) السَجْف : الستر .

obeikandl.com

٥- فصل

خلافة موسى الهادى بن محمد[١]

لم أر فيه شيئاً ومن رأى فيه شيئاً فليضعه ، قال بعض الفضلاء من حيث إن المؤلف أمر بأن من رأى فيه شيئا فليضعه فرأيت هذا النزر اليسير مذكورا فى تاريخ الإسحاقى[٢] فأحببت ذكره امتثالا لأمره .

[٥٩] فقلت : ذكر صاحب السكردان[٣] : إن الهادى كان يوما فى بستان يتنزه على حمار ، ولاسلاح معه وبحضرته جماعة من خواصه وأهل بيته فدخل عليه حاجبه وأخبره أن بالباب بعض الخوارج له بأس ومكايد وقد ظفر به بعض القواد فأمر الهادى بإدخاله فدخل عليه بين رجلين قد قبضا على يديه ، فلما أبصر الخارجى الهادى جذب يديه من

---

(١) موسى بن محمد بن أبى جعفر المنصور ، أبو محمد الهادى : من خلفاء الدولة العباسية ، ولد بالرى وولى الخلافة بعد وفاة أبيه [١٦٩هـ] وكان غائبا بحرجان فأقام أخوه الرشيد ببيعته ، واستبدت أمه الخيزران بالأمر . وعندما تولى الخلافة أراد خلع أخيه هارون من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر ، فلم تر أمه ذلك ، فزجرها ، فأمرت بقتله ، فقتل ودفن فى بستانه بعيسى أباذ [١٧٠هـ - ٧٨٦م] . انظر : الكامل لابن الأثير (٢٩/٦-٣٦) ، تاريخ الطبرى (٢١/١٠-٣٣) .

(٢) صاحب تاريخ الإسحاقى هو : محمد بن عبد المعطى الإسحاقى ، مؤرخ مصرى من أهل منوف . له "لطائف أخبار الأوّل فيمن تصرف بمصر من أرباب الدول" ، ت[١٠٦٠هـ - ١٦٥٠م] .

(٣) صاحب السكردان هو : أحمد بن يحيى بن أبى حجلة التلمسانى ، أديب ومؤرخ ، ت[٧٧٦هـ - ١٣٦٥م] .

الرجلين واختطف سيف أحدهما وقصد الهادى ، ففر كل من كان حوله وبقى وحده وهو ثابت على حماره حتى إذا دنا منه الخارجى وهم أن يعلوه بالسيف أومأ إلى وراء الخارجى وأوهمه أن غلاما وراءه ، وقال : ياغلام اضرب عنقه، فظن الخارجى أن غلاما وراءه والتفت الخارجى ، فنزل الهادى مسرعا عن حماره فقبض على عنق الخارجى ، وذبحه بالسيف الذى كان معه، ثم عاد إلى ظهر حماره من فوره وأتباع الهادى ينظرون إليه ويتسللون عليه وقد ملئوا منه حياءً ورعباً فما عاتبهم ولاخاطبهم فى ذلك بكلمة ، ولم يفارق السلاح بعد ذلك اليوم ولم يركب إلا جوادا من الخيل فانظر إلى هذا المقدار فى ثبات جأش الملوك ، فإنه قل من يفعل ذلك وهذه مرتبة لم يصل إليها أحد إلا نادرا .

[٦٠] **حكى عبد الحق**[1] : إنه قال : مما ابتلى به الهادى من المحبة أنه كان مغرما بجارية تسمى غادر[2] ، وكانت من أحسن النساء وجها وأطيبهن غناء ، اشتراها بعشرة آلاف دينار ، فبينما هو يشرب مع ندمائه ، إذ فكر ساعة وتغير لونه وقطع الشراب ، فقيل له : مابال أمير المؤمنين ؟ قال: وقع فى قلبى أنى أموت وأن أخى هارون يلى الخلافة ويتزوج غادر، فامضوا وائتونى برأسه ، ثم رجع عن ذلك وأمر بإحضاره ، وحكى له ماخطر بباله فجعل هارون يترفق به ، فقال : لاأرضى حتى تحلف لى بكل ماأحلفك به أنى إذا مت لاتتزوج بها فرضى بذلك وحلف أيمانا عظيمة

---

(١) عبد الحق ، الدهلوى : مؤرخ ، محدث وأديب هندى كبير ، له "تاريخ حقى" أو "تاريخ عبد الحق" ، ت[١٠٥١هـ - ١٦٤٢م] .

(٢) انظر : أعلام النساء لرضا كحالة (٣/٤) .

ودخل إلى الجارية وحلفها أيضا على مثل ذلك ، فلم يلبث بعد ذلك سوى شهر ومات ، وولى الخلافة هارون الرشيد ، فطلب الجارية فقالت : ياأميرالمؤمنين كيف تصنع بالأيمان ؟ فقال : قد كفرت عنك وعنى ثم تزوج بها ، ووقعت فى قلبه موقعا عظيما ، وافتتن بها أعظم من أخيه الهادى حتى كانت تسكر وتنام فى حجره فلا يتحرك ولاينقلب ، فبينما هى فى بعض الليالى وهى فى حجره نائمة إذا بها انتبهت فزعة مرعوبة ، فقال لها : مابالك فديتك ؟ قالت رأيت أخاك الهادى الساعة فى النوم فأنشدنى هذه الأبيات :

أخلفت عهدى بعدما ... جاورت سكان المقابر
ونسيتنى وحنثت فى ... أيمانك الزور الفواجر
ونكحت غادرة أخى ... صدق الذى سماك غادر
لايهنك الألف الحديد ... ولا تدر عنك الدوائر
ولحقتنى قبل الصبا ... ح وصرت حيث غدوت صائر

قالت : ثم ولى عنى ، وكأن الأبيات مكتوبة فى قلبى مانسيت منها كلمة ، فقال لها : هذه أحلام الشيطان ، فقالت : كلا والله يا أميرالمؤمنين ثم اضطربت بين يديه : وماتت فى تلك الساعة ولاتسأل عن هارون الرشيد و ما لقى بعدها ، انتهى .

٦- فصل

خلافة هارون الرشيد بن محمد المهدى[١]

هو أخو موسى الهادى وهو الخامس من بنى العباس

[٦١] **قال إبراهيم الموصلى[٢] فى تهنئة الخلافة** : عندما ولى الرشيد بعد أخيه موسى الهادى :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة ... فلما أتى هارون أشرق نورها
تلبست الدنيا جمالا بملكه ... فهارون واليها ويحيى وزيرها

[٦٢] و[قيل] : قدم أعرابى حين ولى هارون الخلافة فقيل له : فيم جئت ؟ قال : أتيت برسالة ، قال : ائت بها ، قال : أتانى آت فى منامى فقال ائت أمير المؤمنين فأبلغه هذه الأبيات :

توارثت الخلافة من قريش ... تزف إليكما أبدا عروسا

---

(١) هارون بن محمد بن أبى جعفر المنصور ، الرشيد : خامس خلفاء العباسيين ، وأشهرهم وعلامتهم كان عالما بالأدب وأخبار العرب ، والحديث والفقه ، ازدهرت الدولة الإسلامية فى عهده وبلغت أوجها ، تولى الخلافة بعد اغتيال أخيه الهادى ، حارب البيزنطيين وهو لايزال حاكما على المقاطعات الغربية وبلغ أبواب القسطنطينية . ازدهرت فى عهده التجارة والأدب والعلوم . وهو من نكب بالبرامكة بعدما لعبت دورا هاما فى الحكم ، ت[١٩٣هـ - ٨٠٩م] . انظر : البداية والنهاية (٢١٣/١٠) ، كامل لابن الأثير (٣٣١/٢) ، تاريخ اليعقوبى (١٣٩/٣) .

(٢) إبراهيم الموصلى : من أشهر موسيقى العرب ، برع فى الغناء والعزف على العود ، نادم المهدى والهادى والرشيد وعرف بالنديم ، ت[٧٤٢م : ٨٠٤م] .

إلى هـارون تهـدى بعـد موسـى تميس ومالهـا أن لاتميسـا[1]

فأعطاه الرشيد عطاء جزيلا وصرفه .

[٦٣] **بويع له بالخلافة** فى الليلة التى توفـى فيهـا أخـوه ، وولـد فـى تلك الليلة المأمون ، وكانت ليلة عظيمة لم ير مثلها فـى بنـى العبـاس مـات فيها خليفة ، وولى فيها خليفة ؛ وولد فيهـا خليفـة ولمـا بويـع الرشـيد قلـد جعفر بن يحيـى بـن خـالد بـن برمـك[2] وزارتـه ؛ وسـيأتى إيقـاع الرشـيد بالبرامكة وسبب ذلك .

[٦٤] **ويحكى** : أن هـارون الرشـيد مـر فـى بعـض الأيـام وبصحبتـه جعفر البرمكى وإذا هو بعدة بنات يستقين الماء فعرج عليهن يريـد الشـرب وإذا إحداهن تقول:

قولـــى لطيفـــك ينثنـــى عـــن مضجعـــى وقـــت المنـــام
كـــى أســـتريح وتنطفـــى نـــار تـــأجج فـــى العظـــام
دنـــف تقلبـــه الأكـــف علـــى بســـاط مـــن ســـقام
أمـــا أنـــا فكمـــا علمـــت فهـــل لوصلـــك مبـــن دوام

---

(١) تَميس : مشى وهو يتمايل ويتبختر .

(٢) جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى ، أبو الفضل : وزير الرشيد العباسى ولـد ونشأ فى بغداد ، واستوزره هارون الرشيد ملقيا إليه أمور الحكم وأعبائه ، وكان يدعوه : أخى، فانقادت له الدولة ، يحكم بما شاء فلا ترد أحكامه ، إلى أن نقم الرشيد بـه وبالبرامكة، وهو أحد الموصوفين بفصاحة المنطق وبلاغة القول وكـرم اليد والنفس، ت[١٨٧هـ = ٨٠٣م] . انظـر مقدمـة ابـن خلـدون ص٢٢ ، البدايـة والنهايـة (١٠/١٨٩،١٩٤) ، وفيات الأعيان (١/١٠٥) ، تاريخ بغداد (٧/١٥٢) .

فأعجب أمير المؤمنين ملاحتها وفصاحتها ، فقال لها : يابنت الكرام هذا من قولك أم من منقولك ؟ قالت : من قولى ، قال : إن كان كلامك صحيحا فامسكى المعنى وغيرى القافية فأنشدت تقول :

قولى لطيفك ينثنى ... عن مضجعى وقت الوسن[1]
كى أستريح وتنطفى ... نار تأجج فى البدن[2]
دنف تقلبه الأكف ... على بساط من شجن
أما أنا فكما علمت ... فهل لوصلك من ثمن

فقال لها : والآخر مسروق ، قالت : بلى كلامى ، فقال : إن كان كلامك أيضا فامسكى المعنى وغيرى القافية فقالت :

قولى لطيفك ينثنى ... عن مضجعى وقت الرقاد
كى أستريح وتنطفى ... نار تأجج فى الفؤاد
دنف تقلبه الأكف ... على بساط من حداد
أما أنا فكما علمت ... فهل لوصلك من سداد

فقال لها : والآخر مسروق ، فقالت بل : كلامى ، فقال لها : إن كان كلامك فامسكى المعنى وغيرى القافية فقالت :

قولى لطيفك ينثنى ... عن مضجعى وقت الهجوع[3]
كى أستريح وتنطقى ... نار تأجج فى الضلوع
دنف تقلبه الأكف ... على بساط من دموع

---

(١) الوسن ، وَسِنَ : أخذه ثقل النوم .

(٢) تأجج : التهب .

(٣) الهجوع : النوم .

أمـــا أنـــا فكمـــا علمـــــت فهـــل لوصلـــك مـــن رجـــوع

فقال لها أمير المؤمنين : أنت من أى هذا الحى ؟ قالت : من أوسطه بيتا وأعلاه عمودا ، فعلم أمير المؤمنين أنها بنت كبير الحى ؛ ثم قالت : وأنت من أى راعى الخيل ؟ فقال : من أعلاها شجرة وأينعها ثمرة فقبلت الأرض وقالت : أيد الله أمير المؤمنين ودعت له ثم انصرفت مع بنات العرب . فقال الخليفة : لجعفر لابد من أخذها ، فتوجه جعفر إلى أبيها وقال له : أمير المؤمنين يريد بنتك ، فقال : حبا وكرامة ، تهدى جارية إلى أمير المؤمنين مولانا ، ثم جهزها وحملها إليه فتزوجها ودخل بها ، فكانت عنده من أعز نسائه ، وأعطى والدهاما يستره بين العرب من الأنعام ، ثم بعد مدة انتقل والدها بالوفاة إلى رحمة الله تعالى ، فورد على الخليفة خبر وفاته فدخل عليها وهو كئيب ، فلما شاهدته وعليه الكآبة نهضت ودخلت إلى حجرتها وقلعت كل ماعليها من الثياب الفاخرة ولبست ثياب الحزن وأقامت النعى له، فقيل لها : ماسبب هذا ؟ فقالت : مات والدى فمضوا إلى الخليفة فأخبروه ، فقام وأتى إليها وسألها من أعلمها بهذا الخبر ؟ قالت: وجهك ياأمير المؤمنين ! قال : كيف ذلك ؟ قالت : منذ أنا عندك مارأيتك هكذا ولم يكن لى من أخاف عليه إلا والدى لكبره ؛ ويعيش رأسك أنت ياأمير المؤمنين ؛ فترغرغت عيناه بالدموع وعزاها فيه وأقامت مدة وهى حزينة على والدها ثم لحقت به رحمة الله عليهم أجمعين .

[٦٥] **ويحكى** : أن أمير المؤمنين هارون الرشيد أرق ذات ليلة ، فقام يتمشى فى قصره بين المقاصير[١] ، فرأى جارية من جواريه نائمة

---

(١) مَقَاصِيرُ : طرق

فأعجبته ، فداس على رجلها فانتبهت فرأته أمير المؤمنين فاستحيت منه وقالت : ياأمين الله ماهذا الخبر ، فأجابها بقوله :

قلت ضيف طارق فى أرضكم هل تضيفوه إلى وقت السحر

فأجابته تقول :

بسرور وهناء سيدى أخدم الضيف بسمعى والبصر

فبات عندها إلى الصباح ، فسأل أمير المؤمنين من بالباب من الشعراء؟ قيل له: أبو نواس ، فأمر به فدخل عليه فقال له : هات على ، ياأمين الله ماهذا الخبر ، فأنشأ يقول :

طال ليلى حين وافانى السهر فتفكرت فأحسنت الفكر
قمت أمشى فى المجالى ساعة ثم أجرى فى مقاصير الحجر
فإذا وجه جميل مشرق زانه الرحمن من بين البشر
فلمست الرجل منها موطئا فدنت منى ومدت للبصر
وأشارت لى بقول مفصح ياأمين الله ماهذا الخبر
قلت ضيف طارق فى أرضكم هل تضيفوه إلى وقت السحر
فأجابت بكل سرور سيدى أخدم الضيف بسمعى والبصر

قال فتعجب أمير المؤمنين من ذلك وأمر له بصلة .

[٦٦] **ويحكى** : أن هارون الرشيد هجر جارية له ، ثم لقيها فى بعض الليالى فى القصر سكرى تدور فى جوانب القصر وعليها مطرف خز[1] وهى تسحب أذيالها من التيه والعجب ، وسقط رداؤها عن منكبيها

---

(١) مُطْرَف خَزّ : رداء من الحرير .

والريح أبان نهديها كأنهما رمانتان ، ولها ردفان ثقيلان ، فراودها عن نفسها ، فقالت : ياأمير المؤمنين هجرتنى هذه المدة وليس لى علم بملاقاتك فانظرنى إلى غد حتى أتهيأ وآتيك ، فلما أصبح قال : للحاجب لاتدع أحدا يدخل على إلا فلانة وانتظرها فلم تجئ فقام ودخل عليها وسألها إنجاز الموعد ، فقالت : ياأمير المؤمنين كلام الليل يمحوه النهار . فقام واستدعى من بالباب من الشعراء فدخل عليه أبو نواس ، والرقاشى[1] ، وأبو مصعب[2] فقال لهم : هاتوا علىّ : كلام الليل يمحوه النهار ، فقال الرقاشى : أنا قائل فى ذلك ثلاثة أبيات وأنشأ يقول:

أتسلوها وقلبك مستطار ... وقد منع القرار فلا قرار
وقد تركتك صبا مستهاما ... فتاه لاتزور ولاتزار
فولت وانثنت تيها وقالت ... كلام الليل يمحوه النهار

وقال أبو مصعب : وأنا قائل فى ذلك ثلاثة أبيات وأنشأ يقول :

فهل لوصلك من دوام ... لما وسعتك فى بغداد دار
أما يكفيك أن العين عبرى ... ومن ذكراك فى الأحشاء نار
تبسمت الفتاة بغير ضحك ... كلام الليل يمحوه النهار

---

(١) الفضل بن عبد الصمد بن الفضل الرقاشى ، أبو العباس : شاعر من أهل البصرة ، فارسى الأصل . انتقل إلى بغداد ومدح الخلفاء . قال المبرد : كان الفضل يظهر الغنى وهو فقير ، ويظهر العز وهو ذليل ، ويتكثر وهو قليل ، فكانت الشعراء تهجوه ، ت[٢٠٠هـ - ٨١٥م]. انظر : فوات الوفيات (١٢٥/٢) ، تاريخ بغداد (٣٤٥/١٢) .

(٢) مصعب بن الحسين البصرى ، أبو الحسين ؛ المعروف : بمصعب الماجن : شاعر من أهل البصرة . كان وراقا ، استفرغ شعره فى وصف الغلمان ، ت[٢٥٠هـ-٨٦٥م] .

وقال أبو نواس : وأنا قائل فى ذلك أربعة أبيات وأنشأيقول :

وخود أقبلت فى القصر سكرى ... ولكن زين السكر الوقار
وهز الريح أردافا ثقالا ... وغصنا فيه رمان صغار
وقد سقط الردا عن منكبيها ... من التخميش وانحل الإزار[1]
فقلت الوعد سيدتى فقالت ... كلام الليل يمحوه النهار

فقال الرشيد : قاتلك الله كأنك كنت معنا أو مطلعا علينا ، وأمر لكلٍ بخلعة سنية[2] ، خمسة آلاف درهم ، ولأبى نواس بعشرة آلاف درهم، انتهى[3] .

[٦٧] **وذكر الخطيب[4] فى بعض مصنفاته** : أن الرشيد دخل يوما وقت الظهر إلى مقصورة جارية تسمى الخيزران على غفلة منها فوجدها تغتسل ، فلما رأته تجللت[5] بشعرها حتى لم ير من جسدها شيئاً فأعجبه ذلك الفعل واستحسنه ثم عاد إلى مجلسه وقال : من بالباب من الشعراء ؟ قالوا له : أبو نواس ، وبشار[6] فقال : ليحضرا جميعا فأحضرا فقال الرشيد: ليقل كل منكما أبياتا توافق مافى نفسى فأنشأ بشار يقول :

---

(١) التخميش : اللطم على الوجه .

(٢) خلعة سنية : رفيعة القدر .

(٣) ذكرت القصة فى العقد الفريد لابن عبد ربه (٤٠٩/٦) . ولكن مع الأمين .

(٤) الخطيب ، أبو بكر أحمد : محدث ، أصولى ، مؤرخ . ترحل وسمع الحديث . له تاريخ بغداد ، ت[٤٦٤هـ=١٠٧٢م] .

(٥) تَجَلَّلت : تغطت .

(٦) بشار بن برد بن يرجوخ العقيلى ، أبو معاذ : شاعر غزلى مشهور ، ت[١٧٨هـ] . انظر : شذرات الذهب (٣٦٤/١) .

تحببتكم والقلب صار إليكموا ... بنفسي ذاك المنزل المتحبب
إذا ذكروا الهجران لاعن ملالة ... وذكراهم ينمي إلى محبب
وقالوا تحببنا ولاقرب بيننا ... فكيف وأنتم حاحتى تتحنبوا
على أنهم أحلى من الشهد عندنا ... وأعذب من ماء الحياة وأطيب

فقال : أحسنت ولكن ماأصبت مافى نفسى ، فقل : أنت ياأبا نواس فجعل يقول[1] :

نضت عنها القميص لصب ماء ... فورد خدها فرط الحياء
وقابلت الهواء وقد تعرت ... بمعتدل أرق من الهواء
ومدت راحة كالماء منها ... إلى ماء معد فى إناء
فلما أن قضت وطراو همت ... على عجل لتأخذ الرداء
رأت شخص الرقيب على التدانى ... فأسبلت الظلام على الضياء
وغاب الصبح منها تحت ليل ... فظل الماء يجرى تحت ماء
فسبحان الإله وقد براها ... كأحسن مايكون من النساء

فقال الرشيد : سيفا ونطعا ، فقال له : ولم ياأمير المؤمنين ؟ قال : أمعنا كنت؟ قال : لا والله ولكن شيء خطر ببالى فأمر له بأربعة آلاف درهم وصرفه أهـ .

[٦٨] ويحكى : أن أمير المؤمنين الرشيد أرق ذات ليلة أرقا شديدا ، فقام من فراشه وتمشى من مقصورة إلى مقصورة وقلقه زائد ونفسه محصورة، فلما أصبح قال: علىَّ بالأصمعى فخرج الطواشى[2] إلى البوابين

---

(١) انظر : ديوانه ص ٢٨ .

(٢) الطَّوَاشِيّ : من جملة الخدم الخاصة .

فقال لهم : يقول لكم أمير المؤمنين : ارسلوا أحداً خلف الأصمعى فلما حضر ، أعلم الخليفة به فأجلسه ورحب به ، وقال: يا أصمعى أريد منك أن تحدثنى بأجود ماسمعت من أخبار النساء وأشعارهن ، فقال : سمعا وطاعة ، لقد سمعت كثيرا ولم يعجبنى سوى ثلاثة أبيات أنشدهن ثلاث بنات ، فقال له : حدثنى حديثهن فقال : اعلم ياأمير المؤمنين إنى توجهت سنة إلى البصرة فاشتد على الحر ، فطلبت مقيلا أقيل فيه فلم أجد ، فبينما أنا أتلفت يمينا وشمالا ، إذا أنا بساباط[1] مكنوس مرشوش ، وفية دكة من خشب وعليها شباك مفتوح تفوح منه رائحة المسك ، فدخلت الساباط وجلست على الدكة وأردت الاضطجاع، فسمعت كلاما عذبا من فم جارية حسناء وهى تقول : ياأختى إنا جلسنا يومنا هذا على وجه الصبوح تعالين نطرح ثلثمائة دينار ، وكل منا تقول بيتا من الشعر ، فكل من قالت البيت الأعذب الأملح كانت الثلثمائة دينار لها ، فقلن : حبا وكرامة ، فقالت الكبرى :

عجبت له أن زار فى النوم مضجعى ولوزارنى مستيقظا كان أعجبا

فقالت الوسطى :

ومازارنى فى النوم الا خياله فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا

فقالت الصغرى :

بنفسى وأهلى من أرى كل ليلة ضجيعى ورياه من المسك أطيبا

فقلت : إن كان لهذا المقال جمال تم الأمر على كل حال فنزلت عن الدكة وأردت الانصراف ، وإذا بالباب قد فتح وخرجت منه جارية وهى

---

(١) سَابَاط : سقيفة بين دارين تحتها طريق .

تقول : اجلس ياشيخ فطلعت على الدكة ثانيا وجلست ، فدفعت إلى ورقة فنظرت خطا فى نهاية الحسن مستقيم الألفات مجوف الها آت مدور الواوات مضمونه ، نعلم الشيخ ، أطال الله بقاءه ، أننا ثلاث بنات أخوات جلسنا على وجه الصبوح وطرحنا ثلثمائة دينار ، وشرطنا أن كل من قالت البيت الأعذب الأملح كان لها الثلثمائة دينار وقد جعلناك الحكم فى ذلك فاحكم بما تراه والسلام ، فقلت للجارية : على بدواة وقرطاس فغابت قليلا وخرجت إلى بدواة مفضضة وأقلام مذهبة فأنشأت أقول :

أحدث عن خود تحدثن مرة ... حديث امرئ ساس الأمور وجربا
ثلاث كبكرات الصحارى جحافل ... حللن بقلب للمشوق معذبا
خلون وقدا نامت عيون كثيرة ... من الراقدين المشتهين التغيبا
فبحن بما يخفين من داخل الحشا ... نعم واتخذن الشعر لهوا وملعبا
فقالت عروب ذات عز عزيزة ... وتبسم عن عذب المقالة أنسبا
عجبت له أن زار فى النوم مضجعى ... ولو زارنى مستيقظا كان أعجبا
فلما انقضى مازخرفت وتضاحكت ... تنفست الوسطى وقالت تطربا
ومازارنى فى النوم إلا خياله ... فقلت أهلا وسهلا ومرحبا
وأحسنت الصغرى وقالت مجيبة ... بلفظ لها قد كان أشهى وأعذبا
بنفسى وأهلى من أرى كل ليلة ... ضجيعى ورياه من المسك أطيبا
فلما تدبرت الذى قلن وانبرى ... لى الحكم لم أترك لذى اللب متعبا
حكمن لصغراهن فى الشعر أننى ... رأيت الذى قالت جميلا وأصوبا

قال الأصمعى ثم دفعت الرقعة إلى الجارية ، فلما صعدت إلى القصر فإذا برقص وتصفيق ودنيا دانية وقيامة قائمة ، فقلت : مابقى لى إقامة فنزلت عن الدكة وأردت الانصراف وإذا بالجارية تنادى وتقول : اجلس

ياأصمعى، فقلت : ومن أعلمك أننى الأصمعى ؟ فقالت ياشيخ إن خفى علينا اسمك فما خفى علينا نظمك ، فجلست وإذا بالباب قد فتح وخرجت منه الجارية الأولى ، وعلى يدها طبق من فاكهة وطبق من حلوى فتفكهت وتحليت وشكرت صنعها وأردت الانصراف ، وإذا بالجارية تنادى وتقول: اجلس ياأصمعى ، فرفعت بصرى إليها فنظرت كفا أحمر فى كم أصفر فخلته البدر يشرق من تحت الغمام ، ورمت لى بصرة فيها ثلثمائة دينار ، وقالت : هذا صار لى وهو منى لك هبة فى نظير حكومتك فقال لى : أمير المؤمنين لأى شىء حكمت للصغرى ولم تحكم للكبرى ولا للوسطى ، فقلت له : ياأمير المؤمنين إن بيت الكبرى قالت : عجبت له أن زار فى النوم مضجعى ، وهو محمول معلق على شرط وقد لايقع . وأما الوسطى : فمر بها طيف خيال فى النوم فسلمت عليه . وبيت الصغرى : ذكرت أنها ضاجعته مضاجعة حقيقية وشمت منه أنفاسا أطيب من المسك وفدته بنفسها وأهلها ولايفدى بالنفس إلا من هو أعز من النفس ، فقال الخليفة : أحسنت ياأصمعى ثم دفع إلى ثلثمائة دينار فأخذتها وانصرفت ، فكنت أقول : لله درك من شعر أخذت فى حكومتى منه ثلثمائة دينار وفى حكايته مثلها والله أعلم .

[٦٩] **ومما حكى عن الأصمعى فى نوادره قال :** سهرت ليلة عند الرشيد فى الرقة فقال لى : من معك ياعبد الله يؤنسك ، فقلت ياأمير المؤمنين مالى أنيس غير الوحدة ، فأمسك وأقبل فى حديثه ماشاء الله ، ثم نهض ونهض من بحضرته ؛ فلما صرت إلى منزلى وإذا بخادم الأمير يقرع الباب ، فخرجت فإذا ضوء شمع وضجة وغوغاء ومعه جارية فلما رآنى الخادم دنا منى وقبل يدى وقال لى : يقول لك أمير المؤمنين : قد أمرنا لك

بمن يؤنسك وهى جارية من خواصه وشيء من المال ، فشكرت أمير المؤمنين ، ودعوت له وتقدم الخادم بإدخال الجارية ومعها من الالآت والخدم والجوارى والفرش مالم أر مثله إلا عند أمير المؤمنين ، ثم ودعنى الخادم وانصرف ؛ فلما نظرت إلى الجارية رأيتها أحسن الناس وجها ، وأكملهم قدا وشكلا وظرفا ، وأكثرهم مجونا ، فداخلنى لها هيبة وانقباض فقالت ماهذا الحياء البارد السمج الذى لاوجه له ، أين ملحك ونوادرك ! ثم قالت لجارية من الجوارى: هات ماعندك فجاءت بأحسن مايكون من ألوان الطعام فأكلنا ، وهى مع ذلك تباسطنى وتؤانسنى بالحديث والملاعبة، ثم دعت بالشراب فشربت وسقتنى، ثم قالت : مابقى بعد الأكل والشرب إلا النوم والخلوة ، فقامت ولبست من الثياب مأرادت وألبستنى ثيابا فاخرة مبيضة ، وتفرق من كان عندنا ، ثم اضطجعت إلى جانبى فلما جمعنا الفراش اصابنى من الحصر وانقطاع الإنعاظ ورخاوة الاير مالم أكن أعهده قبل ذلك ، فجعلت تقلبه بيدها وتغمزه فلا يزداد إلا انكماشا وموتا ، فلما أعيتها الحيلة فيه ، ويئست من قيامه ، ومضى من الليل أكثره ، قالت : عظم الله أجرك فى إيرك ، ثم نهضت ولبست ثياب الحداد ودعت بسفط فأخرجت منه مناديل صغار ، أو حنوطا و قالت : نم على ظهرك يابطال فاستولى على الخجل ، حتى أنى لم أقدر أخالفها فى شيء مما تأمرنى به فى جميع ماتفعله فى ، فغسلته وحنطته وكفنته بتلك المناديل ، فلما فرغت همت بجواريها وقامت معهن فى بكاء ، ونحيب ، ونوح ، وندب ، وصراخ بأشد مايكون ومازلن على ذلك إلى وقت السحر، ثم قالت : مابقى إلا مايتولاه الرجال من الصلاة والدفن وولت عنى، فقمت وأنا أخزى خلق الله حالا فلبست ثيابى وصليت الفجر،

وسرت من وقتى وساعتى إلى الرشيد ، فأنكر الحاجب حضورى فى ذلك الوقت وأعلم الرشيد بى فأذن لى فدخلت وهو قاعد فى مصلاه ، فقال لى : ويحك مادهاك فى هذا الوقت ؟ فقلت : ياأمير المؤمنين خبرى عجيب وأمرى غريب فبالله عليك ياأمير المؤمنين ألا مارحمتينى وأرحتنى من هذه الجارية التى أنفذتها إلى ، فلا حاجة لى بها ، فقال أمير المؤمنين : ومالسبب لذلك ومالخبر الذى دهاك وليس لها عندك حين من الزمان ؟ فشرحت له القصة من أولها إلى آخرها ، حتى بلغت إلى إقامة الصلاة فاشتد ضحكه حتى أنه كاد أن يستلقى على قفاه ، وسمعت الضحك من كل ناحية فى الدار من الجوارى وغيرهن ، ثم قال نحن إلى هذه أحوج منك إليها وقد كنا غافلين ، عنها ثم إنه أمر بحملها إلى داره وعوضنى عنها خمسين ألف درهم وترك جميع ماحل معها فى منزلى وخرجت مجردة ، فحظيت بعد ذلك عند الرشيد حتى انه لم يتقدم عليها أحد من نظائرها وسميت من وقتها هذا بالأصمعة إلى أن توفيت رحمة الله عليهم أجمعين .

[٧٠] **وعن أبى إسحاق إبراهيم الموصلى قال**[1] : استأذنت الرشيد أن يهب لى يوما من الأيام للانفراد بجوارى وإخوانى فاذن لى فى يوم السبت، فأتيت منزلى وأخذت فى اصلاح طعامى وشرابى ومااحتجت إليه وأمرت البوابين بغلق الأبواب ، وأن لايأذنوا لأحد بالدخول علىَّ ، فبينما أنا فى مجلس والحريم قد حففن بى ، وإذا بشيخ ذى هيبة وجمال وعليه جبتان قصيرتان وقميص ناعم وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة من فضة وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار والرواق ، فداخلنى غيظ

---

(١) انظر : ثمرات الأوراق ص٥٥ .

عظيم لدخلوه على وهممت بطرد البوابين ، فسلم عليَّ أحسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس وأخذ يحدثني بأحاديث العرب وأشعارهم حتى ذهب مابي من الغضب وظننت أن غلماني تحروا مسرتي لإدخال مثله عليَّ لأدبه وظرفه ، فقلت : هل لك في الطعام ؟ قال : لاحاجة لي فيه قلت فالشراب ؟ قال : ذلك إليك فشربت رطلا وسقيته مثله ، ثم قال ياأبا إسحاق هل لك أن تغنينا شيئا فنسمع من صنعتك ماقد فقت به العام والخاص ، فغاظني قوله ثم سهلت الأمر على نفسي فأخذت العود وضربت وغنيت فقال أحسنت ياإبراهيم فازددت غيظا ، فقلت: مارضي بما فعله في دخوله بغير إذني واقتراحه علي حتى سماني باسمي ولم يجهل مخاطبتي ، ثم قال: هل تزيد ونكافئك فتذممت وأخذت العود وغنيت وتحفظت فيما غنيته وقمت به قياما تاما لقوله ونكافئك فطرب ، وقال : أحسنت ياسيدي، ثم قال : أتأذن لي في الغناء ؟ فقلت : شأنك واستضعفت عقله في أن يغني بحضرتي بعد الذي سمعه مني فأخذ العود ، وحسه فوالله خلت أن العود ينطق بلسان عربي ، اندفع يغني هذه الأبيات :

ولي كبد مقروحة من يبيعني ... بها كبد ليست بذات قروح

أباها على الناس لايشترونها ... ومن يشتري ذا علة بصحيح

أئن من الشوق الذي في جوانحي ... أنين غصيص بالشراب طريح[1]

قال إبراهيم : فوالله لقد ظننت أن الأبواب والحيطان وكل مافي البيت تجيبه وتغني معه وبقيت مبهوتا لاأستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبي ، ثم اندفع يغني فقال :

---

(١) غَصٌّ : اعترض الشراب حلقه فمنعه من التنفس .

ألا ياحمامات اللوى عدن عودة ... فإنى إلى أصواتكن حزين
فعدن ولما عدن كدن يمتننى ... وكدت بأسرار لهن أبين
دعوت بترداد الهدير كأنما ... شربن الحميا أو بهن جنون
فلم ترعينى مثلهن حمائمها ... ولم تدمع لهن عيون

قال ثم سكت قليلا وغنى هذه الأبيات :

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد ... فقد زادنى مسراك وجدا على وجدى
لئن هتفت ورقاء فى رونق الضحى ... على فنن من غصن بان ومن رند
بكيت كما يبكى الوليد صبابة ... وأبديت من شكواى مالم أكن أبدى
وقد زعموا أن المحب إذا دنا ... يمل وأن البعد يشفى من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع ... إذا كانت من تهواه بغير ذى ود

ثم قال : يا إبراهيم هذا الغناء الماخورى خذه وانح نحوه فى غنائك وعلمه جواريك فقلت : أعده على ، فقال : لست تحتاج إلى إعادة فقد أخذته وفرغت منه ، ثم غاب من بين يدى فارتعت منه وقمت إلى السيف وجردته ثم غدوت نحو أبواب الحريم فوجدتها مغلقة ، فقلت للجوارى : أى شيء سمعتن فقلن سمعنا غناء أطيب شيء وأحسنه فخرجت متحيرا إلى باب الدار فوجدته مغلقا فسألت البوابين عن الشيخ فقالوا: أى شيخ فو الله مادخل اليوم إليك أحد ، فرجعت أتأمل أمره ، فإذا هو قد هتف بى من جوانب البيت ، وقال : لابأس عليك ياأبا إسحاق فإنما هو أبو مرة[1] قد كنت نديمك اليوم فلا تفزع ، فركبت إلى الرشيد فأخبرته الخبر ، فقال :

---

(١) أبو مرة : كنية الشيطان .

أعد الأصوات التى قد أخذتها فأخذت العود وضربت فإذا هى راسخة فى صدرى ، فطرب الرشيد عليها وجعل يشرب ولم يكن له همة على الشراب، وقال كأن الشيخ علم أنك قد أخذت الأصوات وفرغت منها فليته متعنا بنفسه يوما واحدا ، كما متعك ثم أمر لى بصلة فأخذتها وانصرفت ، انتهى .

[٧١] و[قيل] : قال الرشيد يوما للفضل بن يحيى ، وهو بالرقة : قد قدم إسماعيل بن صالح بن على وهو صديقك ، وأريد أن أراه فقال : إن أخاه عبد الملك فى حبسك وقد نهاه أن يجيئك ، قال الرشيد : فإنى أتعلل حتى يجيئنى عائدا فتعلل ، فقال الفضل لإسماعيل : ألا تعود أمير المؤمنين قال : بلى فجاءه عائدا فأجلسه ثم دعا بالغداء فأكل إسماعيل بين يديه ، فقال له الرشيد : كأنى قد نشطت برؤيتك إلى شرب قدح فشرب وسقاه ، ثم أمر فأخرج جوارى يغنين وضربت ستارة وأمر بسقيه فلما شرب أخذ الرشيد العود من يد جارية ووضعه فى حجر إسماعيل ، وجعل فى عنقه سبحة وفيها عشر حبات من در شراؤها بثلاثين ألف دينار ، وقال : غن يا إسماعيل وكفر عن يمينك بثمن هذه السبحة فاندفع يغنى شعر الوليد بن يزيد فى غالية أخت عمر بن عبد العزيز ، وكانت تحته وهى التى ينسب إليها سوق الغالية فقال :

فأقسم ماكفاى مدت لريبة ... ولاحملتنى نحو فاحشة رجلى
ولاقادنى سمعى ولابصرى لها ... ولادلنى رأيى عليها ولاعقلى
واعلم أنى لم تصبنى مصيبة ... من الدهر إلا قد أصابت فتى مثلى

فسمع الرشيد أحسن غناء بأحسن صوت ، فقال : الرمح ياغلام فجيء بالرمح فعقد له لواء على إمارة مصر ، قال إسماعيل : فوليتها سنتين فأوسعتهم عدلا وانصرفت بخمسمائة ألف دينار وبلغ أخاه عبد الملك ولايته، فقال : غنى والله الخبيث لهم ليس هو بصالح ، انتهى .

[٧٢] ويروى : أنه لما دخل هارون الرشيد إلى مكة شرفها الله تعالى، وابتدأ بالطواف ومنع الخاص والعام من ذلك لينفرد بالطواف سبقة أعرابى فشق ذلك على الرشيد فالتفت إلى حاجبه منكرا عليه ، فقال الحاجب للأعرابى : تخل عن الطواف حتى يطوف أمير المؤمنين فقال الأعرابى : إن الله قد ساوى بين الإمام والرعية فى هذا المقام فقال عز وجل ﴿**سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم**﴾ [الحج : ٢٥] فلما سمع الرشيد من الأعرابى ذلك راعه أمره ، فأمر حاجبه بالكف عنه، ثم جاء الرشيد إلى الحجر الأسود ليستلمه فسبقه الأعرابى فاستلمه ثم أتى الرشيد إلى المقام للمصلى فسبقه الأعرابى فصلى فيه؛ فلما فرغ الرشيد من صلاته قال لحاجبه : ائتنى بهذا الأعرابى فأتاه الحاجب فقال : أجب أمير المؤمنين فقال : مالى اليه من حاجة إن كان له حاجة فهو أحق بالقيام إلى والسعى ، فقام الرشيد حتى وقف بإزاء الأعرابى وسلم عليه فرد عليه السلام فقال له الرشيد : ياأخا العرب اجلس هنا بأمرك، فقال الأعرابى : ليس البيت بيتى ولا الحرم حرمى وكلنا فيه سواء ، فإن شئت تجلس وإن شئت تنصرف ، قال الراوى : فعظم ذلك على الرشيد وسمع مالم يكن فى ذهنه وماظن أنه يواجهه أحد بمثل هذا الكلام، فجلس الرشيد وقال : ياأعرابى أريد أن أسألك عن فرضك إن أنت قمت به فأنت بغيره أقوم ، وإن أنت عجزت عنه فأنت عن غيره أعجز ، فقال الأعرابى : سؤالك هذا سؤال تعلم أم سؤال تعنت ! فتعجب الرشيد من

سرعة جوابه ، وقال : بل سؤال تعلم . فقال له الأعرابى : قم فاجلس مقام السائل من المسئول ، قال : فقام الرشيد وجثا على ركبتيه بين يدى الأعرابى ، فقال : قد جلست فاسأل عما بدالك، فقال له : أخبرنى عما افترض الله عليك ؟ فقال له : تسألنى عن أى فرض : عن فرض واحد ، أم عن خمسة ، أم عن سبعة عشر ، أم عن أربعة وثلاثين ، أم عن خمسة وثمانين ، أم عن واحدة فى طول العمر ، أم عن واحدة من أربعين ، أم عن خمسة من مائتين ، قال : فضحك الرشيد حتى استلقى على قفاه استهزاء به، ثم قال : له سألتك عن فرضك فاتيتنى بحساب الدهر ، قال : يا هارون لولا أن الدين بالحساب لما أخذ الله الخلائق بالحساب يوم القيامة، فقال﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ [الأنبياء: ٤٧] قال : فظهر الغضب فى وجه الرشيد واحمرت عيناه حين قال : ياهارون ولم يقل ياأمير المؤمنين وبلغ مبلغا شديدا ، غير أن الله تعالى عصمه منه ، وحال بينه وبينه لما علم أنه هو الذى أنطق الأعرابى بذلك، فقال له الرشيد : يا أعرابى أن فسرت ماقلت نحوت والا أمرت بضرب عنقك بين الصفا والمروة ، فقال له الحاجب : ياأمير المؤمنين أعف عنه وهبه لله تعالى ولهذا المقام الشريف ، قال : فضحك الأعرابى من قولهما حتى استلقى على قفاه ، فقال : مم تضحك ؟ قال : عجبا منكما إذ لا أدرى أيكما أجهل الذى يستوهب أجلا قد حضر أم الذى يستعجل أجلا لم يحض ، قال: فهال الرشيد ماسمعه منه وهانت نفسه عليه ، ثم قال الأعرابى : أما سؤالك عما افترض الله علىَّ ، فقد افترض على فرائض كثيرة فقولى لك عن فرض واحد : فهو دين الإسلام . وأما قولى لك عن خمسة : فهى الصلوات . وأما قولى لك عن سبعة عشر : فهى سبعة عشر ركعة . وأما

قولى لك عن أربعة وثلاثين : فهى السجدات . وأما قولى لك عن خمسة وثمانين : فهى التكبيرات . وأما قولى لك عن واحدة فى طول العمر: فهى حجة الإسلام واحدة فى طول العمر . كله وأما قولى لك عن واحدة من أربعين : فهى زكاة الشياه شاة من أربعين ؟ وأما قولى لك خمس من مائتين: فهى زكاة الورق . قال : فامتلأ الرشيد فرحا وسرورا من تفسير هذه المسائل ومن حسن كلام الأعرابى وعظم الأعرابى فى عينه وتبدل بغضه محبة، ثم قال الأعرابى : سألتنى فأجبتك وأنا أريد أن أسألك فأجبنى، قال: قل فقال الأعرابى : ماتقول فى رجل نظر إلى امراة وقت صلاة الفجر فكانت عليه محرمة، فلما كان وقت الظهر حلت له فلما كان وقت العصر حرمت عليه ، فلما كان وقت المغرب حلت له ، فلما كان وقت العشاء حرمت عليه ، فلما كان وقت الصبح حلت له ، فلما كان وقت الظهر حرمت عليه ، فلما كان وقت العصر حلت له ، فلما كان وقت المغرب حرمت عليه ، فلما كان وقت العشاء حلت له ؟ فقال : والله ياأخا العرب لقد أوقعتنى فى بحر لم يخلصنى منه غيرك ، فقال له : أنت خليفة ليس فوقك شيء ولاينبغى أن تعجز عن مسألة فكيف عجزت عن مسألتى وأنا رجل بدوى لاقدر لى فقال له الرشيد : قد عظم قدرك العلم ورفع ذكرك ، فاشتهى إكراما لى ولهذا المقام تفسير ذلك ، فقال : حبا وكرامة، ولكن على شرط أن تجبر الكسير وترحم الفقير ولاتزدرى بالحقير ، فقال: حبا وكرامة ثم قال : إن قولى لك رجل نظر إلى امرأة وقت صلاة الفجر فكانت عليه حراما ؛ فهو رجل نظر إلى أمة غيره وقت الفجر فهى حرام عليه ، فلما كان وقت الظهر اشتراها فحلت له ، فلما كان وقت العصر أعتقها فحرمت عليه ، فلما كان وقت المغرب تزوجها فحلت له ، فلما كان وقت العشاء طلقها فحرمت عليه ، فلما كان وقت الفجر راجعها

فحلت له ، فلما كان وقت الظهر ظاهر منها فحرمت عليه ، فلما كان وقت العصر أعتق عنها فحلت له ، فلما كان وقت المغرب ارتد عن الاسلام فحرمت عليه ، فلما كان وقت العشاء تاب ورجع إلى الإسلام فحلت له . قال : فأغتبط وفرح به واشتد إعجابه ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما حضرت قال لاحاجة لى بها ردها إلى أصحابها ، فقال له: أريد أن أجرى لك جراية تكفيك مدة حياتك ، قال : الذى أجرى عليك يجرى على، قال : فإن كان عليك دين قضيناه عنك ، قال : لا ولم يقبل منه شيئاً ثم أنشد يقول :

هب الدنيا تواتينا سنينا ... فتكدر ساعة وتلذ حينا
فما أبغى لشئ ليس يبقى ... وأتركه غدا للوارثينا
كأنى بالتراب على يحثى ... وبالإخوان حولى ناديينا
ويوم تزفر النيران فيه ... وتقسم جهرة للسامعينا
وعزة خالقى وجلال ربى ... لانتقمن منهم أجمعينا
وقد شاب الصغير بغير ذنب ... فكيف يكون حال المجرمينا

فلما فرغ من إنشاده ، تأوه وسأله عن أهله وبلاده فأخبره أنه موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين بن على بن أبى طالب رضي الله عنهم أجمعين[1] ، وكان يتزيا بزى أعرابى زهدا فى الدنيا ، وتباعدا عنها، فقام إليه الرشيد وقبل مابين عينيه ثم قرأ ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ [الأنعام: ١٢٤] وانصرف رحمة الله عليهم أجمعين .

---

(١) موسى الكاظم : سابع الأئمة الاثنى عشر ، عند الإمامية كان من سادات بنى هاشم ومن أعبد أهل زمانه ، وأحد كبار العلماء الأجواد ، ت[١٨٣هـ - ٧٩٩م] . انظر : وفيات الأعيان (١٣١/٢) ، فرق الشيعة ص٨١ .

[٧٣] وقال السجستاني[١] : أرق الرشيد ليلة ، فوجه إلى الأصمعي وإلى حسين الخليع[٢] فأحضرهما وقال : عللاني ، وابدأ أنت ياحسين .

فقال حسين : نعم ياأمير المؤمنين خرجت في بعض السنين منحدرا إلى البصرة ممتدحا محمد بن سليمان الزينبي[٣] بقصيدة ، فقبلها وأمرني بالمقام فخرجت ذات يوم إلى المربد وجعلت المهالبة طريقي ، فأصابني حر شديد فدنوت من باب دار كبيرة لأستسقي ، فإذا بجارية كأنها قضيب ينثني واسعة العينين ، زجاء الحاجبين[٤] مفتوحة الجبين ، عليها قميص جلناري ، ورداء عدني قد غلب شدة بياض بدنها على حمرة قميصها ،

---

(١) سهل بن محمد بن عثمان الجشمي ، السجستاني : من كبار العلماء في اللغة والشعر. من أهل البصرة ، كان المبرد يلازمه القراءة عليه . من مصنفاته "المعمرين"، "الشوق إلى الوطن" ، الفرق بين الآدميين وكل ذي روح" ، ت [٢٤٨هـ =٨٦٢م] . انظر : الفهرست لابن النديم (٥٨/١) ، بغية الوعاة ص ٢٥٦ .

(٢) الحسين بن الضحاك بن ياسر الباهلي ، أبو علي : شاعر من ندماء الخلفاء العباسيين، وكان يلقب : بالأشقر ، أصله من خرسان . ولده ونشأ في البصرة ، وشعره رقيق عذب . وأتهم أبو نواس بأخذ معانيه في الخمر . أخباره كثيرة ، ت [٢٥٠هـ=٨٦٤م] . انظر : وفيات الأعيان (١٥٤/٢) .

(٣) محمد بن سليمان بن علي العباسي ، أبو عبد الله : أمير البصرة . وليها في أيام المهدي . قال ابن الأثير : كان على البصرة وكور دجلة والبحرين وعمان وكور الأهواز وفارس .عُزل سنة [١٦٤هـ] وأعاده الرشيد وزوجه أخته العباسة بنت المهدي [١٧٢هـ] .وكان غنيا من النبلاء ، ت [١٧٣هـ=٧٨٩م] .انظر الكامل لابن الأثير (١٧/٦) ، تاريخ بغداد (٢٩١/٥) .

(٤) زَجّاء الحاجبين : حاجبان رقيقان في طولهما .

تتلألأ من تحت القميص بثديين كرمانتين ، وبطن كطى القباطى[1] ، وعكن[2] كالقراطيس ، لها جمة[3] جعدت[4] بالمسك محشوة ، وهى ياأمير المؤمنين متقلدة خرزا[5] من الذهب والجوهر يزهو بين نهديها ، وعلى صحن جبينها طرة كالسبج[6] ، وحاجبان مقرونان، وعينان نجلاوان[7] ، وخدان أسيلان[8] ، وأنف أقنى[9] تحته ثغر كاللؤلؤ ، وأسنان كالدر وقد غلب عليها الطيب ، وهى حيرانة ذاهبة فى الدهليز ورائحة تخطر على أكباد محبيها فى مشيتها وقد خالط أصوات نعلها خلاخيلها فهى كما قال الشاعر فيها:

كل جزء من محاسنها كائن من حسنها مثلا

فهبتها ياأمير المؤمنين ، ثم دنوت منها لأسلم عليها ، فإذا الدهليز والدار والشارع قد عبق بالمسك ، فسلمت عليها فردت بلسان منكسر وقلب حزين حريق مسعر ، فقلت لها : ياسيدتى إنى شيخ غريب أصابنى

---

(١) القباطى : ثياب من الكتان .

(٢) عكن : ما تثنى من لحم البطن .

(٣) جُمَّة : مجتمع شعر الرأس .

(٤) جَعُدَت : ضد استرسل .

(٥) الخَرَز : الحَبّ المثقوب من المعادن ، والزجاج ، وغيرهما ، تُنظم من قلائد .

(٦) الطرة : شعر الناصية ، لونه أسود كالسبج وهو نوع من الكساء .

(٧) عينان نجلاوان : واسعتان .

(٨) أسيل : أملس .

(٩) أنف أقنى : ارتفع وسط قصبته وضاق منخراه .

عطش أفتأمرين بشربة من ماء تؤجرين عليها ، قالت : إليك عنى ياشيخ ، فإنى مشغولة عن الماء وادخار الزاد ، قلت : لأى علة ياسيدتى : قالت : لأنى عاشقة لمن لاينصفنى وأريد من لايريدنى ، ومع ذلك فإنى ممتحنة برقباء[1] فوق رقباء ، قلت : وهل ياسيدتى على بسيطة الأرض من تريدينه ولايريدك ؟ قالت : نعم ، وذلك لفضل ماركب فيه من الجمال والكمال والدلال ، قلت : وما وقوفك فى هذا الدهليز ؟ قالت : ههنا طريقه وهذا أوان احتيازه، فقلت : ياسيدتى اجتمعتما فى وقت من الأوقات ووجب حديث فى هذا القرب فتنفست الصعداء وأرخت دموعها على خدها كطل[2] سقط على ورد ثم أنشأت تقول :

وكنا كغصنى بانة فوق روضة ... نشم جنى اللذات فى عيشة رغد

فافرد هذا الغصن من ذاك قاطع ... فيا من رأى فردا يحن إلى فرد

قلت : ياهذه فما بلغ من عشقك لهذا الفتى ، قالت : أرى الشمس على حائطهم أحسب أنها هو وربما أراه بغتة فأبهت ، ويهرب الدم والروح من جسدى وأبقى الأسبوع والأسبوعين بغير عقل ، فقلت لها : فاعذرينى فأنت على مابك من الصبا وشغل البال بالهوى وانتحال الجسم وضعف القوى أرى بك من اللون ورقة البشرة ، فكيف لو لم يمسك الهوى لكنت مفتنة فى أرض البصرة ، قالت : والله قبل محبتى هذا الغلام كنت تحفة الدلال والجمال والكمال ، ولقد فتنت جميع ملوك البصرة، حتى فتننى هذا الغلام .

---

(١) رقباء ، جمع رقيب : الحارس .

(٢) الطل : الندى

قلت : ياهذه فما الذى فرق بينكما ؟ قالت : نوائب الدهر ، ولحديثى وحديثه شأن من الشئون وذلك أنى كنت قعدت فى يوم نيروز[1] ودعوت عدة من مستظرفات البصرة من النساء الجميلات ، وكانت فيهن الحوراء جارية شيراز ، وكان شراؤها عليه من عمان بثمانية آلاف درهم ، وكانت بى ولعة[2] ، فلما دخلت رمت نفسها علىَّ تقطعنى قرصا وعضا ، ثم خلونا نتمرن القهوة[3] إلى أن يدرك طعامنا ويجتمع من دعونا ، وكانت تلاعبنى وألاعبها فتارة أنا فوقها وتارة هى فوقى ، فحملها السكر إلى أن ضربت يدها إلى تكتى[4] فحلتها من غير ريبة كانت بينا ونزلت سراويلى ملاعبة ، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا حبيبى فرأى ذلك فاشمأز لذلك وصدف[5] عنى صدوف المهرة العربية إذ سمعت صلاصل لحامها فولى خارجا، فأنا ياشيخ منذ ثلاث سنين أسأل جمعيته ، فلا ينظر إلى بطرف ولايكتب لى بحرف ، ولايكلم لى رسولا ولايسمع منى قليلا ، فقلت لها : ياهذه مِنَ العرب هو أم مِنَ العجم ؟ فقالت : ويحك هو من حملة ملوك البصرة ، فقلت لها : شيخ هو أم شاب ؛ فنظرت إلى شزراً[6] . وقالت :

---

(١) نيروز : يوم الفرح .

(٢) وَلِعة : متعلقة به من شدة الحب .

(٣) نتمرن القهوة : نتناول شرب الخمر ، قيل : سميت بذلك لأن شاربها يُقْهى عن الطعام ، أى تقل شهوته .

(٤) التِكَّة : رباط السراويل ، جمعها تِكَك .

(٥) صَدَفَ : أعرض وانصرف .

(٦) شَزَرَ : نظرت إليه بجانب عينها مع إعراض .

إنك أحمق هو مثل القمر ليلة البدر أجرد[1] أمرد[2] له طرة كحلك الغراب[3]، لايعيبه شيء غير انحرافه عني ، قلت لها : ماسمه قالت : ماذا تصنع به ؟ قلت : أجتهد في لقائه فأتعرف الفصل بينكما ، قالت: على شرط أن تحمل إليه رقعة ، قلت : لاأكره ذلك .

فقالت : اسمه ضمرة بن المغيرة ويكنى بأبي السخاء ، وقصره بالمربد ، ثم صاحت في الدار ياجواري الدواة والقرطاس ، وشمرت عن ساعدين كأنهما طوقان من ففته وكتبت بعد البسملة سيدي ترك الدعاء في صدر رقعتي ينبئ عن تقصيري ودعائي أن دعوته هجنة[2] ورعونة[4] ولولا أن بلوغ المجهود يخرج عن حد التقصير ، لكان لما تكلفته خادمتك من كتابة هذه الرقعة معنى مع يأسها منك لعلمها تركك الجواب ، سيدي جد بنظرة وقت احتيازك في الشارع إلى الدهليز[5] تحيي بها نفسا ميتة ، واخطط بخط يدك بسطها الله بكل فضيلة رقعة ، واجعلها عوضا عن تلك الخاوات التي كانت بيننا في الليالي الخاليات التي أنت ذاكر لها ، سيدي ألست لك محبة مدنفة ، فإن رجعت إلى -الآيسة- كنت لك شاكرة ، وبعد خادمة والسلام .

---

(١) أجرد : الخالي من الشعر ، جمعها جرد .

(٢) أمْرَد : الشاب طَرَّ شاربه ولم تنبت لحيته ، وجمعها مرد .

(٣) حلك : شديدة السواد .

(٢) الهُجْنَة من الكلام : العيب والقبح .

(٤) الرُعُونَة : الحمق .

(٥) الدِهْلِيز : ما بين الباب والدار : المسلك الطويل الضيق ، وجمعها دهاليز .

فتناولت الكتاب وخرجت فأصبحت غدوة إلى باب محمد بن سليمان ، فوجدت مجلسا محتفلا بالملوك ورأيت غلاما زان المجلس وفاق على من فيه جمالا وبهجة قد رفعه الأمير فوقه، فسألت عنه فإذا هو ضمرة بن المغيرة ، فقلت فى نفسى: بالحقيقة حل بالمسكينة ماحل بها ، ثم قمت وقصدت المربد ووقفت على باب داره فإذا هو قد ورد فى موكب ، فوثبت إليه وبالغت فى الدعاء له وناولته الرقعة ؛ فلما قرأها وفهم معناها ، قال : ياشيخ قد استبدلنا بها فهل لك أن تنظر إلى البديل ، قلت: نعم فصاح فى الدار اخرجوا إلى المربد ، فإذا أنا بجارية : خابوطية الكمين، ناهدة الثديين تمشى مشية مستوحل من غير وحل[1] ، فناولها الرقعة وقال : أجيبى عنها، فلما قرأتها اصفرت وعرقت وقالت : ياشيخ استغفرالله مما جئت به .

فخرجت ياأمير المؤمنين وأنا أحر رجلى ، حتى أتيتها واستأذنت عليها ، فقالت : ما وراءك ؟ فقلت : البؤس واليأس ، فقالت : ماعليك منه فأين الله والقدر ، ثم أمرت لى بخمسمائة دينار، ثم جزت بعد أيام ببابها فوجدت غلمانا وفرسانا ، فدخلت فإذا أصحاب ضمرة يسألونها الرجوع إليه ، فقالت : لا والله لانظرت له وجها ، فسجدت لله ياأمير المؤمنين شماتة بضمرة ونفرته من الجارية فاوردت علىَّ منه رقعة فإذا فيها بعد التسمية : سيدتى لولا إبقائى عليك أدام الله حياتك لوصف شطرا من غدرك ، وبسطت شطر غبنى[2] عليك ، وسلكت ظلامتى فيك ، إذ كنت الجانية على نفسك ونفسى ، والمظهرة لسوء العهد ، وقلة الوفاء والمؤثرة

---

(١) الوَحَل : الطين الرقيق ، ومشية مستوحل أى : مشية بحذر وتردد .

(٢) الغبن : الخديعة .

علينا غيرنا ، فخالفت هواى ، والله المستعان على ماكان من سوء اختيارك والسلام .

وأوقفتنى على ماحمله إليها من الهدايا والتحف العظيمة ، فإذا هو بمقدار ثلاثين ألف دينار ، ثم رأيتها بعد ذلك وقد تزوج بها ضمرة. فقال الرشيد : لولا أن ضمرة سبقنى إليها لكان لها معى شأن من الشئون ، انتهى.

[٧٤] **وحكى مسرور الخادم قال** : أرق الرشيد أرقا شديدا ليلة من الليالى ، فقال : يامسرور من على الباب من الشعراء ، فخرجت إلى الدهليز فوجدت : حميل بن معمر العذرى ، فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فقال : سمعا وطاعة ، فدخلت ودخل معى إلى أن صار بين يدى هارون الرشيد فسلم بسلام الخلافة ، فرد عليه وأمره بالجلوس ، فقال له الرشيد : ياحميل أعندك شيء من الأحاديث العجيبة ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين أيما أحب إليك ماعاينته ورأيته ، أو ماسمعته ووعيته ؟ فقال : بل حدثنى عما عاينته ورأيته .

فقال : نعم ياأمير المؤمنين أقبل على بكلك واصغ إلى بأذنك ، قال : فقصد الرشيد إلى مخدة من الديباج الأحمر المزركش بالذهب محشوة بريش النعام ، فجعلها تحت فخذه ، ثم مكن منها مرفقيه، وقال : هلم بحديثك .

فقال : اعلم ياأمير المؤمنين أنى كنت مفتونا بفتاة محبا لها ، وكنت آلفها إذ هى سؤلى وبغيتى من الدنيا ، وأن أهلها رحلوا بها لقلة المرعى ، فأقمت مدة لم أرها ، ثم إن الشوق أقلقنى وحذبنى إليها ، فراودتنى نفسى

بالمسير إليها ؛ فلما كانت ذات ليلة من الليالى هزنى الوجد إليها فقمت وشددت رحلىّ على ناقتى ، واعتممت بعمتى ، ولبست أطمارى[1] ، وتقلدت بسيفى ، وتنكبت حجفتى[2] ، وركبت ناقتى ، وخرجت طالبا لها، وكنت أجد فى السير ؛ فسرت وكانت ليلة مظلمة مدلهمة[3] ، وأنا مع ذلك أكابد هبوط الأودية ، وصعود الجبال ، وأسمع زئير الآساد وعواء الذئاب ، وأصوات الوحوش من كل جانب ؛ وقد ذهل عقلى وطاش لبى ، ولسانى لايفتر عن ذكر الله تعالى .

فبينما أنا أسير كذلك ، إذ غلبنى النوم فأخذت بى الناقة على غير الطريق التى كنت فيها وزاد على النوم وإذ أنا بشىء لطمنى على رأسى ، فانتبهت فزعا مرعوبا ، وإذا بأشجار وأنهار وماء وأطيار على تلك الأغصان تترنم[4] بلغاتها وألحانها وأشجار تلك المروج[5] مشتبكة بعضها ببعض ، فنزلت عن ناقتى ، وأخذت زمامها بيدى ولم أزل أتلطف بها إلى أن خرجت بها من تلك الأشجار إلى أرض فلاة[6] ، وفأصلحت كورها[7] ، واستويت راكبا على ظهرها ، ولا أدرى إلى أين

---

(١) الأطمار : الثياب .

(٢) تنكبت حجفتى ، أى لبسها على منكبه ، والحجفة : الترس من الجلد بلا خشب .

(٣) مدلهمة : شديدة السواد .

(٤) تترنم : تطرب .

(٥) المُرُوج : الأرض الواسعة فيها نبت كثير .

(٦) الفلاة : الصحراء الواسعة .

(٧) الكور: رَحْل البعير .

أذهب ولا إلى ماتسوقنى الأقدار ، فمددت نظرى فى تلك البرية فلاحت لى نار فى صدرها ، فوكزت ناقتى وسرت طالبا إلى أن وصلت إلى تلك النار فقربت منها وتأملت وإذا بخباء مضروب ، ورمح مركوز ، وراية قائمة ، وخيل واقفة ، وإبل سائمة ، فقلت فى نفسى : يوشك أن يكون لهذا الخباء شان عظيم ؛ فإنى لاأرى فى هذه البرية سواه .

ثم تقدمت خلف الخباء وقلت : السلام عليكم ياأهل الخباء ورحمة الله وبركاته ، فخرج إلىَّ من الخباء غلام من أبناء تسعة عشر كأنه البدر إذا أشرق والشجاعة لائحة بين عينيه فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ياأخا العرب إنى أظنك ضالا عن الطريق . فقلت : الأمر كذلك ، أرشدنى يرحمك الله تعالى ، فقال : ياأخا العرب إن أرضنا هذه مسبعة ، وهذه الليلة مظلمة موحشة شديدة الظلمة والبرد ولا آمن عليك من الوحش أن يفترسك، فانزل عندى على الرحب والسعة ، فإذا كان الغد ارشدتك إلى الطريق ، قال : فنزلت عن ناقتى وعقلتها بفاضل زمامها ، ونزعت ماكان على من أطمار ، وجلست ساعة ، وإذا بالشاب قد عمد إلى شاه فذبحها وإلى نار فأضرمها وأججها ، ثم دخل الخباء وأخرج أبزاراً[1] ناعمة ، ولحما مطيبا ، وأقبل يقطع من اللحم ويشوى على النار ويطعمنى ويتنهد تارة ويبكى تارة أخرى ، ثم شهق شهقة عظيمة وبكى بكاء شديدا وأنشد يقول:

ولم يبق إلا نفس خافت ... ومقلة إنسانها باهت

لم يبق فى أعضائه مفصل ... إلا وفيه سقم ثابت

---

(١) أبزار : الثياب .

فدمعه جار وأحشاؤه توقد إلا أنه ساكت
تبكي له أعداؤه رحمة ياويح من يرثي له الشامت

قال جميل : فعند ذلك يا أمير المؤمنين علمت أن الغلام عاشق ولهان، ولا يعرف الهوى إلامن ذاق طعم الهوى ، فقلت فى نفسى : أنا فى منزل الرجل وأتهجم عليه فى السؤال فردعت نفسى : وأكلت من ذلك اللحم بحسب الكفاية ؛ فلما فرغت من الأكل قام الشاب ودخل الخباء ، وأخرج طستا نظيفا وإبريقا حسنا ومنديلا من الحرير أطرافه مزركشه بالذهب الأحمر وقمقما مملوء من الماورد الممسك ، قال: فتعجبت من ظرفه ورقه حاشيته ، وقلت فى نفسى : ماأغرب الظرف فى البادية ، ثم غسلنا أيدينا وتحدثنا ساعة، ثم إنه قام ودخل الخباء وقطع بينى وبينه بمقطع من الديباج الأحمر ، ثم خرج وقال : ادخل ياوجه العرب وخذ مضجعك ، فقد لحقك فى هذه الليلة تعب وفى سفرك هذا نصب مفرط .

قال جميل : فدخلت فإذا أنا بفراش من الديباج الأخضر ، فعند ذلك نزعت ما كان على من الثياب ونمت بليلة لم أنم عمرى مثلها ، فلم أزل كذلك وأنا متفكر فى أمر هذا الشاب إلى أن جن الليل ونامت العيون ، فلم أشعر إلا بحس خفى لم أسمع ألطف منه ولا أرق حاشية فرفعت سجاف المضرب ونظرت ، فإذا أنا بصبيه لم أر أحسن منها وجها وهى إلى جانبه وهما يبكيان ويتشاكيان ألم الهوى والصبابة والحوى وشدة اشتياقهما إلى التلاقى. فقلت : يالله العجب من هذا الشخص الثانى، وهذا بيت فرد فإنى لم أر فيه غير هذا الفتى وليس حوله أحد ، ثم قلت فى نفسى : لاشك أن هذه الجارية من بنات الجن تهوى هذا الغلام وقد تفرد بها فى هذا المكان

وتفردت به فحققتها ، فإذا هى إنسية عربية إذا رمقت[1] تخجل الشمس المضيئة ، وقد أضاء الخباء من نور وجهها ، فلما تحققت أنها محبوبته غلبتنى الغيرة على الحب ، فأرخيت الستر وغطيت وجهى ونمت. فلما أصبحت ، لبست ثيابى وتوضأت لصلاتى وصليت ماكان على من الفرض، ثم قلت له: ياأخا العرب هل لك أن ترشدنى إلى الطريق فقد تفضلت علىَّ فنظر إلىَّ وقال : على رسلك ياوحْدَ العرب ، الضيافة ثلاثة ، وما كنتُ بالذى يدْعك إلا لثلاثة أيام ، قال جميل : فأقمت عنده ثلاثة أيام.

فلما كان اليوم الرابع جلسنا للحديث فحادثته وسألته عن اسمه ونسبه، فقال: أما نسبى فأنا من بنى عذرة[2] ، وأنا فلان بن فلان ، وعمى فلان ، فإذا هو ابن عمى يا أمير المؤمنين ، وهو من أشرف بيت فى بنى عذرة ، قال: فقلت ياابن العم : ماحملك على ما أراه منك من الانفراد فى هذه البرية، وكيف تركت عبيدك وإماءك وانفردت بنفسك فى هذا المكان، فلما سمع يا أمير المؤمنين كلامى ، تغرغرت عيناه بالبكاء ، ثم قال : يا ابن العم إننى كنت محبا لابنة عمى مفتونا بها ، هائما بحبها ، محنونا عليها، لاأطيق الفراق عنها ، فزاد عشقى لها فخطبتها من عمى فأبى أن يزوجنيها، وزوجها من رجل من بنى عذرة ، ودخل بها وأخذها إلى المحلة التى هو فيها من العام الأول ، فلما بعدت عنى ، وحجبت عن النظر إليها حملتنى لوعات الهوى ، وشدة الشوق والجوى على تركى أهلى

---

(١) رمقت : أدام النظر .

(٢) عُذْرة : قبيلة عربية من قضاعة إليها يُنسب الحب العذرى المشهور بشدة العشق والعفة.

ومفارقتى عشيرتى وخلانى ، وجميع أمتعتى وانفردت بهذا البيت فى هذه البرية ، وألفت وحدتى . فقلت : وأين أبياتهم ؟ قال: هم قريب فى ذروة هذا الجبل ، وفى كل ليلة ، عند نوم العيون وهدوٍ من الليل ، تنسل من الحى سراً ، بحيث لا يشعر بها أحد ، فأقضى منها بالحديث وطراً وتقضى هى كذلك ، وها أنا مقيم كذلك على هذا الحال أتسلى بها ساعة من الليل ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، أو يأتينى الأمر على رغم الحاسدين أو يحكم الله لى ، وهو خير الحاكمين .

قال جميل: فلما حدثنى الغلام ياأمير المؤمنين ، غمنى أمره ، وصرت من ذلك فى حيرة لما أصابنى عليه من الغيرة . فقلت له : يا ابن العم هل لك أن أدلك على حيلة أشير بها عليك ، وفيها إن شاء الله عين الصلاح وسبيل الرشد والنجاح، وبها يفرج الله عنك الذى تخشاه ، فقال لى : قل يا ابن العم ، فقلت له : إذا كان الليل وجاءت الجارية فاطرحها على ناقتى فإنها سريعه الرواح واركب أنت جوادك، وأنا أركب بعض هذه النوق وأسير بكم الليلة جميعها فما يصبح الصباح إلا وقد قطعت بكم برارى وقفارا ، وتكون قد بلغت مرادك وظفرت بمحبوبة قلبك وأرض الله واسعة فضاها، وأنا والله مساعدك ماحييت بروحى ومالى وسيفى . فلما سمع ذلك، قال : يا ابن العم حتى أشاورها فى ذلك فإنها عاقلة لبيبة بصيرة بالأمور .

قال جميل : فلما جن الليل وحان وقت مجيئها ، وهو منتظر الوقت المعلوم أبطأت عن عادتها ، فرأيت الفتى وقد خرج من باب الخباء وفتح فاه وجعل يتنسم هبوب الريح التى تهب من نحوها وأنشد يقول :

ريح الصبا تهدى إلى نسيم ... من بلدة فيها الحبيب مقيم
ياريح فيك من الحبيب علاقة ... أفتعلمين متى يكون قدوم

ثم دخل الخباء وقعد ساعة زمانية وهو يبكى ، ثم قال لى : يا ابن العم إن لبنت عمى فى هذه الليلة نبأ وقد حدث لها حادث وعاقها عنى عائق، ثم قال لى : كن مكانك حتى آتيك بالخبر ، ثم أخذ سيفه وحجفته[1] ، ثم غاب عنى ساعة من الليل ثم أقبل وعلى يديه شىء يحمله، ثم صاح إلىّ فأسرعت إليه ، فقال : أتدرى يا ابن العم ما الخبر ؟ فقلت : لا والله ، فقال: فُجِعت فى ابنة عمى فى هذه الليلة ، لأنها كانت توجهت إلينا كعادتها ، إذ عرض لها فى طريقها أسد فافترسها ، ولم يبق منها إلا ماترى ، ثم إنه طرح ماكان على يده فإذا هو : مشاش[2] الجارية وما فضل من عظامها، ثم بكى بكاء شديدا ورمى الترس من يده وأخذ كساء على يده، ثم قال لى: لاتبرح إلى أن آتيك إن شاء الله تعالى ، ثم سار فغاب عنى ساعة، ثم عاد وبيده رأس الأسد فطرحه عن يده، ثم طلب ماء فآتيته به،فغسل فم الأسد،وجعل يقبله ويبكى ويئن وزاد حزنه عليها،وأنشد يقول:

ألا أيها الليث المغر بنفسه ... هلكت لقد هيجت لى بعدها شجنا
وصيرتنى فردا وقد كنت ألفها ... وصيرت بطن الأرض لى ولها وطنا
أقول لدهرٍ خاننى بفراقها ... وغار عليها أن أكون لها حزنا

ثم قال : يا ابن العم سألتك بالله ، وبحق القرابة ، والرحم التى بينى وبينك ألا حفظت وصيتى : إنك سترانى الساعة ميتا بين يديك ، فإذا كان

---

(١) الحجفة : الترس من الجلد بلا خشب ، وجمعها حجف .

(٢) المُشَاش : رؤوس العظام .

كذلك فغسلني وكفني أنا وهذا الفاضل من مشاش الحارية في هـذا الثوب وادفنا في قبر واحد واكتب على قبرنا هذه الأبيات ، وأنشد يقول :

كنا على ظهرها والعيش في رغـد ... والشـمل مجتمـع والـدار والوطـن
ففـرق الدهـر والتصريـف ألفتنـا ... وصـار يجمعنـا في بطنهـا الكفـن

قال : ثم بكى بكاء شديدا ، ثم دخل المضرب وغـاب عنـي سـاعة ، وخرج وجعل يتنهد ويصيح ثم شهق شهقة فارق الدنيا ، فلمـا رأيـت ذلـك منه عظم علي وكبر عندي حتى كدت ألحق به من شدة حزنـي عليـه ، ثـم تقدمت إليه وفعلت به ما أمرني : من الغسل وكفنتهمـا جميعـا ، ودفنتهمـا في قبر واحد ، وأقمت على قبرهما ثلاثة أيام ، ثم ارتحلت ، وأقمت سـنين أتردد إلى زيارتهما ، وهذا ما كان من حديثهما يـا أمير المؤمنيـن . قـال : فلما سمع الرشيد كلامه: استحسنه وخلع عليه وأجازه جائزة حسنة ، والله أعلم.

حكاية أجنبية

[٧٥] **قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي**[١]: بينما أنـا ذات يـوم فـي منزلي ، وكان زمن الشتاء وقد انتشرت السحب وتراكمـت الأمطـار بقطـر

---

(١) إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي ، أبو محمد النديم : من أشهر ندماء الخلفـاء، تفرد بصناعة الغناء ، فكان عالماً باللغة ، والموسيقى ، والتاريخ ، راويا للشـعر حافظـا للأخبار ، نادم الرشيد والمأمون ، والواثق . ولما مات نُعي إلـى المتوكـل ، فقـال : ذهب صدر عظيم من جمـال الملـك وبهائه وزينتـه ، ت[٢٣٥هـ- ٨٥٠م] .انظر : وفيات الأعيان (٦٥/١) الفهرست (١٤٠/١) .

كأفواه القرب وامتنع الغادى والمقبل من المسير فى الطرقات لما فيها من الأمطار والوحل ، وأنا ضيق الصدر ، إذلم يأتنى أحد من إخوانى ولم أقدر على المسير إليهم من شدة الوحل والطين ، فقلت لغلامى : أحضرلى ما أتشاغل به فأحضر لى طعاما وشرابا ، فتنغصت إذلم يكن معى من يؤانسنى ولم أزل أتطلع من الطاقات وأراقب الطرقات ، وأقبل الليل فتذكرت جارية لبعض أولاد المهدى كنت أهواها ، وكانت عارفة بالغناء وتحريك الملاهى، فقلت فى نفسى : لو كانت الليلة عندنا ، لتم سرورى وطالت ليلتى مما أنا فيه من الفكر والقلق، وإذا بداق يدق الباب وهر يقول : أيدخل محبوب على الباب واقف ؟

فقلت فى نفسى : لعل غرس التمنى أثمر ، فقمت إلى الباب ، فإذا بصاحبتى وعليها مرط[1] أخضر ، قد اتشحت به ، وعلى رأسها وقاية من الديباج تقيها من المطر، وقد غرقت فى الطين إلى ركبتها ، وابتل ما عليها من المزاريب وهى فى حال عجيب. فقلت لها : ياسيدتى ما الذى أتى بك فى مثل هذه الأوحال ؟ فقالت: قاصدك جاءنى ووصف كما عندك من الصبابة والشوق ، فلم يسعنى إلا الإجابة والإسراع نحوك . فعجبت من ذلك ، وكرهت أن أقول لها إنى لم أرسل إليك أحدا، فقلت : الحمدلله على جمع الشمل بعدما قاسيت من ألم الصبر ، ولو كنت أبطأت علىَّ ساعة: كنت أحق بالسعى إليك ، فإنى كثير الصبابة نحوك. ثم قلت لغلامى: هات الماء ، فأقبل بسخانة فيها ماء حار حتى أصلح لها حالها ، ثم أمرته أن يصب الماء على رجليها ، وتوليت غسلهما ثم دعوت ببدلة من

---

(١) مِرْط : كساء من صوف يؤتزر به .

أفخر الملبوس فألبستها إياها بعد أن نزعت ماكان عليها وجلسنا ، ثم استدعيت بالطعام فأبت ، فقلت : هل لك فى الشراب ؟ فقالت : نعم فتناولت أقداحا، ثم قالت : من يغنى لى ؟ فقلت لها : أنا ياسيدتى ، فقالت: لا أحب ، فقلت : بعض جوارى ، قالت : لا أريد ، فقلت : غنى لنفسك ، قالت : ولا أنا ، قلت : فمن يغنيك ؟ قالت : التمس من يغنى لى، فخرجت طاعة لها ، إلا أنى آيس من أن أجد أحدا فى مثل هذا الوقت، فلم أزل حتى بلغت الشارع ، فإذا أنا بأعمى يخبط بعصا ، وهو يقول : لاحزى الله من كنت عندهم خيرا ، إن غنيت لم يسمعوا وإن سكت استخفوا بى. فقلت : أمغن أنت ؟ قال : نعم ، قلت : فهل لك أن تتم ليلتك عندنا ، وتؤانسنا ؟ قال : إن شئت خذ بيدى ، فأخذت بيده وسرت إلى الدار ، وقلت لها : يا سيدتى أتيت بمغن أعمى نلتذ به ولايرانا، فقالت: علىّ به فأدخلته وعزمت عليه فى الطعام ، فأكل أكلا لطيفا، وغسل يده وقدمت إليه الشراب فشرب ثلاثة أقداح ثم قال لى : من تكون ؟ قلت: إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، قال : لقد كنت أسمع بك والآن فرحت بمنادمتك ، فقلت : ياسيدى فرحت بمن يسرك ، فقال : غن ياإسحاق فأخذت العود على سبيل المجون ، وقلت : السمع والطاعة ؛ فلما غنيت وانقضى الصوت ، قال : يا إسحاق قاربت أن تكون مغنيا ، فصغرت علىّ نفسى وألقيت العود من يدى ، فقال : ما عندك من يحسن الغناء ؟ قلت : عندى جارية قال : مرها فلتغن قلت : تغنى وأنت واثق بغنائها ، قال : نعم، فغنت ، قال : ما صنعت شيئاً فرمت العود من يدها مغضبة، وقالت : الذى عندنا جدنا به ، فإن كان عندك شيء فتصدق به ، فقال : علىّ بعود لم تمسه يد ، فأمرت الخادم فجاء بعود جديد فضرب فى طريقة لا أعرفها واندفع يغنى هذه الأبيات :

سرى يقطع الظلماء والليل عاكف ... حبيب بأوقات الزيارة عارف
وما راعنا إلا السلام وقولها ... أيدخل محبوب على الباب واقف

قال : فنظرت إليَّ الجارية شزرا ، وقالت : سِرٌّ بيني وبينك ماوسعه صدرك ساعة وأودعته لهذا الرجل ، فحلفت لها ثم اعتذرت إليها وأخذت أقبل يديها، وأدغدغ ثدييها ، وأعض خديها ، حتى ضحكت ثم التفت إلى الأعمى وقلت : غن ياسيدى فأخذ العود وغنى هذه الأبيات :

ألا ربما زرت الملاح وربما ... لمست بكفى البنان المخضبا
ودغدغت رمان الصدور ولم أزل ... أعضعض تفاح الخدود المكتبا

فقلت لها : ياسيدتى فمن أعلمه بما نحن فيه ؟ قالت : صدقت ثم تحنبناه، فقال: إنى لحاقن[1]. فقلت : يا غلام خذ الشمعة وامض بين يديه، فخرج وأبطأ فخرجنا فى طلبه ، فلم نجده ، وإذا الأبواب مغلقة والمفاتيح فى الخزانة ، فلا ندرى أفى السماء صعد أم فى الأرض هبط ، ثم علمت أنه إبليس وأنه قاد لى ثم انصرف، فتذكرت قول أبى نواس حيث قال :

عجبت من إبليس فى كبره ... وخبث ما أضمر فى نيته
تاه على آدم فى سجدة ... وصار قوادا لذريته

[٧٦] ونظير ذلك مما يستظرف لأبى نواس، ماحكى عنه أنه قال : ضجرت من ملازمة أمير المؤمنين هارون الرشيد ، حتى أنى لم أجد فراغا إلى نفسى ، فتوجه أمير المؤمنين إلى الصرح ليبيت فيه ثم يعود ، فوجدت لروحى فرصة ، فدخلت دارى وأغلقت بابى وأحضرت شرابا وطلبت

---

(١) حَاقِن : من حقن بوله واشتد عليه .

نفسى الخلوة ، فعند المساء وإذا بالباب يطرق، فخرجت وإذا أنا بظبى من أولاد الأتراك[1] ، ما رأت عينى أحسن منه منظرا فسلم علىّ، وقال لىّ : أتقبل ضيفا ؟ قلت : ياسيدى ومن لى بذلك ، فدخل بيتى فحار عقلى عند دخوله ، ثم أخرج من تحت ثيابه سلاحية شراب ونقلا[2] وشيئاً من الدجاج، ثم شرب وغنى شيئاً لم أسمعه من غيره ، وقضيت مرادى منه مرارا، إلى أن مضى وقت من الليل ، وقد هام عقلى من الشراب ومن حسنه ومن تسليم نفسه إلىّ بغير تقديم عوض .

ثم قال : ياسيدى أريد الانصراف ، فقلت له : ياسيدى متى خرجت أنت ، خرجت روحى من جسدى ، وكل شىء أملكه بين يديك ، وأنا أصير عبدك بعد هذا اليوم ، ولا أفارقك ، قال : أصحيح ماتقول ؟ قلت : نعم ، قال : أنا محتاج إلى مالك ، وإن كنت صادقا فيما ادعيت من محبتك لى ، قم واحلق لحيتك وشاربك واقعد مثلى أمرد ، قال فحكم علىّ السكر والعشق ، فما قدرت أن أخالفه فأجبته إلى ذلك على أنه يبيت عندى ، فعمد إلى موسى وبل لحيتى وفى الحال أنزلها وبقيت مثله أمرد ؛ ثم صار يضحك علىّ ، وقال : يا أبا نواس كيف الشعر الذى ذكرت فيه آدم وإبليس فأنشدته قائلا :

عجبت من إبليس فى كبره ... وخبث ما أضمر فى نيته
تاه على آدم فى سجدة ... وصار قوادا لذريته

---

(١) ظبى من أولاد الأتراك : يقصد به غلام جميل الصورة .

(٢) النقل : هو ما يؤكل على الشراب كالفستق والتفاح .

ثم ضحك ضحكا عاليا وصك على ساحل قفاى صكا مزعجا فاغتظت منه ؛ ثم قلت له : ويلك أتفعل بى هكذا ، ثم أردت التطلع إليه فما وجدت أحدا يجيبنى، فقلت : إنه الملعون إبليس ، انتهى.

[٧٧] وقال بعضهم :

قد جاءنى ليلا أبو مرة ... إبليس يدعونى بلا ترحمان
وقال لى هل لك فى أمرد ... يهز من أعطافه غصن بان
قلت نعم قال وفى خمرة ... حبابها يحكى عقود الجمان
قلت نعم قال فنم آمنا ... أنت رئيس الفسق هذا الزمان

[٧٨] وقال أبو نواس :

وليلة طال سهادى بها ... فزارنى إبليس عند الرقاد
وقال لى هل لك فى قحبة ... لبيبة تطرد عنك الرقاد[1]
قلت نعم قال وفى قهوة ... عتقها العاصر من عهد عاد
قلت نعم قال وفى مطرب ... إذا شدا يطرب منه الجماد
قلت نعم قال وفى شادن ... قد كحلت أجفانه بالسواد
قلت نعم قال وفى طفلة ... فى وجنتيها للمحب انقياد
قلت نعم قال فنم آمنا ... ياكعبة الفسق وركن الفساد

[٧٩] وقال زين الدين عمر بن الوردى[2] معارضا لذلك :

---

(١) قَحْبة : المرأة البغى .

(٢) زين الدين عمر بن الوردى : مؤرخ ، وشاعر .ولى قضاء منبج بالشام .له "نصيحة الإخوان "المعروفة بـ "لامية ابن الوردى" .ت[٧٤٨هـ-١٣٤٨م] .

نمـــت وإبليـــس أتـــى بحيلـــه منتدبـــه
فقـــال مـــا قولـــك فـــى حشيشـــة منتخبـــه
فقلـــت لا قـــال ولا خمـــرة كـــرم مذهبـــه
فقلـــت لا قـــال ولا مليحـــة مطيبـــه
فقلـــت لا قـــال ولا أغيـــد بـــالبدر اشـــتبه[1]
فقلـــت لا قـــال ولا آلـــة لهـــو مطربـــه
فقلـــت لا قـــال فنم مـــا أنـــت إلا حطبـــه

[٨٠] و[قيل] : حضر أبو نواس عند الرشيد ليلة أنس ، وكان أبو طوق حاضرا ، وكان أبو نواس مشغوفا بحسنه وجماله ، فلما انقضى المجلس : أخذ كل واحد مضجعا للنوم ، فخاف الخليفة من أبى نواس على أبى طوق، فقال الخليفة لأبى طوق : نم أنت على السرير ، وقال لأبى نواس : أنام أنا وأنت أسفل السرير ، فقال : سمعاً وطاعة وهو بذلك غير راض فى نفسه ؛ وتغافل الخليفة عن أبى نواس ، وأظهر النوم، ثم انتبه فوجد أبا نواس فوق السرير بجنب أبى طوق يضمه ويعانقه ، فقال : ما هذا يا أبا نواس ؟ فقال :

هزنى الشوق من أجل أبى طوق فتدحرجت من أسفل إلى فوق

فقال له : قاتلك الله ، انتهى من حلبة الكميت .

---

(١) أغيد : الغلام يتمايل فى مشيته .

[٨١] ومن غريب ما يحكى ماحكاه القاضى أبو الحسن التنوخى[1] فى كتاب الفرج بعد الشدة : أن منارة وكان صاحب شرطة الرشيد ، قال: رفع إلى هارون الرشيد أن رجلا بدمشق من بقايا بنى أمية ، عظيم المال ، كثير الجاه ، مطاع فى البلد له ، جماعة وأولاد ومماليك يركبون الخيل ويحملون السلاح ، ويغزون الروم ، وأنه سمح جواد ، كثير البذل والضيافة ، وأنه لا يؤمن منه . فعظم ذلك على الرشيد . قال منارة: وكان وقوف الرشيد على هذا وهو بالكوفة فى بعض حجه فى سنة ست وثمانين ومائة ، وقد عاد من الموسم وقد بايع للأمين والمأمون والمعتصم ، أولاده؛ فدعانى وهو خال وقال : إنى دعوتك لأمر يهمنى وقد منعنى النوم فانظر كيف يكون : ثم قص علىَّ خبر الأموى وقال اخرج الساعة فقد أعددت لك الخيول، وأزحت علتك فى الزاد والنفقة والآله ، ونضم إليك مائة ، واسلك البرية ، وهذا كتابى إلى نائب دمشق ، وهذه قيود فابدأ بالرحل فإن سمع وأطاع فقيده وجئنى به، وإن عصى فتوكل عليه أنت ومن معك لئلا يهرب، وأنفذ الكتاب إلى أمير دمشق ليكون مساعدا لك ، واقبضا عليه وجئنى به ، وأجلت لذهابك ستا ولإيابك ستا، ويوما لمقامك ، وهذا محمل تجعله فى شقة منه إذا قيدته ، وتقعد أنت فى الشقة الأخرى ، ولاتكل حفظه إلى غيرك حتى تأتينى به فى الثالث عشر يوما من خروجك؛ فإذا دخلت داره ، فتفقدها وجميع مافيها من أهله وولده وحاشيته وغلمانه، وقدر نعمته ، والحال والمحل ، واحفظ مايقوله الرجل حرفا بحرف من

---

(١) أبو الحسن التنوخى : القاضى ، الأديب ، الشاعر .تعلم على الصولى ، وأبى الفرج الأصبهانى .تولى القضاء فى بغداد وتوفى بها ت[٣٨٤هـ-٩٩٤] .

ألفاظه منذ يقع طرفك عليه حتى تأتينى به ، وإياك أن يشكل عليك شىء من أمره ، انطلقْ .

قال منارة : فودعته وانطلقت وخرجت فركبت الإبل وسرت أطوى المنازل، أسير الليل والنهار ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين ، والبول وتنفيس الناس قليلا إلى أن وصلت إلى دمشق فى أول الليلة السابعة وأبواب البلد مغلقة ، فكرهت طروقها ليلا ، فبت بظاهر البلد إلى أن فتح بابها من غد . فدخلت حتى أتيت باب الرحل وعليه صف عظيم وحاشية كثيرة فلم أستاذن ودخلت بغير إذن ؛ فلما رأى القوم ذلك سألوا بعض من معى عنى، فقال : هذا منارة رسول أمير المؤمنين إلى صاحبكم قال فلما صرت فى صحن الدار نزلت ودخلت مجلسا رأيت فيه قوما جلوسا ، فظننت أن الرجل فيهم فقاموا ورحبوا بى فقلت : أفيكم فلان ؟ قالوا : نحن أولاده ، وهو فى الحمام ، فقلت : استعجلوه فمضى بعضهم يستعجله ، وأنا أتفقد الدار والأحوال والحاشية فوجدتها ماجت بأهلها موجا كبيرا ، فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن طال مكثه واستربت منه ، واشتد قلقى وخوفى من أن يتوارى إلى أن رأيت شخصا بزى الحمام يمشى فى صحن الدار ، وحواليه جماعة كهول وأحداث وصبيان، وهم أولاده وغلمانه ، فقلت : إنه الرجل فجاء وجلس وسلم على سلاما خفيفا وسألنى عن أمير المؤمنين واستقامة حضرته ، فأخبرته بما وجب وماقضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة ، فقال : تقدم يامنارة وكل معنا فقلت مالى إلى ذلك من سبيل، فلم يعاودنى فأكل هو ومن معه ثم غسل يديه ودعا بالطعام ، فجاءوا إليه بمائدة حسنة لم أر مثلها إلا للخليفة ، فقال : يامنارة ساعدنا

على الأكل ، لايزيد على أن يدعونى باسمى كما يدعونى الخليفة ، فامتنعت عليه فما عاودنى ، فأكل هو ومن معه وكانوا تسعة من أولاده . فتأملت أكله فى نفسه فوجدته يأكل أكل الملوك ووجدت ذلك الاضطراب الذى كان فى داره قد سكن ، ووجدتهم لايرفعون شيئاً من بين يديه قد وضع على المائدة إلاتهيأ غيره حالا أعظم وأحسن منه ، وقد كان غلمانه أخذوا لما نزلت إلى الدار مالى وغلمانى وعدلوا بهم إلى دار أخرى ، فما أطاقوا ممانعتهم وبقيت وحدى وليس بين يدى إلا خمس أو ست غلمان وقوف على رأسى ، فقلت فى نفسى: هذا جبار عنيد ، فإن امتنع من الشخوص ، لم أطق إشخاصه بنفسى ولابمن معى ولا أحفظ إلا أن يلحقنى أمير البلد وجزعت جزعا شديدا ، ورابنى منه استخفافه وتهاونه بأمرى ، يدعونى باسمى ولا يفكر فى امتناعى من الأكل ، ولايسأل عما جئت ، ويأكل مطمئنا ، وأنا مفكر فى ذلك .

فلما فرغ من أكله وغسل يديه دعا بالبخور فتبخر ، وقام إلى الصلاة وصلى الظهر ، وأكثر من الدعاء والابتهال، ورأيت صلاته حسنة فلما انتقل من المحراب أقبل على ، وقال : ما أقدمك يامنارة ؟ فأخرجت كتاب أمير المؤمنين ، ودفعته إليه ففضه وقرأه ، فلما استتم قراءته دعا أولاده وحاشيته، فاجتمع منهم خلق كثير فلم أشك أنه يريد أن يوقع بى ، فلما تكاملوا ، ابتدأ فحلف أيمانا غليظة فيها : الطلاق ، والعتاق ، والحج ، والصدقة، والوقف ، أن لايجتمع اثنان فى موضع واحد ، وأمرهم أن ينصرفوا ويدخلوا منازلهم ولايظهروا إلى أن يكشف لهم أمرا يعتمدون عليه ، وقال : هذا كتاب أمير المؤمنين بالمصير إليه ، ولست أقيم بعد نظرى فيه ساعة

واحدة، فاستوصوا بمن ورائى من الحريم ، خيرا ومالى حاجة أن يصحبنى أحد منكم هات قيودك يامنارة فدعوت بها وكانت فى سفط[1] ومدَّ يده فقيدته وأمرت غلمانى بحمله ، حتى صار فى المحمل وركبت فى الشق الآخر ، وسرت من وقتى ولم ألاق أمير البلد ولا غيره .

وسرت بالرحل وليس معه أحد إلى أن صرنا بظاهر دمشق ، فابتدأ يحدثنى بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن فى الغوطة ، فقال لى : أترى هذا ؟ قلت : نعم قال : إنه لى وقال : إن فيه من غرائب الأشجار كيت وكيت ، ثم انتهى إلى آخر ، فقال : مثل ذلك ، ثم انتهى إلى مزارع حسان، وقرى ، فقال : مثل هذا لى ، فاشتد غيظى منه، وقلت : ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك ومالك وولدك ، وأخرجك فريدا مقيدا مغلولا ، ماتدرى إلى ما يصير إليه أمرك، ولاكيف يكون ، وأنت فارغ القلب من هذا ، حتى تصف ضياعك وبساتينك بعد أن حثتك وأنت لا تفكر فيما جئت به ، وأنت ساكن القلب قليل التفكر ، لقد كنت عندى شيخا فاضلا .

فقال لى مجيبا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أخطأت فراستى فيك، لقد ظننت أنك رجل كامل العقل ، وأنك ما أحللت من الخلفاء هذا المحل إلالما عرفوك به ، فإذا عقلك وكلامك يشبه كلام العوام والله المستعان ، أما قولك فى أميرالمؤمنين ، وإزعاجه وإخراجه إياى إلى بابه على صورتى هذه ، فإنى على ثقة من الله عز وجل الذى بيده ناصية أمير المؤمنين

---

(١) السفط : وعاء كالقفة أو الحوالق .

ولايملك أمير المؤمنين لنفسه نفعا ولا ضرا إلا باذن الله عز وجل ، ولا ذنب لى عند أمير المؤمنين أخافه ، وبعد فإذا عرف أمير المؤمنين أمرى وعرف سلامتى وصلاح نيتى سرحنى مكرما ، فإن الحسدة والأعداء رمونى عنده بما ليس فى وتقوّلوا علىَّ الأقاويل ولم يستحل دمى ويخرج من إيذائى وإزعاجى ويردنى مكرما ويقيمنى ببلاده معظما مبجلا وإن كان قد سبق فى علم الله عز وجل أنه يبدو لى منه سوء ، وقد اقترب أجلى وكان سفك دمى على يده ، فلو اجتهدت الملائكة والأنبياء وأهل الأرض والسماء على صرف ذلك عنى ما استطاعوا، فلم أتعجل الفكرة فيما فرغ الله منه ، وإنى أحسن الظن بالله الذى خلق ورزق وأمات ، وإن الصبر والرضا والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة ، وقد كنت أحسب أنك تعرف هذا ، فإذن قد عرفت مبلغ فهمك، فإنى لا أكلمك بكلمة واحدة ، حتى يفرق بيننا أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى ثم أعرض عنى فما سمعت منه لفظة غير : القرآن والتسبيح ، أو طلب ماء ، أو حاجة ، حتى شارفنا الكوفة فى اليوم الثالث عشر بعد الظهر، والنحب[1] قد استقبلتنى قبل ستة فراسخ من الكوفة يتجسسون خبرى ، فحين رأونى رجعوا عنى متقدمين بالخبر إلى أمير المؤمنين ، فانتهيت إلى الباب فى آخر النهار ، فحططت رحلى على الرشيد ، وقبلت الأرض بين يديه . ووقفت . فقال : هات ماعندك يامنارة وإياك أن تغفل عن لفظة واحدة، فسقت الحديث من أوله إلى آخره حتى انتهيت إلى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبخور وماحدثتنى به نفسى من امتناعه ، والغضب يظهر فى وجه أمير المؤمنين

---

(١) النحب : الشجر ، وكنى بها عن الجواسيس لأنهم يختبئون ورائها .

ويتزايد حتى انتهيت إلى فراغ الأموى من الصلاة والتفاته إلى وسؤاله عن سبب قدومى ودفعى الكتاب إليه ، ومبادرته إلى إحضار ولده وأهله وأصحابه وحلفه عليهم أن لا يتبعه أحد وصرفه إياهم ومد رحليه فقيدته ، فما زال وجه الرشيد يسفر ؛ فلما انتهيت إلى ما خاطبنى به عند توبيخى له لما ركبنا فى المحمل ، فقال : صدق و الله ما هذا إلا رجل محسود على النعمة ، مكذوب عليه ، ولعمرى لقد أزعجناه ، وآذيناه، ورعنا أهله فبادر بنزع قيوده وأثنى به .

قال : فخرجت فنزعت قيوده وأدخلته إلى الرشيد ، فما هو إلا أن رآه حتى رأيت ماء الحياء يحول فى وجه الرشيد ، فدنا الأموى وسلم بالخلافة ووقف فرد عليه الرشيد ردا جميلا وأمره بالجلوس ، فجلس وأقبل عليه الرشيد فسأله عن حاله ، ثم قال له : بلغنا عنك فضل هيئة وأموراً حببنا معها أن نراك ونسمع كلامك ونحسن إليك فاذكر حاجتك ، فأجاب الأموى : جوابا جميلا وشكر ودعا ، ثم قال : ليس لى عند أمير المؤمنين إلا حاجة واحدة ، فقال: مقضية ، فما هى ؟ قال : يا أمير المؤمنين تردنى إلى بلدى وأهلى وولدى ، قال : نفعل ذلك ولكن سل ما تحتاج إليه من مصالح جاهك ومعاشك ، فإن مثلك لا يخرج إلا ويحتاج إلى شىء من هذا ، فقال : يا أمير المؤمنين عمالك منصفون وقد استغنيت بعدلهم عن مسألتى ، فأمورى مستقيمة ، وكذلك أهل بلدى بالعدل الشامل فى ظل أمير المؤمنين ، فقال الرشيد : انصرف محفوظا إلى بلدك واكتب إلينا بأمر إن عرض لك ، فودعه الأموى ، فلما ولى خارجا ، قال الرشيد : يامنارة احمله من وقتك وسر به راجعا كما سيرته ، حتى إذا وصلت إلى مجلسه

الذى أخذته منه فودعه وانصرف. قال منارة : فمازلت معه حتى انتهى إلى محله ، ففرح به أهله وأعطانى عطاء جزيلا وانصرفت ، والله أعلم وهذه الحكاية على سبيل الاختصار[1] .

[٨٢] وحكى : أن الخليفة هارون الرشيد قلق فى بعض الليإلى قلقا شديدا، فاستدعى بوزيره جعفر البرمكى ، وقال له : ياوزيرى إن صدرى ضيق ، ومرادى الليلة التفرج فى شوارع بغداد ، وننظر فى مصالح العباد بشرط أن لا يعرفنا أحد من الناس ، ونتزيا بزى التجار الأكياس ، فقال له الوزير : السمع والطاعة فقاموا فى الوقت والساعة ، وقلعوا ما عليهم من ثياب الملك والافتخار ولبسوا ثياب التجار؛ الخليفة والوزير جعفر ومسرور السياف الأكبر ، وتمشوا من مكان إلى مكان حتى وصلوا إلى الدجله فرأوا بالأمر المقدر شيخا قاعدا فى شختور[2] ، فتقدموا إليه وسلموا عليه ، وقالوا: يا شيخ نشتهى من فضلك وإحسانك أن تفرجنا الليلة فى مركبك وخذ هذين الدينارين أجرتك انتفع بهما ، فقال لهم الشيخ : ومن يقدر علي الفرجة والخليفة هارون الرشيد ينزل كل ليلة فى حراقة[3] صغيرة إلى الدجلة ومعه منادي يناى معاشر الناس كافة : جيد وردئ ، شيخ وصبى ، خاص وعام وغلام ، كل من نزل فى مركب بالليل و شق الدجلة ضربت عنقه ، أو يشنق على صارى مركبه ، وكأنكم الساعة بالحراقة وهى مقبلة ، فقال له الخليفة هارون الرشيد وجعفر البرمكى: ياشيخ خذ هذين الدينارين

---

(١) انظر : الفرج بعد الشدة (٢/٦٣) .

(٢) الشَّخْتور :سفينة صغيرة .

(٣) الحَرَّاقة : من السفن الحربية ، وجمعها حرَّاقات .

وادخل بنا قبواً من هذه الأقبية إلى أن تروح الحراقة ، فقال لهم الشيخ : هاتوا الذهب واللّه المستعان فأخذ الذهب وعوم بهم قليلا ، وإذا بالحراقة قد أقبلت من كبد الدحلة ، وفيها الشموع والمشاعل ، فقال لهم الشيخ : أما قلت لكم ياستار لا تكشف الأستار ، فقال الخليفة هارون الرشيد والوزير جعفر البرمكى: ادخل بنا يا شيخ فى قبو من الأقبية حتى تمضى هذه الحراقة ، فدخل إلى قبو ووضع عليهم ، مئزرا أسود وصاروا يتفرجون من تحت المئزر وإذا بالحراقة قد أقبلت ، والشمع يوقد فيها وإذا فى مقدم الحراقة مشاعلى بيده مشعل من الذهب الأحمر ، يوقد فيه بالعود القاقلى[1] وعلى المشاعلى قباء أطلس أحمر بطراز مزركش أصفر ، وعلى رأسه شاش موصلى ، وعلى كتفيه مخلاة من الحرير الأخضر ملآنة من العود القاقلى وهو يوقد به عوض الحطب ، ومشاعلى آخر فى مؤخر الحراقة مثله ، ومائتا مملوك واقفون ميمنة وميسرة ، وكرسى منصوب من الذهب الأحمر ، وعليه شاب حسن جالس كالقمر ، وعليه خلعة سوداء بطرازين من الذهب الأصفر ، وبين يديه إنسان كأنه الوزير جعفر ، وعلى رأسه خادم واقف كأنه مسرور بسيف مشهور ، وعشرون نديما ، فقال الخليفة : ياجعفر قال : لبيك ياأمير المؤمنين قال : لعل أن يكون هذا أحد أولادى إما المأمون ، أو محمد الأمين ، فلما وصلت الحراقة إليهم ، وإذا بالمشاعلى ينادى : معاشر الناس كافة الخاص والعام ، والجيد والردىء ، والعبد والغلام ، جهاوات وغير جهاوات قد رسم خليفتنا هذا : إن كل من تفرج فى الدحلة ، أوفتح طاقته ، حل ماله وضربت رقبته، ومن لايصدق يجرب

---

(١) العود القاقُلى : نبات هندى له رائحة عطرية .

قال : فتأمل الخليفة هارون الرشيد فى الشاب ، وهو جالس على كرسى من الذهب ، قد كمل بالحسن والجمال والبهاء والكمال ، قد زان المنصب ، فلما تأمله هارون الرشيد ، التفت إلى الوزير ، وقال : ياوزير ، قال له : لبيك يا أمير المؤمنين، قال : والله ما أبقى شيئاً من شكل الخلافة، وهذا الذى بين يديه كأنه أنت ياجعفر لا محالة والخادم الذى على رأسه كأنه مسرور هذا ، وهؤلاء الندماء كأنهم ندمائى، وقد حار عقلى فى هذا الأمر ، فقال له الوزير : وأنا والله يا أمير المؤمنين كذلك ، ثم تقدمت الحراقة إلى أن غابت عن العين ، فعند ذلك خرج الشيخ بالشختور الذى فيه الجماعة من تحت القبوة[1]، وقال : الحمد لله على السلامة الذى لم يصادفنا ، فقال له الخليفة : ياشيخ وهذا الخليفة ينزل كل ليلة فى الدجلة ؟ قال : نعم ياسيدى، له على هذه الحالة سنة كاملة ، فقال له الخليفة : ياشيخ نشتهى من فضلك وإحسانك أن تقف لنا ليلة غد فى هذا المكان ، ونحن نعطيك خمسة دنانير ، فإنا قوم غرباء ، وقصدنا التنزة ، ونحن نازلون فى الفندق[2]، فقال الشيخ : السمع والطاعة .

ثم إن الخليفة وجعفراً و مسرورا توجهوا من عند الشيخ المراكبى إلى القصر ، وقلعوا ما عليهم من لبس التجار ولبسوا ثياب الملك والافتخار ، وجلس كل واحد فى مرتبته ، ودخلت الأمراء والحجاب والنواب وانعقد المجلس بالناس ، ولما انقضى النهار وتفرقت الأجناد؛ قال الخليفة هارون الرشيد لوزيره : ياجعفر انهض بنا للفرجة على الخليفة الثانى ، فضحك

---

(١) القبو : البناء على هيئة القبة .

(٢) الفندق : المكان المعد لنزول المسافرين .

جعفر ومسرور ولبسوا لبس التجار وخرجوا منشرحى الصدور ، وكان خروجهم من باب السر ؛ فلما وصلوا إلى الدجلة وجدوا الشيخ صاحب الشحتور لهم فى الانتظار ، فنزلوا عنده فى المركب ، فلما استقروا مع الشيخ المراكبى ، وإذا بالخليفة الثانى فى الحراقة وقد أقبلت عليهم فتأملوها وإذا فيها مائتا مملوك غير المماليك الأول ، والمشاعلية تنادى على عادتهم.

فقال الخليفة : ياوزير هذا شيء لو سمعت به ماصدقت ، ولكن رأيت هذا عيانا ، ثم إن الخليفة قال لصاحب الشحتور : ياشيخ هذه عشرة دنانير فسر بنا فى مساواتهم ، فإنهم فى النور ونحن فى الظلام ننظرهم ونتفرج عليهم وهم لا ينظروننا، فأخذ الشيخ العشر دنانير وأطلق الشحتور فى مساواتهم وصار فى ظلام الحراقة ولم يزالوا سائرين فى أثرهم إلى آخر البساتين ، وإذا بزربية[1] بطول الحراقة التصقت عليها، وإذا بغلامين واقفين ومعهما بغله مسرجة ملجمة ، فطلع الخليفة الثانى وركب البغلة وسار بين الندماء وزعقت المشاعلية والحاويشية ، واشتالت الغاشية . وطلع هارون الرشيد وجعفر ومسرور إلى البر وشقوا بين المماليك وسارو اقدامهم فلاحت من المشاعلية التفاتة فرأو الثلاثة أنفار لبسهم لبس التجار وهم غرباء ، فانكروهم وغمزوا عليهم فمسكوهم وأحضروهم بين يدى الخليفة الثانى ، فلما نظرهم قال : كيف وصلتم إلى هذا المكان وما الذى جاء بكم فى مثل هذا الوقت ؟ قالوا : يامولانا اليوم كان قدومنا ونحن قوم

---

(١) زَرْبِيَّة : مابسط واتكىء عليه .

غرباء تجار وخرجنا نتمشى الليلة وإذا بكم قد أقبلتم ، وجاءوا هؤلاء وقبضواعلينا وأوقفونا بين أيديكم ، وهذا خبرنا ، فقال لهم الخليفة الثانى : طيبوا قلوبكم فلا بأس لأنكم قوم غرباء ولوكنتم من بغداد لضربت أعناقكم للمخالفة، ثم التفت إلى وزيره وقال : خذ هؤلاء صحبتك ليكونوا ضيوفنا الليلة ، فقال: سمعا وطاعة .

ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى قصر عظيم الشأن محكم البنيان ماحواه سلطان قصر قام من التراب وتعلق بأكناف السحاب ، بابه من خشب الساج[1] مرصع بالذهب الوهاج ، يدخل منه إلى إيوان بفسقية وشاذروان وحصر عبدانية ، ومخدات إسكندرانية ، وستر مسبول ، وفرش تذهل العقول وعلى عتبة الباب مكتوب هذان البيتان :

قصر عليه تحية وسلام نشرت عليه جمالها الأيام
فيه العجائب والغرائب نوعت فتحيرت فى نعتها الأقلام

قال : فدخل الخليفة الثانى إلى القصر والجماعة فى خدمته إلى أن جلس على كرسى من الذهب مرصع بالدر والجواهر ، وعلى الكرسى بشخانة من الحرير الأخضر لا يرى مثلها إلا عند كسرى وقيصر مزركشة بالذهب الأحمر معلقة فى بكرة من الصندل رباطاتها من الحرير الأصفر ، هذا وقد جلس الندماء فى مراتبهم وصاحب سيف النقمة واقف بين يديه

---

(١) خشب السّاج : من شجر مهده أندونيسيا ، وهو جميل المنظر وأحد أجواد الأخشاب الصلبة المعروفة .

فمدوا السماط[1] وأكلوا ورفعوا الخوان[2]، ولأيديهم غسلوا، وأحضرت آلة المدام ووضعت الطاسات والأوانى وصفت الأباريق والكاسات والقنانى، ودار الدور إلى أن وصل إلى الخليفة هارون الرشيد فامتنع من الشراب، فقال الخليفة الثانى : لجعفر مابال صاحبك لايشرب، فقال : يامولاى له مدة ماشرب فقال الشاب : عندى مشروب غير هذا يصلح لصاحبك، على بشراب التفاح ففى الحال أحضر فقدم بين يدى هارون الرشيد، وقال : كلما وصل إليك الدور فاشرب من هذا، ولازالوا يشربون فى انشراح وتعاطى أقداح إلى أن تمكن الشراب من رؤسهم واستولى على عقولهم ونفوسهم .

فقال الرشيد لوزيره : والله ياوزير ماعندنا آنية مثل هذه الآنية فياليت شعرى من يكون هذا الشاب ! فبينما هما يتحدثان بلطافة إذ لاحت من الشاب إلتفاتة فوجد الوزير يسارر الخليفة، فقال : المسارة عربدة، فقال الوزير : ما نم عربدة إلا أن رفيقى هذا يقول : سافرت غالب البلاد ونادمت الملوك وعاشرت الأحناد فما رأيت أحسن من هذا النظام ولامثل آنية هذا المدام إلا أن أهل بغداد يقولون : الشراب بلا سماع من جملة المجون .

فلما سمع الخليفة الثانى تبسم وانشرح وكان بيده قضيب، فضرب به على مدورة وإذا بباب قد فتح وخرج منه خادم يحمل كرسيا من العاج

---

(١) السماط : مايبسط ليوضع على الخوان .

(٢) الخوان : مايوضع عليه الطعام .

مُصفحا بالذهب الوهاج ، وخلفه جارية قد كملت بالحسن والجمال والبهاء والكمال فنصب الخادم الكرسى وجلست عليه الجارية وهى كالشمس الضاحية ، وبيدها عود من صنعة الهنود ، وشدته وحنت إليه بعد أن ضربت أربعة وعشرين طريقة عليه فأذهلت العقول وعادت إلى الطريقة الأولى وجعلت تقول :

لسان الهوى من مقلتى لك ناطق ... يخبر عنى أننى لك عاشق
ولى شاهد من طرف قلبى معذب ... وقلبى جريح من فراقك خافق
وكم أكتم الحب الذى قد أذابنى ... وقلبى قريح والدموع سوابق
وماكنت أدرى قبل حبك ما الهوى ... ولكن قضا الرحمن فى الخلق سابق

قال : فلما سمع الخليفة الثانى هذا الشعر من الجارية ، صرخ صرخة عظيمة وشق البدلة التى كانت عليه إلى الذيل ، فأسبلت البشخانة ، وأتى ببدلة غيرها أحسن منها فلبسها وجلس على عادته ؛ فلما وصل القدح إليه ضرب القضيب على المدورة وإذا بباب قد فتح وخرج منه خادم حامل كرسيا من ذهب وخلفه جارية أحسن من الأولى ، وجلست على الكرسى، وبيدها عود يكمد الحسود ، وأنشدت تقول :

كيف اصطبارى ونار العشق فى كبدى ... والدمع من مقلتى طوفانه مدد
والله ماطاب لى عيش أسر به ... وكيف يفرح قلب حشوه كمد

قال : فصرخ الشاب صرخة عظيمة ، وشق ما عليه إلى الذيل وأسبلت عليه البشخانة على العادة وأتى ببدلة غيرها أحسن منها ، فلبسها واستوى جالسا ، ودار المدام ، وانبسط الكلام ، فلما وصل القدح إليه ضرب القضيب على المدورة ، ففتح الباب ، وخرج منه خادم على العادة ،

ومعه كرسى وخلفه جارية ، فجلست على الكرسى ومعها عود يذهل الأسود ، فغنت ، وأنشدت تقول :

أقصروا هجركم وقلوا جفاكم ... ففؤادى وحقكم ماسلاكم
وارحموا مدنفا كئيباً حزينا ... ذا غرام متيما فى هواكم
قد براه السقام من عظم وجد ... يتمنى من الإله رضاكم
يا بدور محلكم فى فؤادى ... كيف أختار فى الأنام سواكم

قال : فصرخ الشاب ، وشق ماعليه من الثياب ، فأرخو عليه البشخانة، وأتوا ببدلة غيرها ، وعاد إلى حالته مع ندمائه ، ودارت الأقداح وطاب الانشراح ؛ فلما وصل القداح إليه ضرب القضيب على المدورة ، ففتح باب وخرج منه خادم حامل كرسيا ، وخلفه جارية فجلست على الكرسى وأخذت العود وغنت تقول :

ترى ينصرم حال التهاجر والقلى ... ويرجع ما قد انقضى لى أولا
أيام كنا والديار تلمنا ... فى طيب عيش والحواسد غفلا
غدر الزمان بنا وفرق شملنا ... من بعد هاتيك المنازل والحلا
أتروم منى يا عذولى سلوة ... وأرى بقلبى مايطيع العذلا[1]
فدع الملام وخلنى بصبابتى ... القلب من أنس المحبة ماخلا
ياسادة نقضوا العهود وبدلوا ... لاتحسبوا قلبى لبعد كموسلا

قال : فلما فرغت الجارية صرخ الشاب صرخة عظيمة وشق ما عليه من الثياب ووقع إلى الأرض مغشيا عليه ، وسقط منه القوى والحيل ،

---

(١) أتروم : أتريد .

فأرادوا أن يرخوا عليه البشخانة على العادة فتعوقت حبالها بالإرادة ، فلاحت من هارون الرشيد التفاتة فنظر على أجناب الشاب أثر مقارع ، فقال الرشيد : بعد النظر والتأكيد لجعفر إنه شاب مليح إلا إنه لص قبيح ، وماعند أحد منه خبر هل رأيت ما على جنبيه من الأثر . وقد أسبلت البشخانة عليه على العادة، وأتى ببدلة غيرها ، فلبسها وقد أفاق من غشيته فاستوى جالسا على العادة مع الندماء فحانت منه التفاتة فوجد جعفرا والخليفة يتحدثان ، فقال لهما : ما الخبر يافتيان ؟ فقال جعفر : يامولاى خير لاشك ولاخفاء ، إن رفيقى هذا من التجار الكبار ، وسافر جميع الأمصار ، وصحب الملوك والأخيار ، وقال : إن الذى حصل من مولانا الخليفة فى هذه الليلة إسراف عظيم لم أر أحدا فعل هذا الفعل فى هذه الأقاليم ، لأنه شق كل بدلة بخمسمائة دينار وهذا شىء زائد فى العيار . فقال الشاب : ياهذا المال مالى والقماش قماشى وهذا من بعض إنعامى على الخدم والحواشى ، فإن كل بدلة شققتها هى لواحد من الندماء الحضار وقد رسمت لهم أن العوض على كل بدلة خمسمائة دينار فأنشد عند ذلك الوزير جعفر ، وقال :

بنت المكارم وسط كفك منزلا ... فجميع مالك للأنام مباح
وإذا المكارم أغلقت أبوابها ... يوما فأنت لقفلها مفتاح

قال : لما سمع الشاب من الوزير جعفر ذلك رسم له بألف دينار وبدلة، ثم دارت بينهم الأقداح وطاب لهم شراب الراح ، فقال الرشيد : ياجعفر اسأله عن الضرب الذى رأيناه على جنبيه حتى ننظر مايقول فى جوابه ، فقال الوزير : يامولاى لاتعجل وترفق بنفسك فالصبر أجمل ، فقال: وحياة رأسى وتربة العباس ، إن لم تسأله أخمدت منك الأنفاس ،

فعند ذلك إلتفت الشاب إلى الوزير ، وقال : مالك مع رفيقك وما الخبر ؟ فقال : خير يامَولانا، فقال : سألتك بالله إلا أخبرتنى بخبره ولاتكتم عنى شيئاً من أمره فقال : يامولاى إنه أبصر على جنبيك أثر سياط ، فتعجب من ذلك غاية العجب ، وقال : يالله العجب الخليفة يضرب وقصده يعلم ماالسبب ! فلما سمع الشاب هذا الكلام تبسم وقال : اللهم فنعم اعلموا أن حديثى عجيب وأمرى غريب لو كتب بالأبر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر ثم تأوه وأنَّ واشتكى وبكى وأنشد :

حديثى عجيب حاز كل العجائب ... وحق إله قد عرف بالمواهب
فان شئتموا أن تسمعوا لى فانصتوا ... ويطرب هذا الجمع من كل جانب
واصغوا إلى قولى ففيه إشارة ... وإن كلامى صادق غير كاذب
لانى قتيل من غرام ولوعة ... وقاتلتى فاقت جميع الكواعب
لها مقلة كحلا وخد مورد ... ويقتلنى منها قسى الحواجب
وقد حس قلبى أن فيكم إمامنا ... خليفة هذا الوقت ابن الأطايب
وثانيكمو يدعى الوزير بجعفر ... حقيقة يدعى صاحبا وابن صاحب
وثالثكم مسرور سياف نقمة ... فإن كان هذا القول حقا بصائب
فقد نلت ماأرجو على كل حالة ... وجاء سرور القلب من كل جانب

قال : فعند ذلك حلف له جعفر أنهم لم يكونوا المذكورين ، فضحك الشاب وقال : الذى أعرفكم به أنى ما أنا أمير المؤمنين ، وإنما سميت نفسى بهذا الاسم لأبلغ ما أريد من أبناء المدينة واسمى : على بن محمد الجوهرى ، وإن أبى كان من الأعيان ومات وخلف لى أموالا لاتأكلها النيران من ذهب، وفضة ، ولؤلؤ ، ومرجان ، وياقوت ، وجوهر ،

وزمرد ، وبهرمان ، وحمامات ، وغيطان ، وبساتين ، وفنادق، وطواحين ، وعبيد ، وجوار ، وغلمان .

فلما كان فى بعض الأيام ، وأنا جالس فى حانوتى وحولى الحشم والخدم ، وإذا أنا بجارية قد أقبلت على بغلة وفى خدمتها ثلاث جوار كأنهن الأقمار ، ونزلت على دكانى وجلست ، وقالت : أنت على بن محمد الجوهرى ؟ فقلت لها : مملوك وعبد رقك ، فقالت : هل عندك عقد جوهر يصلح لمثلى ، فقلت : ياستى الذى عندى يحضر بين يديك فإن أعجبك شىء كان بسعد المملوك ، وإن لم يعجبك شىء منه فبسوء حظى ، وكان عندى مائة عقد جوهر فعرضت عليها الجميع فلم يعجبها شىء منها ، وقالت : أريد أحسن مما رأيت . وكان عندى عقد صغير شراؤه على والدى بمائة ألف دينار لم يوجد مثله عند أحد السلاطين الكبار، فقلت : ياسيدتى عندى عقد الفصوص والجواهر الذى لم يملكه أحد من الأصاغر والأكابر ، فقالت : أرنى إياه ؛ فلما رأته قالت : هذا الذى طول عمرى أتمناه ، ثم قالت : بكم ثمنه فى الأسعار ؟

فقلت : شراؤه على والدى بمائة ألف دينار . فقالت : ولك خمسة آلاف زائدة ، فقلت لها : ياسيدتى العقد وصاحبه فى الرق بين يديك ولاخلاف ، فقالت : لابد من الفائدة ولك الجميلة الزائدة ، وقامت عجلة، وركبت البغلة بسرعة وقالت : ياسيدى نور الدين باسم الله تكن صحبتنا لنأخذ الثمن ، فإن نهارك اليوم بنا مثل اللبن ، فقمت وقفلت الدكان وسرت معهن فى أمان إلى أن وصلنا الدار فوجدتها دارا عليها السعادة لائحة والافتخار وعلى بابها مكتوب بالذهب واللازورد العجيب هذه الأبيات :

ألا يـــادار لايدخلـــك حـــزن ولايغـــدر بصـــاحبك الزمـــان
فنعـم الـدار أنـت لكـل ضيـف إذا مـاضـاق بالضيـف المكـان

فنزلت الجارية ودخلت الدار وأمرت بجلوسى إلى أن يأتى الصيرفى ، فجلست على باب الدار ساعة لطيفة ، وإذا بجارية خرجت إلى : وقالت : ياسيدى ادخل إلى الدهليز فإن جلوسك على الباب قبيح ، فقمت إلى الدهليز وجلست على الدكة ساعة، وإذا بجارية خرجت إلى وقالت : ياسيدى تقول لك سيدتى : أدخل واجلس على جانب الإيوان حتى تقبض مالك ، فقمت فدخلت وجلست حيث أمرتنى ، وإذا بكرسى من الذهب وعليه ستارة من الحرير الأحمر ، وإذا بتلك الستارة قد رفعت فبان من تحتها الجارية التى اشترت منى العقد ، وقد أسفرت عن وجه كأنه دائرة القمر والعقد فى عنقها فاندهش عقلى وحار ذهنى ولبى[1] من رؤية تلك الجارية وحسنها .

فلما رأتنى قامت من على الكرسى وسعت نحوى ، وقالت : يانور الدين هل رأيت جميلة مثلى ؟ فقلت : ياسيدتى الحسن كله فيك وهو من بعض معانيك ، فقالت : ياعلى اعلم أنى أحبك وماصدقت بك إلا لما صرت عندى ، ثم إنها طوقت على وعانقتها ، فقبلتها وقبلتنى ، ثم جذبتنى وعلى صدرها رمتنى ؛ فلما علمت منى أنى أريد أن أهم بها ، قالت : ياعلى أتريد أن تجتمع بى فى الحرام ، والله لا كان من يفعل الآثام ويرضى بقبيح الكلام، فإنى بكر عذراء ما دنا منى أحد ولست مجهولة فى البلد، تعلم من أنا ؟ فقلت : لا والله وحلفت لها يمينا ، فقالت : أنا الست دنيا

---

(١) لبى الذهن : توقف وتردد من شدة الدهشة

بنت يحيى بن خالد البرمكى ، وأخى جعفر ؛ فلما سمعت منها ذلك جمعت خاطرى عنها ، وقلت : ياسيدتى مالى ذنب فى التهجم عليك أنت التى أطمعتينى فى إحسانك والوصول إلى جنابك ، فقالت : لابأس عليك ولابد من الإحسان إليك ، فإن أمرى بيدى والقاضى ولى عقدى ، والقصد أن أكون لك وتكون لى ، ثم إنها دعت بالقاضى والشهود وبذلت المجهود .

فلما حضروا قالت لهم : هذا نور الدين على بن الجوهرى قد طلب زواجى ، ودفع لى هذا العقد مهرى ، وأنا قد قبلت ورضيت ، ثم إن القاضى حمد الله تعالى وأثنى عليه ، وكتب الكتاب ، فدخلت عليها بعد أن أعطت للقاضى شيئا ماله حساب ، وأحضرت المدام وأحضرت الأقداح بأحسن نظام ؛ فلما شعشعت الخمرة فى رؤسنا ، أمرت جارية عودية أن تغنى فأنشات تقول:

قلبى وآمالى بباب رجاكمو ... لاأبتغى فى الكون غير رضاكمو
ياجيرة جاروا علىَّ ببعدهم ... حنوا علينا وارحموا مضناكمو
حاشاكمو ياسادتى حاشاكمو ... صبا معنى مغرما بهواكمو
بالله جودوا وارحموا لمتيم ... لايستمع فيكم حديث سواكمو
مرسى اشتياقى فوق طول رضاكمو ... فإذا شحاه حسنكم ناجاكمو

قال : فأطربتنا الجارية بحسن غنائها ولم تزل الجوارى يغنين جارية بعد جارية وينشدن الأشعار إلى أن غنت عشر جوار ، فعند ذلك أخذت العود الست دنيا وأنشدت تقول :

أقسم بليل قوامك الميّاس ... إنى لنار الهجر منك أقاسى[1]
فارحم لصبّ فى هواك متيم ... يابدر تم أنت خير الناس
أنعم بوصلك كم أبيت بليلة ... احلو جمالك فى ضياء الكاس
مابين ورد جمعت ألوانه ... مع نرجس أيضا وحسن الآس[2]

قال الشاب : ثم إنى أخذت منها العود وضربت عليه وغنيت هذه الأبيات :

سبحان رب جميع الحسن أعطاك ... حتى بقيت أنا من بعض أسراك
يامن لها ناظر تسبى الأنام به ... خذى الأمان لنا من سحر عيناك
فالماء والنار فى خديك قد جمعا ... والورد حورى نبت وسط خداك
أنت الغرام لقلبى والنعيم له ... فما أمرك فى قلبى وأحلاك

قال : فلما سمعت منى ماقلت فرحت فرحا شديدا ، ثم إنها صرفت الجوارى وقمنا إلى أحسن مكان قد فرش لنا فيه من سائر الألوان ونزعت ماعليها من الثياب ، وخلوت بها خلوة الأحباب فوجدتها بنتا بكرا بختم ربها ففرحت بى وفرحت بها فرحا لم أجد فى عمرى ليلة أطيب منها وفيها أنشدت أقول

يا ليل دم لى لاأريد صباحا ... يكفى بوجه معانقى مصباحا
طوقته طوق الحمام بساعدى ... وجعلت كفى للمنام مباحا
هذا هو الفوز العظيم فمن لنا ... متعانقين فلا نريد براحا

---

(١) الميّاس من تميس الرجل : مشى وهو يتبختر ويتمايل كالأسد .
(٢) حسن الأس : حسن الأصل .

فأقمت عندها شهرا كاملا ، وقد نسيت الدكان والأهل والأوطان إلى ذات يوم من الأيام ، قالت : يانور الدين قد عزمت اليوم على المسير إلى الحمام وأنت اقعد على هذا السرير إلى أن أرجع إليك ، فقلت : سمعا وطاعة وحلفتنى أنى لاأنتقل من موضعى .فأخذت جواريها وذهبت إلى الحمام ، فوالله يا إخوانى ما لحقت تخرج من رأس الزقاق وإلا والباب قد فتح ودخلت منه عجوز وأى عجوز ، وقالت : يانور الدين الست زبيدة[1] تدعوك ، فقد سمعت بشبابك وطيب غنائك ، فقلت : والله على يمين أننى ما أقوم من مقامى حتى تأتى الست دنيا ، فقالت العجوز : يانور الدين لاتخل الست زبيدة تصير عدوتك : فقم كلمها وارجع فقمت من وقتى إليها والعجوز أمامى إلى أن أوصلتنى إلى الست زبيدة ؛ فلما وصلت إليها قالت : يانور الدين أنت معشوق الست دنيا ، فقلت : مملوكك وعبد رقك ، فقالت: صدق الذى وصفك بالحسن والجمال ، فإنك فوق الوصف والمقال ولكن غن لى شيئا حتى أسمعك ، فقلت : السمع والطاعة، فأتتنى بعود فغنيت عليه وأنشدت أقول :

قلب المحب مع الأحباب متعوب ... وجسمه بيد الأسقام منهوب
مافى الركائب من ذمت حملهم ... إلا وكان له فى الظعن محبوب
أستودع الله لى فى حيكم قمرا ... يهواه قلبى وعن عينى محجوب
يرضى ويغضب ما أحلى تَدَلُّله ... وكل مايفعل المحبوب محبوب

---

(١) زبيدة بنت جعفر : زوجة هارون الرشيد ، وابنة عمه وأم الخليفة الأمين .سيدة جليلة اشتهرت بإحسانها توفيت فى بغداد .وعطفها على الأدباء ، والشعراء ، ومن ذوات العقل والرأى والفصاحة ، ت[٢١٦هـ=٨٣١م]. انظر : أعلام النساء (١٧/٢).

فقالت لي : حفظ الله بدنك وطيب أنفاسك ، فلقد كملت فى الحسن والظرف والمعنى ، فقم إلى مكانك قبل أن تجيء إليه الست دنيا فلم تحدك فتغضب عليك ، فقبلت الأرض وخرجت العجوز أمامى إلى أن وصلتنى إلى الباب الذى خرجت منه .

فدخلت وجئت إلى السرير لأجلس ، فوجدتها جاءت من الحمام ونامت على السرير ، فقعدت عند رجليها وصرت أكبسها[1] ففتحت عينيها فرأتنى فجمعت رجليها ورفستنى فرمتنى من على السرير ، وقالت : يانور الدين خنت اليمين وكذبت وذهبت إلى الست زبيدة ووالله لولا خوفى من الهتيكة والفضيحة لخربت قصرها على رأسها ، ثم قالت لعبدها: يا صواب قم اضرب رقبة هذا النذل الكذاب فلا حاجة لنا به ، فتقدم ذلك الخادم إلى وشرط ذيلى وعصب عينى ، وأراد أن يضرب رقبتى فقامت إليها الجوارى الكبار والصغار ، وقلن لها : ياستاه ياهو بأول من أخطأ وماعرف خلقك وأنت ما تبغضينه وما فعل ذنبا يوجب أن تقتليه ، فقالت : والله لابد أن أوثر فيه أثراً ، ثم إنها أمرت بضربى فضربت على أضلاعى الضرب الذى رأيتموه وأمرت بإخراجى فأخرجونى وأبعدونى عن القصر ورمونى ، ورجعوا وتركونى فلممت نفسى فمشيت قليلا إلى أن وصلت إلى منزلى وأحضرت جراحا وأريته الضرب ، فلاطفنى وسعى فى مصالحى؛ فلما صح جسمى دخلت الحمام وزالت عنى الأوجاع والأسقام وجئت إلى الدكان وأخذت جميع مافيها وبعته وجمعت ثمنه ، واشتريت أربعمائة مملوك ماجمعهم أحد من الملوك يركب معى فى كل يوم مائتان وعملت

---

(١) كبس الشيء : شده وضغط عليه .

هذه المركب الحراقة بألف ومائتين من الذهب العين ، وسميت نفسى بالخليفة ورتبت من معى من الخدام كل واحد فى وظيفته ، ونـاديت كل من تفرج فى الدحلة ضربت عنقه بلا مهلة ولى على هذه الحالة سنة كاملة ولم أسمع لها بخبر ولا وقفت لها على أثر ، ثم إنه بكى وأنَّ واشتكى وأنشد يقول :

والله ما كنت طول الدهر ناسيها ... ولا دنوت إلى من ليس يدنيها
كأنها البدر فى تكوين خلقتها ... سبحان خالقها سبحان باريها
صدت ولاذنب لى إلا محبتها ... فكيف حال الذى قد بات ناعيها
وصيرتنى حزينا ساهيا دنفا ... والقلب قد حار منى فى معانيها

قال : فلما سمع هارون الرشيد كلام الشاب وما أبداه من الخطاب ، تعجب غاية العجب ، وقال : سبحان من جعل لكل شيء سببا ، ثم إنهم طلبوا من الشاب الانصراف وأضمر الرشيد للشاب الإنصاف وأن يتحفه غاية الإتحاف ، فانصرفوا من عنده سائرين وإلى قصر الخلافة طالبين .

ولما استقر بهم فى المنزل الجلوس غيروا ماكان عليهم من الملبوس ولبسوا أثواب الموكب والملك والزينة وكذلك مسرور سياف النقمة والعطب. فقال الخليفة لجعفر المهاب : ياوزير على بالشاب فخرج إليه فى الحشم والخدم وسار إلى منزل الشاب ، فخرج إليه وسلم عليه فقال له الوزير جعفر : أجب أمير المؤمنين ، فقال : سمعا وطاعة لأمير المؤمنين وحامى حوزة الدين ، فسار معه إلى القصر وهو من الترسيم[1] عليه فى

---

(١) الترسيم : حسن المشى .

حصر ؛ فلما دخل إلى الخليفة ، ورفع الوزير الستر عن السدة الشريفة ، ورأى الشاب الخليفة عرفه فقبل الأرض بين يديه ودعا له بدوام العز وأثنى عليه ، وقال : عليك السلام يا أمير المؤمنين وحامى حوزة الدين وقامع المفسدين وإمام المتقين هناك الله بما أعطاك ، وجعل الجنة مأواك والنار مثوى لأعداك وأنشد يقول :

لازال بابك كعبة مقصودة ... وترابها فوق الجباه رسوم
حتى ينادى فى البلاد بأسرها ... هذا المقام وأنت إبراهيم

فعند ذلك : تبسم الخليفة فى وجهه ورد عليه السلام وأظهر له الإحسان والإكرام ، وقربه إليه ، وأجلسه بين يديه وقال له : يا نور الدين أريد أن تحدثنى بحديثك الليلة يا مسكين ، فإنه من أعجب الأمور ، فقال الشاب : الفعو يا أمير المؤمنين أعطنى منديل الأمان ليهدأ روعى ويطمئن قلبى ، فقال الخليفة : لك الأمان ، فشرع الشاب يتحدث بالذى جرى له من أوله إلى آخره ، فعلم الخليفة من غير إطالة أن الصبى عاشق لا محالة فقال الخليفة : أتحب أن أردها إليك يا مسكين ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين ثم أنشد :

إن رمت إحسانا فهذا وقته ... أو رمت معروفا فهذا حينه

فعند ذلك التفت الرشيد إلى الوزير وقال له : احضر أختك ست دنيا بنت الوزير يحيى ، فقال له : السمع والطاعة فأحضرها فى الوقت ، فلما مثلت بين يديه قال لها : أتعرفين هذا من ؟ فقالت : أين للنساء معرفة بالرجال ، فتبسم وقال : يا دنيا قد عرفنا الحال وسمعنا الحكاية من أولها إلى آخرها ، وفهمنا باطنها وظاهرها ، والأمر لايخفى وإن كان مستورا ،

فقالت: كان ذلك فى الكتاب مسطورا وأنا أستغفر الله مما جرى وأسأل من فيض الفضل العفو عنى ؛ فضحك الخليفة ، وأحضر القاضى والشهود وعقد له ثانيا عليها وحصل له سعد السعود وأكمد العدو والحسود وجعله نديمه وزاد تكريمه وعاش بقية عمره فى أهنأ عيش ونعمة ، يجالس الخليفة فى الليل، والنهار تؤانسه الست دنيا ذات الفخار وهذا ما انتهى إلينا من التلخيص والله أعلم.

[٨٢] **ويحكى** : أن جعفر البرمكى نادم الرشيد ليلة ، فقال : ياجعفر بلغنى أنك اشتريت الجارية الفلانية ولى مدة أتطلبها ؛ فإنها بديعة الجمال ولى شوق زائد إليها فبعنيها ، قال : ليس على فيها بيع ، قال : هبنيها ، قال : ولا أهبها ، فقال : الرشيد زبيدة طالق منى ثلاثا إن لم تبعنيها أو تهبنيها ، وقال جعفر : زوجتى طالق منى ثلاثا إن بعتها أو وهبتها، ثم أفاقا من نشوتهما وعلما أنهما وقعا فى أمر عظيم وعجزا عن تدبير الحيلة .

فقال الرشيد : هذه واقعة ليس لها غير أبى يوسف[1] ، فاطلبوه وكان قد انتصف الليل ؛ فلما طلب قام فزعا ، وقال : ما طلبت فى هذا الوقت إلا لأمر حدث فى الإسلام ، ثم خرج مسرعا وركب بغلته ، وقال لغلامه : أصحب معك المخلاة واجعل فيها بعض شعير ، فإذا دخلنا دار الخلافة ودخلت فضع بين يدى الدابة شيئاً منه تشتغل به إلى حين خروجى ، فإنها لم تستوف علفها فى هذا الليلة ، قال : سمعا وطاعة .

---

(١) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب ، أبو يوسف : صاحب أبى حنيفة . كان قاضيا ، فقيها، عالما، حافظا ، ت[١٨٢هـ=٧٩٨م]. انظر : الإنتقاء (١٧٢) .

فلما دخل على الرشيد قام له وأجلسه على سريره بجانبه وكان لا يجلس معه غيره ، وقال له : ما طلبناك إلا لأمر مهم ، وهو كذا وكذا وقد عجزنا عن تدبير الحيلة؛ فقال : يا أمير المؤمنين هذا من أسهل مايكون ، ياجعفر بع أمير المؤمنين نصفها وهبه نصفها تبرأ من يمينكما ، فسر بذلك أمير المؤمنين وفعلا ، فقال الرشيد : أحضر الجارية فى هذا الوقت فإنى شديد الشوق إليها فأحضرت فقال للقاضى أبى يوسف : أريد وطأها فى هذا الوقت ولا أطيق الصبر إلى مضى مدة الاستبراء ، فانظر لى الحيلة فى ذلك ، فقال أبو يوسف : إئتونى بمملوك من مماليك أمير المؤمنين الذين لم يجر عليهم العتق ، فأحضر مملوك ، فقال أبو يوسف : يا أمير المؤمنين ائذن لى أن أزوجها منه ثم يطلقها قبل الدخول فيحل وطؤ ها فى الحال من غير استبراء، فأعجب الرشيد ذلك أكثر من الأول ، فقال : أذنت لك ، فأوجب القاضى النكاح ثم قبله المملوك ، فقال له القاضى : طلقها ، فقال له : هذه صارت لى زوجة ، وأنا لا أطلقها فردد عليه القول فأبى وضاق صدر الخليفة لذلك ، وقال : قد اشتد الأمر أعظم مما كان .

فقال القاضى أبو يوسف : يا أمير المؤمنين رغبه بالمال ، فقال : طلقها ولك مائة دينار، قال : لا أفعل ، قال : مائتا دينار ، قال : لاأفعل ، إلى أن عرضوا عليه ألف دينار ، وهو يمتنع ، وقال للقاضى : الطلاق بيدى أم بيد أمير المؤمنين أم بيدك ؟ قال : بل بيدك أنت ، قال : والله لاأفعل أبدا فاشتد غضب أمير المؤمنين ، فقال القاضى : يا أمير المؤمنين لا تحزع فإن الأمر هين أعتق الجارية ، ثم ملك هذا العبد للجارية ، قال : أعتقتها وملكته لها ، فقال لها القاضى : قولى قبلت ، فقالت : قبلت ، فقال القاضى : حكمت بالتفريق بينكما لأنه دخل فى ملكها فانفسخ النكاح ، فقام أمير

المؤمنين على قدميه ، وقال : مثلك من يكون قاضيا فى زمانى ، واستدعى بأطباق الذهب فأفرغت بين يديه ، وقال للقاضى : هل معك شىء توعيه فتذكرمخلاة البغلة، فاستدعى بها فملئت له ذهبا فأخذها وانصرف .

فلما أصبح قال : لخلانه انظروا إلى من تعلم العلم فليتعلمه هكذا ، فإنى أعطيت هذا المال العظيم فى مسألتين أو ثلاث .

فانظر أيها المتأدب إلى لطف هذه الواقعة فإنها اشتملت على محاسن منها دلال الوزير على قلب أمير المؤمنين ، وحلم الخليفة ، وزيادة علم القاضى ؛ فرحم الله أرواحهم أجمعين ، ولكن مسألة الإستبراء لم تتخرج إلا على مذهب أبى حنيفة فخرجها أبو يوسف على قواعد مذهبه لأنه حنفى المذهب ، والله أعلم ، انتهىمن حلبة الكميت .

[٨٣] ومن كلام إبراهيم الموصلى رحمه الله تعالى :

هجرتك حتى قيل لايعرف الهوى ... وزرتك حتى قيل ليس له صبر
فيا هجر ليلى قد بلغت بى المدى ... وزدت على ما ليس يبلغه الهجر
ويا حبها زدنى جوى كل ليلة ... ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
وإنى لتعرونى لذكراك هزة ... كما انتفض العصفور بلله القطر

[٨٤] **ومن الحكايات اللطيفة** : أن بعض الملوك قصد التفرج على المجانين ؛ فلما دخل عليهم رأى فيهم شابا حسن الهيئة نظيف الصورة يرى عليه آثار اللطف ، وتفوح منه شمائل الفطنة فدنا منه ، وسأله مسائل فأجابه عن جميعها بأحسن جواب فتعجب منه عجبا شديدا ، ثم إن المجنون قال : للملك قد سألتنى عن أشياء فأجبتك ، وإنى سائلك سؤالا واحدا ، قال : وماهو ؟ قال : متى يجد النائم لذة النوم ؟ ففكر الملك

ساعة ، ثم قال : يجد لذة النوم حال نومه ، فقال المجنون : حالة النوم ليس له إحساس، فقال الملك: قبل الدخول فى النوم ، فقال المجنون : كيف توجد لذته قبل وجوده ، فقال الملك : بعد النوم ، فقال المجنون : أتوجد لذته وقد انقضى ، فتحير الملك وزاد إعجابه ، وقال لعمرى : إن هذا لايحصل من عقلاء كثير ، فأولى أن يكون نديمى فى مثل هذا اليوم ، وأمر أن ينصب له تخت بإزاء شباك المجنون ، ثم استدعى بالشراب فحضر فتناول الكاس وشرب ، ثم ناول المجنون فقال : أيها الملك أنت شربت هذا لتصير مثلى ، فأنا أشربه لأصير مثل من ؟! فاتعظ الملك بكلامه ورمى القدح من يده ، وتاب من ساعته ، والله أعلم .وهذه الحكاية لها بقية أعرضنا عنها وهذه على سبيل الاختصار أيضا .

[٨٥] **حُكى والله أعلم بغيبه وأحكم** : أن الرشيد أرق ذات ليلة أرقا شديدا ، فاستدعى جعفرا وقال : أريد منك أن تزيل ما بقلبى من الضجر ، فقال الوزير: يا أمير المؤمنين كيف يكون على قلبك ضجر ، وقد خلق الله أشياء كثيرة تزيل الهم عن المهموم والغم عن المغموم وأنت قادر عليها ، فقال الرشيد : وماهى ياجعفر ؟ فقال له : قم بنا الآن حتى نطلع فوق سطح هذا القصر ، ونتفرج على النجوم واشتباكها وارتفاعها ، والقمر وحسن طلعته لأنه وجه من تحب كما قيل :

كأنما حسن السماء وزرقتها ... قد رقمت فيها أفانين الصور

فكأنما البدر حين لاح لنا ... فى بعض ليل من غلاف قد ظهر

فقال الرشيد : ياجعفر ماتلتفت نفسى إلى شىء من ذلك فقال : يا أمير المؤمنين افتح شباك القصر الذى يطلع على البستان ، وتفرج على

حسن تلك الأشجار ، واسمع الناعورة[1] التى كأنها آنين محب فارق محبوبه ، وهى كما قال فيها بعض واصفيها:

وناعورة حنت وغنت وقد غدت تعبر عن حال المشوق وتعرب
ترقص عطف البان تيها لأنها تغنى له طول الزمان ويشرب

وإما أن تنام يا أمير المؤمنين إلى أن يدركنا الصباح ، فقال : ياجعفر ماتلتفت نفسى إلى شيء من ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين افتح الشباك الذى يطلع على الدجلة حتى نتفرج على تلك المراكب والملاحين ، هذا يصفق وهذا ينشد : مواليا ، وهذا يقول : دوبيت وهذا يعمل كيت وكيت، فقال الرشيد : ماتلتفت نفسى إلى شيء من ذلك .

قال جعفر : قم يا أمير المؤمنين حتى ننزل إلى الإصطبل الخاص وننظر إلى الخيل العربيات ونتفرج على حسن ألوانها مابين أدهم كالليل إذا أظلم ، وأشقر ، وأشهب ، وكميت ، وأحمر ، وأبيض ، وأخضر ، وأبلق ، وأصفر، وألوان تحير العقول ؛ فقال الرشيد : ماتلفتت نفسى إلى شيء من ذلك ، فقال جعفر : يا أمير المؤمنين عندك فى قصرك ثلثمائة جارية مابين: جنكية إلى عودية إلى دفية إلى قانونية إلى زامرة إلى مغنية إلى راقصة إلى سنطيرية أحضر الجميع وأحضر العقار المروق فلعل أن يزول مابقلبك من الضجر ، فقال : ماتهم نفسى إلى شيء من ذلك ، فقال جعفر : يا أمير المؤمنين مابقى إلاّ ضرب عنق مملوكك جعفر فإنى قد عجزت عن إزالة هم مولانا ، فقال : ياجعفر أما سمعت قول ابن عمى رسول الله ﷺ فقال: من فم مولانا أحلى، فقال الرشيد قال : رسول الله ﷺ «فرح أمتى

---

(١) الناعورة : آلة لرفع الماء .

فى ثلاث : أن يرى بعينه شيئاً ما رآه ، أو يسمع شيئاً ما سمعه ، أو يطأ مكانا ما وطئه» .فيتفق ياجعفر أن يكون فى بغداد مكان ماوطئناه أوشىء ماسمعناه أو موضع مارأيناه؟ فقال جعفر : أتاذن لى ياأمير المؤمنين أن أطلع إلى مجلس النوبة . وأنظر أحدا من المسافرين أحضره بين يدى أمير المؤمنين لعله أن يحدثك بحديث ما سمعته ، فقال الرشيد : قم وافعل . فقام جعفر وطلع وعاد بسرعة بالشيخ أبى الحسن الخليع الدمشقى المسامر.

قال : فلما رأى أمير المؤمنين سلم وأحسن وترجم فأبلغ ، ثم قال: ياأمير المؤمنين وحامى حوزة الدين وابن عم سيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين أطال الله بقاك ، وجعل الجنة مأواك والنار مثوى لأعدائك لا خمدت لك نار ولا اغتيظ لك جار ، ثم أنشد يقول :

دام لك العز والبقاء ... ما اختلف الصبح والمساء
ودمت مادامت الليالى ... بمدة ما لها انقضاء
الناس ناس بكل أرض ... وأنت من فوقهم سماء

قال : فرد على الشيخ السلام ، وقال له : اجلس يا أبا الحسن ، وحدثنا بحديث عجيب مليح لم نسمعه قط ، فقال الشيخ : ياأمير المؤمنين أحدثك بشىء سمعته بأذنى أو بشىء رأيته بعينى ؟ قال الرشيد : ياشيخ أبو الحسن الذى تراه العين أحسن من الذى تسمعه الأذن .

فقال الشيخ : ياأمير المؤمنين افرغ لى عن ثلاثه أشياء منك؛ فقال: ما الثلاثة ؟فقال : ذهنك ،وسمعك ،وقلبك.فقال الرشيد :هات يا أبا الحسن .

فقال : يا أمير المؤمنين لى عادة أنى أسافر فى كل سنة إلى البصرة للأمير محمد بن سليمان الزينبى ، وأقعد عنده أحدثه الأسمار وأورد له الأخبار وأنشد له الأشعار ولى عليه رسم ألف دينار آخذها وأعود إلى بغداد، فاتفق لى فى سنة من السنين أنى سافرت إلى البصرة على عادتى ودخلت على الأمير محمد بن سليمان وجلست عنده اليوم الأول والثانى والثالث ؛ فركب إلى الصيد وتركنى فى منزله وأوصى أرباب دولته بخدمتى ، وإكرامى إلى أن يعود وأوصى الطباخ الذى له أن لا يطعمنى إلا شيئاً تشتهيه نفسى فاشتهيت السمك ، فقلت للطباخ : تعمل من السمك عدة ألوان فأكلت وطاب لى الأكل حتى ثقل على فؤادى ، فقلت : مايصرف عنى هذا إلا المشى ولى عدة أسفار إلى البصرة ما أعرف فيها مكانا وأريد اليوم أجعلها حجة وفرجة، ثم إنى نزلت أتمشى فى شوارع البصرة فعطشت عطشا شديدا وناهيك بعطش السمك ، فقلت فى نفسى : إن تناولت شربة من السقاء لاتطيب نفسى لأنه يشرب منه أصحاب الأمراض ، وكبرت نفسى على أن أحملها إلى شاطئ الدجلة ، وقلت : مالى إلا أن أقصد بعض دور المحتشمين وأطلب منها شربة من ماء ، فأتيت إلى درب وفى ذلك الدرب خمسة دور داران مقابلتان لداريـن ودار صدرانية قد قامت من التراب وتعلقت بأذيال السحاب ، ولها باب مقنطر مزخرف بمصاطب طولانية مفروش عليها حصر عبدانية والباب ساج مصفح بصفائح الذهب الوهاج ومسامير الفضه ، وستر من الحرير الأصفر المدثر مكتوب عليه هذه الأبيات :

ألاَ يادار لايدخلك حزن ... ولا يغدر بصاحبك الزمان

فنعم الدار أنت لكل ضيف ... إذا ما ضاق بالضيف المكان

قال : فقلت فى نفسى مِنْ هذه الدار أشرب الماء ، فأتيت إلى الباب فسمعت صوتا ضعيفا من فؤاد نحيف وقائلا يقول:

بالله ربكما عوجا على سكنى	وعاتباه لعل العتب يعطفه
وعرضا بى وقولا فى حديثكما	ما بال عبدك بالهجران تتلفه
فإن تبسم قولا فى ملاطفة	ماضر لو بوصال منك تسعفه
وإن بدا لكما فى وجهه غضب	فغالطاه وقولا ليس نعرفه

قال : فقلت ياحبذا إن كان قائل هذا الصوت شخصا صورته على قدر صوته ، واحتشمت ثم إنى قويت قلبى ورفعت الستر ودخلت الدهليز إلى أن انتهيت إلى آخره ومددت طرفى ، وإذا أنا بدار قد أقبلت عليها السعادة وزالت عنها الشقاوة ورأيت فى صدر المكان إيوانا وبركة وشاذروانا ، وفى ذلك الإيون تخت من الساج ، وقوائمه من العاج مصفح بالذهب الوهاج ، وفوق التخت فراش من الحرير الأطلس ومسند مزركش، وعليه جارية نائمة خماسية القد قائمة النهد ، لا بالطويلة الشاهقة ولا بالقصير اللاصقة، أشهر من علم تربيه العجم على أكتاف الخدم ، بخد أسيل وطرف كحيل ، وخصر نحيل ، وردف ثقيل إن أقبلت فتنت ، وإن ولت قتلت ، كما قال فيها بعض واصفيها :

كما اشتهت خلقت حتى إذا اعتدلت	فى قالب الحسن لا طول ولا قصر
جرى بها الشحم حتى دار أعكنها	طى القباطى فلا سمر ولاغور
كأنما أفرغت من ماء لؤلؤة	فى كل جارحة من حسنها قمر

إلاأن الجارية يا أمير المؤمنين قد حكمت عليها يد الأيام ونزلت بها جميع الأسقام وعند رأسها طبيب وهو يحس يدها ، ويقول : ياست بدور

الضارب ضارب، والساكن ساكن ، ولا برد ، ولاحمى ولاشيء تشتكيه من سهر الليل ، وجريان الدمع، لعل الست فى قلبها هوى من أحد ؛ فلما سمعت كلام الطبيب أنشدت تقول :

إذا هممت بكتمان الهوى نطقت ... مدامعى بالذى أخفى من الألم
فإن أبح أفتضح من غير منفعة ... وإن كتمت فدمعى غير منكتم
لكن إلى الله أشكو ما أكابده ... من طول وجد ودمع غير منصرم

قال : فنهض الطبيب قائما على قدميه ، فناولته صرة فيها عشرون دينارا ، ثم التفتت إلى ، وقالت : من أين ياشيخ ؟ فقلت لها : من بغداد حملنى العطش إلى أن أتيت إلى هنا . فقالت : لعل أن يكون على يدك فرجى، فأنا أكتب لك ورقة فتسأل عن بيت الأمير عمرو وتعطيها له فإن رددت علىَّ الجواب ، فأنا أعطى لك خمسمائة دينار ، ثم استدعت بدواة وورق وكتبت وهى تقول : أما بعد ، يعجز لسانى ويكل جنانى عن بث الأشواق ولكن أسأل الكريم الخلاق أن يمن علينا بالتلاق بالسعد الرائق والأمر الموافق وأنا القائلة حيث أقول :

سرورى من الدنيا لقاكم وقربكم ... وحبكم فرض وما منكم بد
ولى شاهد دمعى إذا ما ذكرتكم ... جرى فوق خدى لا يطاق له رد
إذا الريح من نحو الحبيب تنسمت ... وجدت لمسراها على كبدى برد
فوالله ما أحببت ما عشت غيركم ... ولا كنت إلا ماحييت لكم عبد
سلام عليكم ما أمر فراقكم ... فلا كان منكم ما جرى آخرا عهد

أما بعد ، فهذا كتاب ممن ليلها فى نحيب ، ونهارها فى تعذيب ، لاتركن إلى عاذل ولا تصغى إلى قائل ، قد غلبتها أيدى الفراق ، ولو

شرحت بعض ماعندها للفسيح ضاق وما وسعته الأوراق ، ولكن أسأل الكريم الخلاق رافع السبع الطباق أن يمن علينا بالتلاق وأنشدت تقول :

أحبة قلبي وإن جرتمو ... علىَّ فكل المنى أنتمو
رحلتم وفي القلب خلفتم ... لهيبا فهلا ترفقتمو
وأودعتمو يوم ودعتمو ... بأحشاى نارا وأضرمتمو
وما كنتمو تعرفون الجفا ... على شوم بختى تعلمتمو

فألف ألف لا أوحش الله منكم والسلام منى عليكم عدد شوقى إليكم، ما حنَّ الغريبُ إلى الأوطان ، وغرد حمام الأيك[1] على البان ، فرحم الله من قرأ كتابى ، وتعطف برد جوابى وأنشدت تقول :

أحبابنا ما رقَا دمعى لفرقتكم ... يوم الفراق ولا كفت غواديه
بنتم فلم يبق لى من بعدكم جلد ... ولا فؤاد ولا صبر أرجيه
فكم أمن فؤادى بالهوى كذبا ... ولست أول من بانت غواشيه[2]

قال : ثم إنها طوت الكتاب ، وختمته بعد أن نثرت فيه فتات المسك والعنبر وناولتنى إياه ، فأخذته وأتيت إلى دار الأمير عمرو ، فوجدته فى الصيد والقنص ، فجلست على بابه ساعة أنتظره وإذا به أقبل وهو راكب على حصان أشقر من الخيل الضمر[3] يساوى ملك كسرى وقيصر ، من

---

(١) الأيك : الشجر الكثير الملتف .

(٢) بانت غواشيه ، يعنى : ظهر ما فى قلبها من العشق وشدة الشوق .

(٣) الخيل الضمر : هى التى تربط ويكثر لها الماء والعلف حتى تسمن ثم يقلل لها الماء والعلف مدة ويحملونها تركض فى الميدان حتى تهزل ، ومدة التضمير عند العرب أربعون يوماً .

أولاد الأبجر الذى كان لعنتر إن طلب لحق وإن طلب لم يلحق ، والأمير على ظهره كأنه البدر فى منزلته ، والمماليك قد أحدقوا به كما تحدق النجوم بالقمر ، وهو بخد أسيل ، وطرف كحيل ، وخصر نحيل ، وردف ثقيل ، وله عذار[1] أخضر فوق خد أحمر ، وثغر جوهر ، وعنق مرمر كما قال فيه ابن معشر :

قمر تكامل فى نهاية حسنه ... مثل القضيب على رشاقة قده
فالبدر يطلع من ضياء جبينه ... والشمس تغرب فى شقائق خده
ملك الجمال بأسره فكأنما ... حسن البرية كلها من عنده

قال أبو الحسن : فما أمهلته دون أن قبلت ركابه ؛ فلما انظر إلىَّ ترجل ، واعتنقنى وأخذ بيدى وأدخلنى الدار وأنشد يقول :

ما أظن الزمان يأتى بهذا ... غير أنى رأيته فى منامى

قال : فلما جلس على حافة البركة أقبل علىَّ يحدثنى ساعة ، وإذا بالمائدة قد وضعت بين أيدينا وإذا عليها من ألوان الطعام مادرج وتطاير فى الأسحار ، وتناكح فى الأوكار من : قطا ،وسمان ، وأفراخ حمام ، وبط مسمن ، ودجاج محمر ، وأفراخ رضع ، وبعلبكات السكر ، فقال : لى بسم الله ياشيخ أبو الحسن ، فقلت : لا والله يا مولاى ما أكلت لك طعاما ولا شربت لك مداما إلا أن قضيت لى حاجتى ، فقال : يا أبا الحسن كان هذا من الأول أين الكتاب الذى للست بدور ، فقلت : ياسيدى وماهى الست بدور ؟ فقال : التى جئت من عندها تطلب شربة من الماء منها ،

---

(١) عذار : الشعر الذى يحاذى الأذن .

ووجدت عندها الطبيب وحرى لـك معهـا مـاهو كيـت وكيـت ، فقلـت : يامولاى أكنت حاضراً فقال : لوكنت حاضراً فلأى شيء كتبت الكتـاب ، فقلت : هل جاء أحد من عندها وأعلمك ، فقال : إنـه لا يجسر أحـد مـن غلمانها يقابلنى ، فقلت : ولا راح أحد من عندك إليها ، فقال : هى أخس وأحقر من أن يمضى إليها أحد مـن عنـدى ، فقلـت : يـا سـيدى الغيـب لا يعلمه إلا الله تعالى والوحى مانزل إلا على رسول الله ﷺ ، فقال : ياعاقل أما سمعت قول القائل :

قلـوب العاشـقين لهـا عيـون ... تـرى مـا لا يـراه الناظرونـا
وأجنحـة تطـير بغـير ريش ... إلى ملكـوت رب العالمينـا

فقلت : صدقت يامولاى ، ثم ناولته الكتـاب ففضـه وقـرأه ثـم بصـق وداسه برجله ورماه فى البركة فصعب علىَّ ؛ فلما علم منى ذلك قال : مـم غيظك أقعد الليلة عنـدى كـل واشـرب وخـذ منى الخمسـمائة دينـار التى وعدتك بها الست بدور ، وأنا أحب إليك منها ، وأنشد يقول :

رأيـت شـاة وذئبـا وهـى ماسـكة ... بأذنـه وهـو منقـاد لهـا سـارى
فقلـت أعجوبـة ثـم إلتفـت أرى ... مـابين نابيـه ملقـى نصـف دينـار
فقلـت للشـاة مـاذا الإلـف بينكمـا ... والذئـب يسـطو بأنيـاب وأظفـار
تبسمت ثم قـالت وهى ضاحكـة ... بالتبر يكسر ذاك الضيغم الضارى[1]

قال : فلما سمعت كلامه يا أمير المؤمنين ، تقدمت وأكلت بحسـب الكفاية والنهاية ، ثم انتقلنا إلى مجلس الشراب وقدمت بين أيدينـا البواطى

---

(١) الضَّيْغَم : الذى يعض ويفترس بأسنانه ، وجمعها ضياغم.

والسلاحيات ، فتناول الأمير عمرو وشرب وسقاني وأنا أحدثه وأنادمه إلى أن قرب الغروب ، فقال : يا أبا الحسن ما لذة الأمير إذا شرب إلى المساء من غير غناء ، فقلت : يقال الشراب بلا طرب ولاسماع الدن[1] أولى به .

فقال لى : قم بسم الله فقمت معه إلى مجلس وحضيرة[2] تنقط بالذهب واللازورد العجيب وهى مزخرفة ، قد عبقت أزهارها ، وضحكت سلاحيتها ، وصفت بواطيها ، ورفعت أقداحها ، فجلس الأمير عمرو وأجلسنى بجانبه وقدمت بين أيدينا الشموع وأسرجت القناديل ، فنظرت إلى مجلس عجيب وحظيرة مليحة ، ثم قلت : يامولاى قد تقدم القول : إن الشراب بلا سماع الدن أولى به ؛ فصفق بكف على كف ، وإذا بثلاث جوار قد أقبلن كأنهن الأقمار ، الواحدة : تحمل عودا ، والثانية : تحمل دفا ، والثالثة : تحمل مزمارا ، ثم نقرت الدفية على دفها، وأصلحت العودية عودها ، وزمرت الزامرة بمزمارها فخيل لى أن المجلس الذى نحن فيه يرقص بنا ، ثم إن الدفية غنت تقول :

أحبابنا إننى من يوم فرقتكم ... على فراش الضنى مازلت مضطجعا
داويت قلبى بحسن الصبر بعدكم ... عسى يفيق من الأسقام مانفعا

فوالله ياأمير المؤمنين لقد طربت غاية الطرب من حسن صوتها ، فلما فرغت الدفية ، ضربت العودية على عودها طرقا عديدة ، ثم رجعت إلى الطريقة الأولى وأنشدت تقول :

---

(١) الدن : الذباب .

(٢) حضيرة : جماعة القوم . قيل هى فى الأصل تطلق على الذين يحضرون المياه أى ينزلون عليها فيقيمون بها ولايرحلون عنها .

أمؤنس طرفى لا خلا منك ناظرى ... وجامع شملى لا خلا منك مجلسى
ويا ساكنا قلبى ومافيه غيره ... يحل فما استوحشت فيه لمؤنسى
وبالله يا عين الورى من ملاحة ... تصدق على صب من الصبر مفلس
أنلنى الرضا أغيظ به العدا ... ويا موحشى من بعد ماكان مؤنسى
رضاك الذى إن نلته نلت رفعة ... وألبسنى فى الناس أشرف ملبس

قال : والله ياأمير المؤمنين لم نتمالك عقولنا من الطرب ثم التفتت العودية نحو الدفية ، وقالت لها : يافلانة أتحسنى أن تقولى مثل هذا ؟ فقالت الدفية : أنا أحفظ أبياتا ما أظن أنك تحفظين لهن وزنا ولا قافية ولا عروضا ، فقالت العودية : هات ماعندك ، فنقرت الدفية على دفها بأناملها ورفعت صوتها وهى تقول :

كرر وردد ذكرهم فى مسمعى ... فهم الشفا لتألمى وتوجعى
أقصر بعذلك ياعذول فإن لى ... قلبا لعذلك لايفيق ولايعى

فقالت لها العودية : أنا أحفظ الوزن والقافية والعروض ، فقالت لها الدفية : هات فضربت العود طريقة من اثنين واثنين ، وأربعة وأربعة ، وثمانية وثمانية ، وستة عشر وستة عشر ، ثم عادت إلى الطريقة الأولى وجعلت تقول :

إن لم أسل وادى الأسيل بأدمعى ... اعلم بأنى فى الصبابة مدعى
يا سعدان حثت الغوير وعاينت ... عيناك بأن المنحنى فلترجع
وخذ الحذار من الغزال المختفى ... واحذر بصيدك لحظ ذات البرقع

قال : والله يا أمير المؤمنين فلقد طربنا حتى قام بعضنا ورقص ، فلما فرغت الجارية قال لها سيدها ، غنى لى عن الذى بقلبى وحدى ، فعندها ساوت عودها وقالت :

ما كنت أول راسق صبا صبا ... نحو التصابى وهو فى عشر الصبا
فعلام يعذلنى العذول على البكا ... لولا الغرام لها غدوت معذبا
حكم الهوى بحكمه فى مهجتى ... ولقد غذا قلبى به متقلبا
يا للرجال خبا الهوى بحشاشتى ... نارا فما تخبو على ذاك الخبا
ولقد سبى قلبى غزال لو رأت ... بلقيس طلعته لما سكنت سبا
ولقد هربت من الغرام فقال لى ... مهلا رويدا أين منى تهربا

فلما سمع الأمير عمرو ذلك صرخ ووقع على الأرض مغشيا عليه فقالت الجارية : يامولاى إنه قد نام سيدى ، فإن اخترت أن تنام فقم نم فى مرقدك ، وإن اخترت الشراب فدونك ونحن بين يديك إلى الصباح ، فقمت ونمت .

فلما أصبحت قمت وسألت عن الأمير عمرو ، فقالت بعض الجوارى: إنه قد سرح إلى الصيد والقنص ، فأخذت شاشا لألبسه فرأيت تحته كيسا فيه ألف دينار فأخذته وأتيت إلى الست بدورو إذا بها واقفة خلف الباب تنتظر وهى تقول :

يا رسولى إلى الحبيب اعتذر لى ... فلعل الحبيب يقبل عذرى
ثم قل للحبيب عنى بلطف ... أى ذنب جرى فأوجب هجرى

فلما رأتنى قالت : ياشيخ أقمح أم شعير ؟ فقلت : لا والله ماهو إلا زوان والله مارضى يقرأ مكتوبا ، ولا يرد جوابك ، فرمت إلىّ صرة فيها مائة دينار ، وقالت : اذهب يا أبا الحسن مامضى الليل وأتى النهار على شىء إلا وأزاله وغيره ، ويغير الله ما فى القلوب ، ثم إنها أغلقت الباب فى

وجهى ، ومضتِ وعدت إلى دار الأمير محمد بن سليمان الزينبى فلقيته قد جاء من الصيد فقعدت عنده أياما ، وأخذت رسمى وعدت إلى بغداد .

ثم إنى فى السنة الثانية سافرت إلى البصرة على ماجرت العادة به ، ومضيت إلى الأمير عمرو بن جبير الشيبانى ، لأتمتع بذلك الوجه المليح والقد الرجيح فوجدت الدار متغيرة الآثار والعبيد لابسين السواد ؛ فلما رأيت ذلك بكيت وأنشدت أقول :

يا دار أين ترحل السكان ... وسرت بهم من بعدها الأظعان
بالأمس كان بك الضياء مع الهنا ... واليوم فى عرصاتك الغربان

فسمعنى بعض الغلمان ، فظهر لى وقال : من ذا الذى يبكى على ديارنا ، ويندب منازلنا كفى بنا ماعندنا ، فقلت له : ياعبد الخير إن صاحب هذه الدار كان من أصدق الناس إلىَّ ، فما فعل به الزمان ؟ فقال لى الغلام : يامولاى هو فى قيد الحياة ، وهو يطلب الموت فلا يجده ، فقلت له : بالله عليك خذ لى الطريق ، فقال لى الغلام : يامولاى من أقول؟ فقلت : قل الشيخ أبو الحسن الخليع الدمشقى المسامر، قال : فعبر الغلام وغاب ساعة وعاد وقال لى : بسم الله ادخل فدخلت فوجدت الأمير عمراً نائما وعند رأسه طبيب وهو يحس يده ، ويقول له : يا مولاى الضارب ضارب ، والساكن ساكن ، ولابرد ولا حمى ولا تشتكى غير سهر الليل وجريان الدمع لا يكون المولى إلا مسحورا ، فلما سمع الأمير عمرو كلام الطبيب بكى وأنشد يقول :

قال الطبيب لقومى حين جس يدى ... هذا فتاكم ورب البيت مسحور

فقلت ويحك قد قاربت فى صفتى عين الصواب فهلا قلت مهجور

ثم إنه ناوله كاغداً[1] فيه بعض دنانير ، فأخذها الطبيب وانصرف ، ثم إلتفت الأمير عمرو إلىّ ، وقال : ياشيخ أبو الحسن أما تنظر إلى هذا الحال الذى وقعت فيه ، فقلت له : حاشاك من الأسواء ماسبب ذلك ؟ قال : ما أعرف له سببا إلا أن هجر الست بدور قد قتلنى ، وحبها أضنى فؤادى ، فقلت : يا مولاى بالعام الماضى تركتك أميرا واليوم أتيت لقيتك أسيرا ، فما السبب ؟ فقال الأمير عمرو : ياشيخ إنى فى ليلة من الليالى ركبت فى الشط وقد شحنت مركبى من سائر الأزهار ، والفواكه ، والرياحين ، والطعام ، والمدام ، وأوقدت الشموع حتى صارت مثل ضوء النهار وقد غرقنا فى البسط وبقينا فى لعب وضحك إلى ثلث الليل الأول وإذا قد أقبل من صدر الشط مركب وهى تغرب بالطارات والدفوف وتضىء كضوء الشمس ، وفيها وهج عظيم فقلت : للملاح قدم بنا حتى نتفرج وننظر أينا أحسن تعبئة مركبنا أو هذه المركب ؟ فمددت عينى فرأيت صاحبتى الست بدور وهى بين جواريها وغلمانها تلعب وتضحك وهى مثل اسمها اسم على مسمى ؛ فلما وقعت عينى كأنما رمت فى قلبى جمرة نار فقلت فى نفسى : مافارقت هذا الوجه المليح بذنب ثم إنى تذكرت العهد القديم الذى كان بيننا فلم أقدر صبرا فمددت يدى وأخذت تفاحة ورميتها إلى الست بدور ، فالتفتت فرأتنى فقالت : للملاح ارجع بنا إلى البر نحن خرجنا هذه الليلة تنشرح ، فأرسل الله لنا هذا الفتى ينغص علينا عيشنا ؛

---

(١) كاغِد : القرطاس يوضع فيه الدنانير .

فلما سمعتها تشتمنى أضرمت[1] النار فى قلبى ، ثم قلت : لنفسى أنت المطلوب فصرت الطالب فلم يهنأ لى عيش فى هذه الليلة ، وقلت : للملاح ارجع إلى الشط ، ثم إنى نزلت ومضيت إلى منزلى وما ذقت طعم المنام .

فلما أصبحت لم يقر لى قرار وصرت أترقب أن يأتى أحد من عندها ثلاثه أيام ، فلم يأت أحد فبعثت من يعرض بذكرى لها فدعت عليهم وشتمتهم ، فكتبت لها بعد ذلك ألف كتاب ، فلم ترد لى جوابا وقد رميت روحى على كل كبير فى البصرة فيدخلون عليها ، فلم تقبل ولم تزدد إلا جفاء ولى مدة أنتظرك ياشيخ أبو الحسن ، حتى أبعث معك كتابا وأنا أحلف لك إن هى ردت لك جوابه أعطيتك ألف دينار ، وإن لم ترد جوابه أعطيتك مائة دينار ، فقلت له : اكتب فدعا بدواة وقرطاس ، وكتب فى أول الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من متيم يشكو إليك الصبابة ، ويسألك بالله أن تردى جوابه ، أما بعد ؛ فإنه يعجز لسانى ويكل جنانى مما أنا فيه من طول السهر ودوام الفكر ، وبكى لبكائى صم الحجر فألف ألف لا أوحش الله منك والسلام عليك . ثم ختم الكتاب ، وناولنى إياه ، فأخذته وأتيت به إلى دار الست بدور ، فلقيت الباب على غير تلك الحالة الأولى عليه ستر مرخى وبواب وخادم .

فقلت : لا إله إلا الله ، كان هذا الباب بالأمس خاليا من الأصحاب واليوم عليه خادم وبواب ، ثم إنى تقدمت إلى الخادم وقلت له : قم يا ولدى ادخل واستأذن على مولاتك الست بدور وقل لها : الشيخ أبو

---

(١) أضرمت النار : اشتعلت .

الحسن الخليع الدمشقى قد أتى ويطلب التمثل بين يديك فغاب الخادم ثم عاد مسرعا ، وقال : بسم الله ادخل فدخلت الدهليز فسمعت بدور هى تقول:

ولأصبرن على الزمان وجوره حتى يعود كما أريد وأشتهى

قال : فلما دخلت رأيتها قاعدة على حافة البركة وبين يديها جارية تروح عليها فتقدمت ، وقبلت يدها وجلست فنظرت ، وإذا عليها غلالة لازوردية[1] وجميع جسدها بائن من تحت الغلة ، كأنه عمود مرمر ، وعلى الغلالة مكتوبة هذة الأبيات :

أقبلت فى غلالة زرقاء لا زوردية كلون السماء
فتأملت فى الغلالة ألقى قمر الصيف فى ليالى الشتاء
ليتنى كنت للمليحة عقدا أو برقعا للوجه مثل الرداء
أو قميصا من الحرير خفيفا لاصقا للفؤاد والأحشاء
ضربتنى بخنجر العشق حتى صرت ملقى مختضبا بدمائى
تركتنى على الطريق ونادت من يصلى على قتيل هوائى

ثم إنى لما فرغت من قراءة الأشعار ، قالت لجاريتها : هات لى بدلة قماش ثم غيرت ماكان عليها وجلست ، ثم أمرت بإحضار المائدة ، وقالت: بسم الله كل يا أبا الحسن فقلت : لا والله لا أكلت لك طعاما ولا شربت عندك مداما حتى تقضى حاجتى ، فقالت : كان هذا من الأول ، لكن والله قد وقعت من عيننا برواحك إلى الأمير عمرو قبل مجيئك إلينا .

---

(١) غلالة لازوردية : شعار رقيق يلبس تحت الثوب .

فقلت لها : أنا ما رحت ، فقالت : تكون شيخا وتكذب ! أنت ما عبرت عنده ولقيت الطبيب وهو يقول له : كيت وكيت وجرى لك معه كذا وكذا وهذا الكتاب فى طى عمامتك ، وبالأمارة قال لك إن رددت الجواب أعطيتك ألف دينار ، وإن لم ترد لى الجواب أعطتك مائة دينار ، فقلت : ياستى من أعلمك بهذا ، فقلت : أليس القائل يقول :

قلوب العاشقين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرونا

وأنا يا شيخ أبو الحسن أعشق منه وأرى أكثر مما يراه ، فقلت : صدقت يامولاتى كان ذلك ، ثم ناولتها الكتاب ففضته وقرأته ثم إنها مزقته وبصقت عليه وداسته ورمته فى البركة ، فلما رأيت ذلك ، قلت فى نفسى: هذا بذاك وقرض الدين لابد له من وفاء إلا أنه حصل لى بعض غيظ على الألف دينار التى تفوتنى ، فنظرت إلى وعرفت منى ذلك فقالت : ياشيخ أبو الحسن مم غيظك إن كان وعدك بألف دينار فبت الليلة عندى ، وكل، واشرب ، والتذ ، واطرب ، وخذ لك غدا منى ألف دينار ، وامض فى وداعة الله .

فقلت : ياسيدتى يكاد الأمير عمرو أن يموت، فقالت : دعنا من هذا الكلام .ثم إن المائدة حضرت فأكلنا بحسب الكفاية ، فلما فرغنا ، قالت: ياشيخ أتعرف لعب الشطرنج ، قلت : ما ألعب إلا على الحكم والرضا. فقالت : نعم ، ثم دعت بالشطرنج فوضع بين أيدينا ولعبت معها الدست[1] الأول فغلبتنى ، فأمرت الجوارى أن يرمونى فى البركة ، فمسكونى ورمونى فى البركة وضحكت علىّ ساعة ثم أخرجونى وقد

---

(١) الدَّسْتُ : الجولة من لعب الشطرنج .

ابتلت جميع حوائجى ؛ فلما رأتنى على تلك الحالة أمرت ببدلة من القماش من أفخر الملبوس فلبستها ، فقالت : أتلعب أيضا على الحكم والرضا ؟ قلت: نعم فلعبنا فتغايرت عليها وأتيت لها بحكاية لطيفة مضحكة وأشغلتها، وسرقت القطع إلى أن غلبتها ، وتحكمت فيها وقلت :أريد الألف دينار وجواب الكتاب ، فأعطتنى الألف دينار وطلبت الدواة والقرطاس ، ثم إنها أطرقت ساعة ورفعت رأسها كتبت تقول :

ألا يا عمرو كم هذا العناء ... وكم هذا التجلد والإذاء
كتبت إلىّ تشكو ما لا تلاقى ... من الأسقام إذ نزل القضاء
فسقم لايزال بطول دهر ... وداء ما له أبدا دواء
ولو ساعدتنا ياعمرو يوما ... لساعدناك إذ نزل البلاء
فعش صبا ومت كمدا حزينا ... فواحدة بواحدة جزاء

فلما فرغت ، ناولتنى الورقة قرأتها فقلت : ياستى بالله عليك لا تفعلى وارحمى الأمير عمراً أو اكتبى له غير هذا ، فقالت : ياشيخ أبو الحسن أنت رسول وإلا فضولى ؟ فقلت لها: رسول ، وفضولى ، وطفيلى، ويعظ القطط ، ويحلف أنه ما يبيت إلافى الوسط ، ويغنى بليت بكم .

قال : فضحكت من كلامى ، وقالت: حكمتك فى نفسى ، فقلت : يا ستى بدور أين تلك المحبة التى كنت تحبينها للأمير عمرو ، فلو أبصرتيه ما عرفتيه من شدة ما يقاسى من الأسقام ، والألآم والأمراض ؛ فلما سمعت ذلك قالت : أخبرنى عن أقوى شىء به من المرض فقلت : ياسيدتى ما أقدر أصف لك بعض ما فيه من ألم المرض فتغرغت عيناها بالدموع ، ثم قالت : يعز على ماوصفت لى عنه وروحى لرورحه الفداء ، فالحمد لله

الذى جعل اجتماعنا على يديك .ثم دعت بدرج غير تلك الورقة وكتبت فى أول الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم إنها ابتدأت وتقول :

وصل الكتاب فلا عدمت أناملا ... عنيت به حتى تضوع طيبا[1]
ففضضته وقرأته فوجدته ... لخفى أوجاع القلوب طبيبا
فكأن موسى قد أعيد لأمه ... أو ثوب يوسف قد أتى يعقوبا

المملوكة تقبل الأرض ، وتنهى أن شوقها شديد وغرامها ما عليه من مزيد ومأمولها من الحميد المجيد أن يجمع شملها بك قبل أن تريد وأقول:

أشتاقكم حتى إذا نهض الهوى ... لمقامكم قعدت بى الأيام
والله إنى لو وصفت صبابتى ... فنى المداد وقلت الأقلام

ثم إنها نثرت فيها فتات المسك والطيب ، وطوتها وحققتها ، وناولتنى إياها فأخذتها وقمت مسرعا وأنا فرحان إلى أن أتيت دار الأمير عمرو ودخلت الدهليز فسمعته يقول :

ترى حرمت كتب المحبة بيننا ... أسحر أم القرطاس أصبح غاليا

فاستأذنت عليه ودخلت ، فلما رآنى قال لى : أقمح أم شعير ، فقلت له : قمح مغربل ليس فيه كدر ، ثم ناولته الكتاب ففضه وقرأه ؛ فلما فهم معناه تهلل وجهه بالفرح فبكى وقال :

هجم السرور علىَّ حتى أنه ... من عظم ماقد سرنى أبكانى
يا عين قد صار البكا لك عادة ... تبكين فى فرح وفى أحزان

---

(١) تضوع طيبا : انتشرت منه رائحة الطيب .

فلما فرغ من البكاء قال لى : يا شيخ ما أظن الحديد يلين ولا الصخر يذوب لعل أن تكون صنعت هذا الكتاب من عندك ، فقلت : يا مولاى والله ما صنعته ولا كتبته بل هو خطها بيدها فبينما هو يخاطبنى إذا هى عبرت علينا وهى تخطر فى قوامها وهى تنشد وتقول :

نزوركم لا نأخذكم بحفوتكم إن الكريم إذا لم يستزر زارا

فلما رآها الأمير عمرو نهض قائما على قدمية ورمى بروحه عليها واعتنقها واعتنقته ساعة زمانية ، فقمت على أن أخلى لهما المكان ، فقالت الست بدور : إلى أين تروح يا شيخ ، قلت : أخلى لكما المكان ، لأنكما ما اجتمعتما من مدة سنة كاملة ، فقالت : لا تفارقنى من الساعة إلى الصباح فقام الأمير عمرو وأخذنا ومضى بنا إلى مجلس مليح وقدم لنا الطعام المفتخر، وأمر بإزالة كل شيء كان عليه من آلة الحزن وجيء له بالماء فغسل يديه وغلسنا أيدينا وانتقلنا إلى مجلس الشراب وبتنا فى لذة ورأيت الماوية تدب فى وجه الأمير عمرو[1] ، فلما أصبحت قال : ياشيخ أبا الحسن امض وأتنا بالقاضى والشهود ، فلم يكن بأسرع مما أحضرتهم ، فقالت الست بدور للقاضى : اكتب كتابى على الأمير عمرو ، وقد وليت الشيخ أبا الحسن عقد النكاح، فخطب القاضى خطبة النكاح وعقد العقد بينهما ، فرسم الأمير عمرو للقاضى بألف دينار وللشهود بمائتى دينار ، وعمل الوليمة ، وطبخ الطعام وعمل الحلاوات وجمع الناس ، ووضع بين أيديهم الموائد وأطعم الشارد والوارد ، وزفت الست بدور تلك الليلة على الأمير عمرو .

---

(١) رأيت الماوية تدب فى وجه الأمير : كأن الدم جرى فى عروق وجهه .

فلما وقفوا على المنصة ، قلت : ما تصلح إلا لـة ولايصلـح إلا لهـا ، ولو رآها غيره لزلزلت الأرض زلزالها ، ثم تقدمت إلى الأمير عمـرو وقلـت له : يا مولاى ، المثل يقول : العصفور يتفلى والصياد يتقلى وأنتـم تقولـون وا طرباه، وأنا أقول وا حزناه ، فقالت الست بدور : مامعنى كلامك هذا ؟ قلت : ياسيدتى الأمـير عمـرو وعدنـى بوعـد والوعـد على الكرمـاء ديـن ، فقالت الست بدور : صدق الشيخ أعطه الذى وعدته به ، فقال الأمير عمرو لبعض غلمانه أعط الشيخ أبا الحسن ألفا وخمسمائة دينار ، ويستحق والله أكثر من ذلك ، فمضى الغلام وعاد بسرعة ومعه كيس وناولنى إياه ، واعطتنى الست بدور مثله ، ثم إنـى ودعتهـم وخرجـت إلـى أن أتيـت إلـى الأمير محمد بن سليمان الزينبى ، وقعدت عنده على عادتى ، وأخذت رسمى الذى لى عليه فى كل سنة ، وعدت إلى بغداد ، فما رأيت سنة أبرك على منها حصل لى فيها أربعة آلاف دينار ، وهذا جملة الحديث .

فتعجب الخليفة ، وقال : ماقصرت ياشيخ أبو الحسن خذ مـن جعفـر ألف دينار، لأنك أنت الذى أزلت عنى ما بقلبى ، فقال جعفر : ومـن عنـد أمير المؤمنين ألف دينار لأنه هو الذى أزال عنـه ماكـان يجـده ، فقـال أبـو الحسن : صدق الوزير أبقاه الله تعالى ، ثم أنه قبـض الألفـى دينـار ومضـى إلى منزله والله أعلم .

[٨٦] **قال : أبو القاسم عبد الملك بن بدرون فـى شـرحه لقصيـدة عبد المجيد بن عبدون**[1] : جعفر البرمكى هو : جعفر بن يحيى بن خـالد

---

(١) أبو القاسم عبد الملك بن بدرون : أديب أندلسى من أهل شلب . اشتهر بكتابه شرح قصيدة ابن عبدون ، سماه "كمامة الزهر وفريدة الدهر" ، ت[٦٠٨هـ=١٢١١م] =.

بن برمك. والبرمك[1] هو الذى يعمر بيت النور ، وهو بيت النار ، وكان برمك من مجوس بلخ ، وكان عظيم القدر فيهم وولده خالد ، فلما كبر صار وزيراً لأبى السفاح بعد أبى سلمة الخلال[2] ، وقتل هارون الرشيد ، جعفرا سنة سبع وثمانين ومائة ، وكان قد بلغ من الرشيد ما لا يبلغه وزير من خليفة قبله، حتى كان يجلس معه فى حلة واحدة قد اتخذ لها جيبان ، على ماذكره المخبرون ، حتى بلغ عنده أن يحكم عليه فيما شاء من أمر ماله وولده[3] .

[٨٧] **فمن ذلك ، ماحكاه ابن النهدى** ، [عن] عم الرشيد وهو : إبراهيم المعروف بابن شكلة[4] ، وكانت شكلة أمة سوداء ، وقد ذكر أن إبراهيم كان أسود شديد السواد، وكان من الطبقة العليا فى صنعة العود .

انظر : هدية العارفين (٦٢٧/١) . وصاحب القصيدة المشروحة هو : عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون ، الفهرى اليابرتى ، ذو الوزارتين : أديب الأندلس فى عصره، من وزراء بنى الأفطس . كان عالما بالتاريخ والحديث ، والقصيدة فى رثاء بنى الأفطس ، ت[٥٢٩هـ=١١٣٥م] . انظر : كشف الظنون ص١١١٩ .

(١) انظر : دائرة المعارف الإسلامية (٤٩٢/٣) .

(٢) أبو سلمة الخلال : وزير السفاح ، وقائد عباسى . اغتيل بسبب ميله إلى البرامكة ت[١٣٢هـ=٧٥٠م] .

(٣) تقدمت ترجمة جعفر فقرة ٥٨ .

(٤) إبراهيم بن محمد المهدى ابن عبد الله المنصور العباسى ، ابن شكلة : أخو هارون الرشيد ، ولد ونشأ فى بغداد وولاه الرشيد إمرة دمشق ، ثم عزله عنها بعد سنتين ثم أعاده إليها . ولما انتهت الخلافة إلى المأمون كان إبراهيم قد اتخذ فرصة اختلاف الأمين والمأمون للدعوة إلى نفسه وبايعه كثيرون ببغداد ، فطلبه المأمون ، فاستتر ، =

قال : قال لى جعفر يوما : يا إبراهيم إذا كان غدا فبكر لى ؛ فلما كان الغد مشيت إليه بكرة ، فجلسنا نتحدث ؛ فلما ارتفع النهار أحضر حجاما فحجمنا ، ثم قدم لنا الطعام فطعمنا ، ثم خلع إلينا ثياب المنادمة ؛ وقال جعفر لخادمة : لايدخل علينا أحد إلا عبد القهرمانى ، فنسى الحاجب ما قال له، فجاء عبد الملك بن صالح الهاشمى[1] ، وكان رجلا من بنى هاشم ذا ملاحة وعلم وحلم، وجلالة قدر ، وفخامة ذكر ، وصيانة وديانة ، فظن الحاجب أنه الذى أمره بإدخاله عليهما .

فلما رآه جعفر تغير لونه ، فقال له عبد الملك بن صالح لما رآهم على تلك الحالة وظهر له أنهم احتشموه أراد أن يرفع خجله وخجلهم بمشاركته لهم فى فعلهم فقال : اصنعوا بنا ماصنعتم بأنفسكم ، فجاء الخادم فطرح عليه ثياب المنادمة ، ثم جلس للشراب ؛ فلما بلغ ثلاثا ، قال للساقى : لتخفف عنى ، فإنى ماشربته قط ، فتهلل وجه جعفر ، فقال له : هل من حاجة تبلغها مقدرتى وتحيط بها نعمتى فأقضيها لك مكافأة لما صنعت ؟ قال: بلى، إن أمير المؤمنين علىٌّ غاضب فسله الرضا عنى . قال :

فأهدر دمه فجاءه مستسلما ، فسجنه ستة أشهر ، ثم طلبه إليه وعاتبه على عمله ، فاعتذر فعفى عنه . وأمه جارية سوداء اسمها شكلة ، نسبه إليها خصومه . ت [٢٤٤هـ = ٨٣٩م].

(١) عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس الهاشمى : أمير من بنى العباس ، كان فصيحا ، خطيبا له مهابة ، ولاه الهادى إمرة الموصل [١٦٩هـ] وقام الرشيد بعزله [١٧١هـ] ثم ولاه المدينة ودمشق وأقام فيها أقل من سنة ، وبلغ الرشيد أنه يريد الخلافة فحبسه ببغداد وتُوفى فيها [١٨٧هـ] .

قد رضى عنك أمير المؤمنين . قال : علىَّ أربعة آلاف دينار ، قال : هى لك حاضرة من مال أمير المؤمنين .قال : وابنى إبراهيم أريد أن أشد ظهره بصهر من أمير المؤمنين قال: قد زوجه أمير المؤمنين بابنته عائشة . قال : وأحب أن تخفق الألوية على رأسه ، قال : نعم قد ولاه أمير المؤمنين مصر، قال إبراهيم بن المهدى : فانصرف عبد الملك بن صالح ، وأنا أتعجب من إقدام جعفر على قضاء الحوائج من غير استئذان .

فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر ، فلم نلبث أن دعا بأبى يوسف القاضى، ومحمد بن واسع ، وإبراهيم بن عبد الملك فعقد له النكاح ، وحملت البدر إلى منزل عبد الملك ، وكتب سجل إبراهيم على مصر . وخرج جعفر فأشار إلىَّ ؛ فلما سار إلى منزله ، ونزلت بنزوله، التفت إلىَّ وقال : لعل قلبك معلق بأمر عبد الملك بن صالح ، فأحببت معرفة خبره ؟ قلت : نعم . قال : إنى لما دخلت على أمير المؤمنين وتمثلت بين يديه وابتدأت القصة من أولها إلى آخرها ، كما كانت قال الرشيد : أحسن والله، ثم قال : ماصنعت ؟ فأخبرته عما سأل ، وبما أجبته فى ذلك ، فقال : أحسنت ، وخرج إبراهيم واليا على مصر فى يومه، والله تعالى أعلم[1] .

[٨٨] **قال إبراهيم بن إسحاق** : كنت منقطعا إلى البرامكة فبينما أنا ذات يوم بمنزلى ، وإذا ببابى يدق فخرج غلامى وعاد ، وقال لى : على الباب فتى جميل يستأذن فأذنت له ، فدخل شاب عليه أثر السقم ، فقال

---

(١) انظر : ثمرات الأوراق ص ٦٥ .

لى: مدة أحاول لقاءك ، ولى إليك حاجة . فقلت : وماهى ؟ فأخرج ثلثمائة دينار فوضعها بين يدى وقال : أسألك أن تقبلها منى وتصنع لى لحنا فى بيتين قلتهما ، فقلت أنشد نيهما فقال :

بالله يا طرفى الحانى على كبدى لتطفئن بدمعى لوعة الحزن
لا لا أبوحن حتى تنزلى سكنى فلا أراه ولو أدرجت فى كفنى

قال : فصنعت لهما لحنا يشبه النوح ، ثم غنيته فأغمى عليه حتى أنى ظننت أنه مات ، ثم أفاق وقال : أعده فناشدته الله ، وقلت : أخشى أن تموت ، فقال : ليت ذلك ومازال يخضع ويتضرع حتى رحمته وأعدته ، فصعق صعقة أشد من الأولى ، فلم أشك فى موته ومازالت أنضح عليه من ماء الورد ، حتى أفاق ، ثم جلس فحمدت الله على السلامة ووضعت دنانيره بين يديه ، وقلت : خذ مالك وانصرف عنى ، فقال : لاحاجة لى بها ولك مثلها إن أعدته فشرهت نفسى ، فقلت : أعيده ولكن بثلاثة شروط أولها : تقيم عندى تأكل من طعامى حتى تتقوى نفسك ، الثانى : أن تشرب من الشراب ما يمسك قلبك ، الثالث : أن تحدثنى بحديثك ففعل ذلك، ثم قال : إنى رجل من أهل المدينة خرجت متنزها وقد سال المطر فى العقيق مع إخوانى ، فرأيت فتاة مع فيتات كأنها غصن حلله الندى تنظر بعينين ما ارتد طرفهما إلا بنفس ملاحظهما فأظللن حتى فرغ النهار ، فانصرفن وقد رمت بقلبى جراحا بطيئة الإندمال ، فعدت أتنسم أخبارها ، فلم أجد أحدا يرشدنى إليها فجعلت أتتبعها فى الأسواق ، فلم أقع لها على خير ومرضت أسى ، وحكيت قصتى لذات قرابة لى ، فقالت : لابأس عليك هذه أيام الربيع ما انقضت وستمطر السماء ، فتخرج حينئذ وأنا أخرج معك فافعل مرادك ، قال : فاطمأنت نفسى بذلك إلى أن سال

العقيق وخرج الناس ينظرون فخرجت مع إخوتى وقرابتى ، فجلسنا فى مجلسنا بعينه ، فما لبثنا إلا النسوة كفرسى رهان ، فقلت لذات قرابتى : قولى لهذه الجارية يقول لك هذا الرجل : لقد أحسن من قال :

رمتنى بسهم أقصد القلب وانثنت وقد عاودت جرحا بة وندوبا

قال : فمضت إليها ، وقالت لها : ذلك ، فقالت : قولى له وقد أحسن من أجابه :

بنا مثل ما تشكو فصبراً لعلنا نرى فرجا يشفى القلوب قريبا

قال : فأمسكت عن الكلام خوف الفضيحة ، وقمت منصرفا ، فقامت لقيامى ، فتبعتها قريبتى حتى عرفت منزلها ، ورجعت فأخذتنى وسرنا إليها حتى اجتمعنا واتصل ذلك حتى شاع وظهر وحجبها أبوها ، فلم أزل مجتهدا فى لقائها فلم أقدر وشكوت ذلك إلى أبى فجمع أهلنا ومضى إلى أبيها راغبا فى خطبتها ، فقال : لو بدا له ذلك قبل أن يفضحها لفعلت ، ولكنه أشهرها ، فما كنت لأحقق قول الناس .

قال إبراهيم : فأعدت عليه الصوت وعرفنى منزله ، ثم انصرف وكانت بيننا عشرة . ثم جلس جعفر بن يحيى ، وحضرت على عادتى فغنيته شعر الفتى ، فطرب وشرب أقداحا ، وقال : ويلك لمن هذا الصوت؟ فحدثته حديث الفتى ، فأمرنى بالركوب إليه وأن أجعله على ثقة من بلوغ أربه ؛ فمضيت إليه وأحضرته ، فاستعاد الحديث فحدثه ، فقال : هى فى ذمتى حتى أزوجك إياها فطابت نفسه ، وأقام معنا؛ فلما أصبح ركب جعفر إلى الرشيد وحدثه بذلك فاستظرفه وأمر أن يحضرا جميعا واستعاد

الصوت وشرب عليه ، فأمر بكتب كتاب إلى عامل الحجاز بإحضار المرأة وأهلها ووالدها معجلين إلى حضرته ، والإنفاق عليهم نفقة واسعة فلم يمض إلايسير حتى حضروا فأشار الرشيد بإيصال الرجل إليه فحضر وأمره بتزويج ابنته من الفتى ، وأعطاه ألف دينار ونقلت إلى أهله ؛ ولم يزل الشاب من ندماء جعفر حتى حدث ما حدث ، فعاد الفتى بأهله إلى المدينة فرحم الله تعالى أرواحهم أجمعين .

حكاية أجنبية

[٨٩] [قيل] : مما اتفق أن الوزير أبا عامر أحمد بن مروان ، كان قد أهدى له غلام من النصارى لاتقع العيون على أحسن منه ، فلمحه الملك الناصر ، فقال له : أنّى لك ؟ قال : هو من عند الله ، فقال : تتحفونا بالنجوم وتستأثرون بالأقمار ، فاعتذر إليه ، ثم احتفل فى هدية بعثها إليه مع الغلام ، وقال له : كن داخلا فى جملة الهديّة ، ولولا الضرورة ماسمحت بك نفسى وكتب معه هذه الأبيات:

أمولاى هذا البدر سار لأفقكم ... وللأفق أولى بالبدور من الأرض
أراضيكم بالنفس وهى نفيسة ... ولم أر قبلى من بمهجته يرضى

قال : فحسن ذلك عند الناصر ، وأتحفه بمال جزيل ، وتمكن عنده، ثم بعد ذلك أهديت للوزيرجارية من أجمل نساء الدنيا ، فخاف أن ينهى[1] ذلك إلى الناصر فيطلبها فتكون كقصة الغلام ، فاحتفل فى هدية أعظم من الأولى وأرسلها مع الجارية ، وكتب معها هذه الأ بيات :

---

(١) يَنْهى ذلك إلى الناصر : أى يبلغه الخبر .

أمولاى هذى الشمس والبدر أولا ... تقدم كيلا يلتقى القمران
قران لعمرى بالسعادة ناطق ... فدم معهما فى كوثر وجنان
فما لهما والله فى الحسن ثالث ... ومالك فى ملك البرية ثانى

قال : فتضاعفت مكانته عنده ، ثم وشى به بعض أعدائه عند الناصر ؛ أن عنده بقية من حب الغلام وأنه لايزال يلهج[1] بذكره حين تحركه الشمول[2] فيقرع السن على تعذر الوصول إليه ، فقال الناصر للواشى ، لاتحرك به لسانك وإلا طار رأسك ، وكتب على لسان الغلام ورقة فيها : يامولاى تعلم أنك كنت لى على الانفراد ولم أزل معك فى نعيم ، وأنا وإن كنت عندالسطان مشاركا فى منزله محاذرا ما يبدو من سطوة الملك ، فتحيل فى استدعائى منه . ثم بعثها مع غلام صغير ، وأوصاه أن يقول : هى من عند فلان ، وأن الملك لم يكلمه قط ، فلما وقف عليها أبو عامر واستخبر الخادم ، أحسن بالمكيدة فكتب على ظهر الورقة يقول :

أمن بعد أحكام التجارب ينبغى ... لدى سقوط العير فى غابة الأسد
ولا أنا ممن يغلب الحب عقله ... ولا جاهل ما يدعيه أولو الحسد
فإن كنت روحى قد وهبتك طائعا ... وكيف ترد الروح إن فارق الجسد

فلما وقف الناصر على الجواب ، تعجب من فطنته ولم يعد إلى سماع واشٍ فيه بعد ذلك ، ثم قال له : كيف خلصت من الشرك ؟ قال : لأن عقلى بالهوى غير مشترك .

---

(١) يلهج : يولع .

(٢) الشمول : الخمر .

٧- فصل

وهذا سبب قتل البرامكة وماوقع لهم مع الرشيد[١]

[٩٠] والقصة فى ذلك على ماروواه إبراهيم بن إسحاق عن أبى ثور زاهر بن صقلاب ، قال : بلغنى أنه كان لهارون الرشيد مجلس بالليل مع جعفر البرمكى ، فقال له يوما : لا يطيب لى ذلك إلا بمحضر أختى ميمونة، ولكن لا يجوز إلا إن كتبت لك عليها لإباحة النظر من غير أن تقربها ، فاتفقا على ذلك ، وعقد له عليها ، ثم أحضرها فكانت تحضر لذلك المجلس إلا أنه زاد غرامها وعشقها فيه ، وكان لجعفر البرمكى امرأة تزين له الجوارى كل ليلة ، فجاءت ميمونة لها وأرشتها بمال فزينتها له ، وأدخلتها عليه ، فظن أنها جارية فراقعها ؛ فلما أصبحوا ، قالت له : أنا ميمونة وقد كنت أسألك أن تساعدنى على مودتك فتأبى ؛ فلما أيست منك احتلت عليك بما رأيت فى هذه الليلة ، وإن لم تواظب لأكونن سببا فى سلب نعمتك ، وهل أنت إلا زوجى .

فقال لها جعفر : ويحك أهلكتينى وأهلكت نفسك وكان كما قال ، ولم يزورها حتى ظهر أمرها للرشيد . فهذا كان سبب قتل البرامكة ، وهذا ابتداء الحديث.

---

(١) انظر : البداية والنهاية (١٠/١٨٩-١٩٤) ، تاريخ بغداد (٧/١٥٢) ، تاريخ الطبرى حوادث سنة [١٨٧هـ] ، مقدمة ابن خلدون ص٢٢ .

[٩١] قال المبرد : قال أبو عبد الله المارستانى ، عن يحيى بن أكثم القاضى[1] ، قال : سألت إسماعيل بن يحيى الهاشمى ، عن سبب زوال نعمة البرامكة ؟ قال : نعم أعرف صحة الخبر وباطن القصة ، كان سبب ذلك : أنى كنت مع الرشيد يوما من الأيام راكبا إلى الصيد فبينما نحن نسير ، إذ نظر إلى موكب بالبعد اعترضنا ، فقال لى: يا إسماعيل لمن هذا؟ فقلت : هو لأخيك جعفر بن يحيى ، فالتفت يمينا وشمالا إلى من معه فى موكبه ، فإذا هو شرذمة يسيرة ، ثم نظر إلى الموكب الذى فيه جعفر فلم يره، فقال : يا إسماعيل مافعل جعفر وموكبه ؟ فقلت : ياسيدى قد مضى أخوك فى طريق ولم يعلم بموضعك ، فقال : ما رأنا أهلا أن يزيننا بموكبه ويحملنا بجيشه؟ فقلت : العفو يا أمير المؤمنين لو علم بمكانك ماتعداك ، وماسار إلا بين يديك واعتذرت بما حضر لى من الكلام .

ثم سرنا حتى انتهينا إلى ضيعة عامرة ، ومواش كثيرة ، وعمارة حسنة، وكان الطريق يدور عليها ، فدرنا حتى وردنا باب القرية ، فنظر

---

(١) يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمى الأسدى : قاض ، رفيع القدر ، عالى الشهرة، يتصل نسبه بأكثم بن صيفى حكيم العرب ، اتصل بالمأمون أيام مقامه بها ، فولاه قضاء البصرة [٢٠٢هـ] ثم قضاء القضاة ببغداد ، وأضاف إليه تدبير الخلافة ، فكان وزراء الدولة لايقدمون ولايؤخرون فى شىء إلا بعد عرضه عليه . وله غزوات وغارات منها أن المأمون وجهه [٢١٦هـ] إلى بعض جهات الروم فعاد ظافراً ، وكان يُتهم بأمور شاعت عنه ، وتناقلها الناس ولكن ذلك من حسد الناس له ، وكفى بابن حنبل لما ذُكر ذلك أمامة ، قال : سبحان الله سبحان الله ، ومن يقول هذا ؟! وأنكر ذلك إنكارا شديداً ، وقال فيه : ماعرفت فيه بدعة ، ت[٢٤٢هـ = ٨٥٧م] . انظر : طبقات الحنابلة (١/٤١٠) ، وفيات الأعيان (٢/٢١٧) .

الرشيد إلى البيدر[1]، وإلى كثرة الغلال فيه ، والمواشى ، ويسار أهلها . فالتفت إلى وقال : يا إسماعيل لمن هذه الضيعة ؟ قلت : لأخيك جعفر بن يحيى ، فسكت ثم تنفس الصعداء ، ثم سرنا ولم يزل يمر بكل ضيعة أعمر من الأخرى ، وكلما مر وسألنى عن ضيعة ، قلت: لجعفر بن يحيى ، حتى سرنا ووصلنا إلى المدنية ؛ فلما أردت وداعه والانصراف إلى منزله نظر إلى من كان حواليه نظرة فعلموا ما أراد فتفرقوا ، وبقيت أنا وهو ، فقال : يا إسماعيل ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، فقال : انظر إلى البرامكة أغنيناهم وأفقرنا أولادنا وأغفلنا أمرهم ، فقلت فى نفسى : بلية والله ، ثم قلت : لماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : نظرت لهؤلاء وغفلت عن هؤلاء لأنى لا أعرف لأحد من أولادى ضيعة من ضياع البرامكة على طريق واحد على قرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم غير ذلك على هذا الطريق فى سائر البلدان ، فقلت: يا أمير المؤمنين إنما البرامكة عبيدك وخدمك والضيعات وأموالهم وكل ما يملكون لك ، فنظر إلى نظرة جبار عنيد ، ثم قال : ما عد البرامكة بنى هاشم إلا عبيدهم ، وأنهم هم الدولة ، وأن لانعمة لبنى العباس إلا والبرامكة أنعموا عليهم بها ، فقلت : أمير المؤمنين أبصر من غيره بخدمه ومواليه ، فقال: والله يا إسماعيل إنك لتعلم أنى قلت هذا وكأنى أراك أن تعلمهم بكلامى فتتخذ لك عندهم يدا وإنى آمرك أن تكتم هذا الأمر ، فإنه ما علم به أحد غيرك ، ومتى بلغهم شىء مما جرى ، علمت أنه ما أفشاه إلا أنت ، فقلت : يا أمير المؤمنين أعوذ بالله أن يكون مثلى يفشى سرك .

---

(١) البيدر : الموضع الذى يجمع فيه الحصيد .

قال : وكان هذا القول أول ماظهر من أمر البرامكة ؛ ثم ودعته وانصرفت متفكرا فى إيقاع الحيلة عليهم .

فلما كان من الغد بكرت إليه وجلست بين يدية ، وكان فى محل يشرف على الدجلة من شرقى مدينة باب السلام ، وبإزائه منزل جعفر من الجانب الغربى ، وكانت المواكب من جميع الأصناف من قائد وأمير وعامل يردون فى كل يوم إلى قصر جعفر ، فالتفت إلىَّ وقال : يا إسماعيل هذا ماكنا فيه بالأمس ، انظر كم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والمواكب ، وأنا ماعلى باب دارى أحد ، فقلت : يا أميرالمؤمنين ناشدتك الله أن لاتعلق نفسك بشىء من هذا ، وإن جعفرا إنما هو عبدك، وخادمك، ووزيرك ، وصاحب جيوشك ، إذا لم يكن الجيش على بابه فعلى باب من يكون ، إنما بابه من أبوابك ، فقال : يا إسماعيل انظر إلى دوابهم ألست ترى إعجازهم إلى قصرى وتروث بإزائنا ، ونحن ننظر إليها والله هذا هو الاستخفاف بعينه، والله لا أصبر على ذلك ، ثم غضب غضبا شديدا وامتلأ غيظا فأمسكت عن الكلام ، وقلت : والله هذا قضاء من الله سابق وحكم لا محالة واقع ، ثم استأذنته فى الانصراف ورجعت إلى منزلى؛ فلقينى جعفر فى الطريق يريد الرشيد ، فتواريت عنه حتى مضى ، فدخل إليه وسلم عليه فأجلسه عن يمينه وأكرمه غاية الإكرام ، وبش فى وجهه وحادثه ساعة ووهب له خادما من خاصة خدمه ، وأنبلهم وأوضحهم وجها ، وأكملهم ظرفا ، كاتبا حاسبا لبيبا ؛ فسر جعفر سرورا كاملا ، ووقع فى قلبه أجل موقع ، وكان دسيسا عليه وبلية لديه ، يرفع أخباره إلى الرشيد ويحصى عليه أنفاسه ساعة بساعة ووقتا بوقت ، فخلا به جعفر يومه ذلك وليلته واحتجب من أجله عن الناس .

فلما كان بعد ثلاثة أيام سرت إلى جعفر فسلمت عليه ، فلما خلا مجلسه ولم يبق عنده غيرى وذلك الخادم واقف ، وعلمت أن الخادم يحصى علينا أخبارنا ؛ فقلت : أيها الوزير نصيحة أفتأذن لى فى الكلام ، قال : تكلم وكان الرشيد ولاه كورة خراسان كلها وما يضاف وينسب لها قبل هذا الكلام بأيام ، وخلع عليه وعقد له لواء وعسكرا بالنهروان ، وضرب الناس مضاربهم بها وهم متأهبون للسفر ؛ فقلت : يا سيدى أنت عازم على الخروج إلى بلدة كثيرة الخير واسعة الأقطار عظيمة المملكة ، فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلتك عنده ، فلما قلت ذلك نظر إلى مغضبا ، وقال : والله يا إسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك ؛ أو قال صاحبك إلابفضلى ، ولا قامت هذه الدولة إلا بنا ، أما كفى أنى تركته لايهتم بأمر شيء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته ، وقد ملأت بيوت أمواله أموالا ، ولازالت للأمور الجليلة أدبرها ، حتى يمد عينه إلى ما ادخرته واخترته لولدى وعقبى من بعدى ، وداخله حسد بنى هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع ، والله لئن سألنى شيئاً من ذلك ليكونن وبالا عليه سريعا ، فقلت: والله ياسيدى ماكان مما ظننت شيء ولاتكلم أمير المؤمنين بحرف ، قال : فما هذا الفضول منك ، فقعدت بعدها هنيهة ثم ، قمت إلى منزلى ولم أركب إليه ولا إلى الرشيد لأنى صرت بينهما فى حال تهمة ، وقلت فى نفسى : هذا الخليفة وهذا وزيره ، وأى شيء لى بالدخول بينهما ، ولاشك فى زوال نعمة البرامكة وإن أمورهم قد انثلمت[1].

---

(١) انثلمت : اختلت .

قال : وحدثنى خادم أم جعفر أن الخادم الذى وهبه الرشيد لجعفر كتب إلى الرشيد بما كان بينى وبينه وما تكلم به من الكلام الغليظ . قال : فلما قرأ الكتاب وفهم الخبر احتجب ثلاثه أيام متفكرا فى إيقاع الحيلة على البرامكة ، فدخل فى اليوم الرابع على زبيدة فخلا بها وشكا لها ما فى قلبه وأطلعها على الكتاب الذى رفعه إليه الخادم ، وكان بين جعفر وزبيدة شر وعداوة قديمة ؛ فلما تملكت الحجة عليه بالغت فى المكر بهم ، واجتهدت فى هلاكهم ، وكان الرشيد يتبرك بمشورتها ، فقال : أشيرى على برأيك الموافق الرشيد ، فإنى خائف أن يخرج الأمر من يدى إنْ تمكنوا من خراسان وتغلبوا عليها .

فقالت : يا أمير المؤمنين مثلك مع البرامكة كمثل رجل سكران غريق فى بحر عميق ، فإن كنت قد أفقت من سكرتك وتخلصت من غرقتك أخبرتك بما هوأصعب عليك وأعظم من هذا بكثير ، وإن كنت على الحالة الأولى تركتك ، فقال لها : قد كان ما كان فقولى أسمع منك . فقالت : إن هذا الأمر أخفاه عنك وزيرك ، وهو أصعب مما أنت فيه وأقبح وأشنع ، فقال لها: ويحك وماهو ؟ فقالت: أنا أجل من أن أخاطبك به ولكن تحضر أرجوان الخادم وتشدد عليه وتوهنه ضربا ، فإنه يعرفك الخبر وكان الرشيد قد أحل جعفرا محلا لم يحله أخاه ولا أباه وأمره أن يدخل على الحريم فى السفر والحضر وأبرز إليه حواريه وأخواته وبناته ، لأنه كان بينهما رضاع سوى امرأته زبيدة ، فإنه لم يكن رآها ولا دخل عليها ولا قضى لها حاجة ولا هى أيضا تستقضيه حاجة ، فلما فسد قلب الرشيد وعزم على هلاك البرامكة ، وجدت سبيلا على البرامكة فحطت على جعفر ، وكان جعفر

يدخل الحريم فى غياب الرشيد ، ويقضى حوائجهن لأنهن لايستترن منه ، وكان ذلك بأمر الرشيد ولم يعلم الرشيد ماحدث من جعفر .

قال : فخرج الرشيد واستدعى بأرجوان الخادم وأحضر السيف والنطع، وقال: برئت من المنصور إنْ لم تصدقنى فى حديث جعفر لأقتلنك، فقال : الأمان يا أمير المؤمنين قال : نعم لك الأمان ، فقال : اعلم إن جعفراً قد خانك فى أختك ميمونة، وقد دخل بها منذ سبع سنين ، وولدت منه ثلاث بنين ، أحدهم له ست سنين ، والآخر له خمس سنين ، والثالث عاش سنتين ومات قريبا ، والاثنان قد أنفذهما إلى مدينه الرسول ﷺ ، وهى حامل بالرابع ، وأنت أذنت له بالدخول على أهل بيتك، وأمرتنى أن لا أمنعه فى أى وقت شاء ليلا أو نهارا ، قال : أمرتك أن لاتحجبه ، فحين حدثت هذه الحادثة لم لا أخبرتنى أول مرة ، ثم أمر بضرب عنقه ، وقام من وقته على الفور ودخل على زبيدة وقال لها : أرأيت ماعاملنى به جعفر ، وما ارتكب من هتك سترى ونكس رأسى ، وفضحنى بين العرب والعجم ، فقالت : هذه شهوتك وإرادتك عمدت إلى شاب جميل الوجه ، حسن الثياب طيب الرائحة جبار فى نفسه ، أدخلته على ابنة خليفة من خلفاء الله، وهى أحسن منه وجها ، وأنظف منه ثوبا ، وأطيب منه رائحة ، لكنها لم تر رجلا قط غيره ، فهذا جزاء من جمع بين النار والحطب .

فخرج من عندها مكروبا فدعا بخادمه مسرور ، وكان قاسى القلب فظا غليظا ، قد نزع الله الرحمة من قلبه ، فقال : يا مسرور إذا كانت الليلة بعد العتمة فأتنى بعشرة من الفعلاء أجلاد ، ومعهم خادمان قال : نعم ،

فلما كان بعد العتمة جاء مسرور ومعه الفعلاء والخادمان ، فقام الرشيد وهم بين يديه حتى أتى المقصورة التى فيها أخته فنظر إليها وهى حامل فلم يكلمها بشيء ولم يعاتبها على مافعلت وأمر الخادمين بإدخالها فى صندوق كبير فى مقصورتها بعد قتلها ، ووضعها بحليها وثيابها كما هى ، وقفل عليها ، وقد علمت أنها بعد قتل أرحوان لاحقه به ؛ فلما علم أنه استوثق بها ، دعا بالفعلاء ومعهم المعاول والزنابيل فحفروا وسط تلك المقصورة ، حتى بلغوا الماء ، وهو قاعد على كرسى ، ثم قال : حسبكم هاتوا الصندوق فدلوه فى تلك الحفرة ، ثم قال : ردو التراب عليه ففعلوا وسووا الموضع كما كان ، ثم أخرجهم وقفل الباب وأخذ المفتاح معه ، وجلس فى موضعه والفعلاء والخادمان بين يديه ، ثم قال : يامسرور خذ هؤلاء القوم وأعطهم أجرتهم ، فأخذهم مسرور وجعلهم فى جواليق وخيط عليهم بعد أن ثقلهم بالصخر والحصى ورماهم فى وسط الدجلة ، ورجع من وقته، فوقف بين يديه فقال : يا مسرور فعلت ما أمرتك به ؟ قال: وفيت القوم أجورهم ، فدفع إليه مفتاح البيت وقال احفظه حتى أسألك عنه ، وامض الآن فانصب فى وسط المحل القبة التركية ، ففعل ذلك ووافاة قبل الصبح ، ولم يعلم أحد ما يريد .

فلما جلس فى مجلسه وكان يوم الخميس يوم موكب جعفر ، قال : يا مسرور لاتتباعد عنى ، ودخل الناس فسلموا عليه ووقفوا على مراتبهم ، ودخل جعفر بن يحيى البرامكى فسلم عليه فرد عليه السلام أحسن رد ، ورحب به وضحك فى وجهه ، فجلس فى مرتبته وكانت مرتبته أقرب المراتب إلى أميرالمؤمنين ، ثم حدثه ساعة وضاحكه ؛ فأخرج جعفر الكتب الواردة عليه من النواحى ، فقرأها عليه وأمر ونهى ، ومنع ونفذ

الأمور ، وقضى حوائج الناس ؛ ثم استأذنه جعفر فى الخروج إلى خراسان فى يومه ذلك ، فدعا الرشيد بالمنجم وهو جالس بحضرته ، فقال الرشيد : كم مضى من النهار ؟ قال : ثلاث ساعات ونصف ، وأخذ له الارتفاع وحسب له الرشيد بنفسه ، ونظر فى نجمه ، فقال : يا أخى هذا يوم نحوسك ، وهذه ساعة نحس ولا أرى إلا أنه يحدث فيها حدث ولكن تصلى الجمعة وترحل فى سعودك ، وتبيت فى النهراوان ، وتبكر يوم السبت وتستقبل الطريق بالنهار ، فإنه أصلح من اليوم . فما رضى جعفر بما قاله الرشيد ، حتى أخذ الاصطرلاب[1] من يد المنجم ، وقام وأخذ الطالع وحسب الطالع لنفسه ، وقال : والله صدقت يا أمير المؤمنين إن هذه الساعة ساعة نحس وما رأيت نجما أشد احتراقا ، ولا أضيق مجرى من البروج فى مثل هذا اليوم ، ثم قام وانصرف إلى منزله والناس والقواد والخاص والعام من كل جانب يعظمونه ويبجلونه إلى أن وصل إلى قصره فى جيش عظيم وأمر ونهى وانصرف الناس؛ فلم يستقر به المجلس حتى بعث إليه الرشيد مسرورا ، وقال له : امض إلى جعفر وائتنى به الساعة ، وقل له : وردت كتب من خراسان ، فإذا دخل الباب الأول أوقف الجند ، وإذا دخل الباب الثانى أوقف الغلمان ، وإذا دخل الباب الثالث فلا تدع أحد يدخل معه من غلمانه بل يدخله وحده، فإذا دخل فى صحن الدار فمل به إلى القبة التركية التى أمرتك بنصبها فاضرب عنقه ، وائتنى برأسه ولا توقف أحدا من خلق الله على ما أمرتك به ، ولا تراجعنى فى أمره ، وإن لم تفعل أمرت من يضرب عنقك ويأتينى برأسك ورأسه جملة ، وفى دون هذا كفاية ، وأنت أعلم ، وتبادر قبل أن يبلغه الخبر من غيرك .

---

(١) الإصطرلاب : هو ميزان الشمس وهى كلمة يونانية .

فمضى مسرور ، واستأذن على جعفر فدخل عليه وقد نزع ثيابه وطرح نفسه ليستريح ، فقال : سيدى أجب أمير المؤمنين ، قال : فانزعج وارتاع منه ، وقال : ويلك يا مسرور أنا فى هذه الساعة خرجت من عنده فما الخبر ؟ قال : وردت كتب من خراسان يحتاج أن تقرأها ؛ فطابت نفسه ودعا بثيابه فلبسها وتقلد بسيفه وذهب معه .

فلما دخل من الباب الأول أوقف الجند ، وفى الثانى أوقف الغلمان ، فلما دخل من الثالث إلتفت فلم ير أحدا من غلمانه ولا الخادم الفرد ؛ فندم على ركوبه تلك الساعة ولم يمكنه الرجوع ، فلما صار بإزاء تلك القبة المضروبة فى صحن الدار مال به إليها ، وأنزله عن دابته ، وأدخله القبة فلم ير فيها أحدا ، وفى رواية رأى فيها سيفا ونطعا فحس بالبلاء ، وقال لمسرور: يا أخى ما الخبر ؟ فقال له مسرور : أنا الساعة أخوك ، وفى منزلك تقول لى : ويلك ، أتدرى ما القضية وما كان الله ليهملك ولا ليغفلك ، فقد أمرنى أمير المؤمنين بضرب عنقك ، وحمل رأسك إليه الساعة ؛ فبكى جعفر وجعل يقبل يدى مسرور ورجليه ، ويقول : يا أخى يامسرور قد علمت كرامتى لك دون جميع الغلمان والحاشية ، وإن حوائجك عندى مقضية فى سائر الأوقات ، وأنت تعرف موضعى ومحلى من أمير المؤمنين ، وما يوحيه إلى من الأسرار ، ولعل أن يكون بلغوه عنى باطلا ، وهذه مائة ألف دينار منى لك أحضرها لك الساعة ، قبل أن أقوم من موضعى هذا ، وخلنى أهيم على وجهى ، فقال : لاسبيل إلى ذلك أبدا، قال : فاحملنى إليه وأوقفنى بين يديه ، فلعله إذا وقع نظره على تدركه الرحمة ، فيصفح عنى ، قال : مالى سبيل إلى ذلك أبدا ، ولا يمكننى مراجعته، وقد علمت أنه لا سبيل إلى الحياة أبدا ، قال : فتوقف عنى ساعة

وارجع إليه ، وقل له: قد فرغت مما أمرتنى به واسمع مايقول ، وعد فافعل ماتريد فإن فعلت ذلك وحصلت لى السلامة ، فإنى أشهد الله وملائكته إنى أشاطرك فى نعمتى مما ملكته يدى ، وأجعلك أمير الجيش وأملكك أمر الدنيا ، ولم يزل به وهو يبكى حتى طمع فى الحياة . قال له مسرور : إنما يكون ذلك وحل سيفه ومنطقته واخذهما ووكل به اربعين غلاما من السودان يحفظونه ؛ ومضى مسرور ووقف بين يدي الرشيد وهو جالس ، يقطر غضبا وفى يده القضيب الولع ينكت به فى الأرض .

فلما رآه قال له : ثكلتك أمك مافعلت فى أمر جعفر ، فقال : ياأمير المؤمنين قد أنفذت أمرك فيه ، فقال : فأين رأسه ، فقال: فى القبة ، قال: فأتنى برأسه الساعة فرجع مسرور وجعفر يصلى وقد ركع ركعة ، فلم يمهله أن يصلى الثانية حتى سل سيفه الذى أخذه منه وضرب عنقه ، وأخذ رأسه بلحيته فطرحه بين يدى أمير المؤمنين ، وهو يشخب[1] دما فتنفس الصعداء وبكى بكاء شديداً ، وجعل ينكت فى الأرض أثر كل كلمة ، ويقرع أسنانه بالقضيب ويخاطبه ويقول يا جعفر : ألم أحلك محل نفسى ، يا جعفر : ما كافأتنى ولاعرفت حقى ، ولا حفظت عهدى ، ولا ذكرت نعمتى ، ولا نظرت فى عواقب الأمور ، ولا تفكرت فى صروف الدهر ولا حسبت تقلب الأيام ، واختلاف أحوالها ، يا جعفر : خنتنى فى أهلى ، وفضحتنى بين العرب والعجم ، ياجعفر : أسأت إلىَّ وإلى نفسك ، وتفكرت فى عاقبة أمرك .

---

(١) يشخب : يسيل .

قال مسرور : وأنا واقف بين يديه وهو ينكت فى الأرض فى كل كلمة ، ولم يزل كذلك إلى أن أذن لصلاة الظهر ، فدعا بماء فتوضأ للصلاة وخرج للجامع فصلى بالناس جماعة ، ثم إلتفت بوجهه لقصور جعفر ودوره، وقبض على أبيه وأخيه وجميع أولاد البرامكة ومواليهم وغلمانهم واستباح مافيه ووجه مسرورا إلى المعسكر ، فأخذوا جميع مافيه من مضارب وخيام وسلاح وغير ذلك .

فلما أصبح يوم السبت فإذا هو قد قتل من البرامكة وحاشيتهم نحو ألف إنسان ، وترك من بقى منهم لايرجع إلى وطنه وشتت شملهم فى البلادولم يقدر أحد منهم على كسرة خبز ، وحبس أباه يحيى ، وأخاه الفضل فى مطمورة وأمر بحثت جعفر فصلبت على الجسر ببغداد، ثم بعث إلى خراسان أن يوطن بلادها ، وأمر الناس فردوا مضاربهم، ودخل المعسكر واستقرت له الأمور .

وأحضر على بن عيسى بن ماهان[1] فولاه خراسان ، فوجه إلى مدينة النبى ﷺ فأتى بالصبيين ولدى جعفر من أخته ميمونة فأدخلا عليه فى بيته فلما رآهما أعجب بهما وكانا فى نهاية من الحسن والجمال ، فاستنقطهما فوجد لغتهما مدنية وفصاحتهما هاشمية وفى ألفاظهما عذوبة وبلاغة ،

---

(١) على بن عيسى بن مهان : من كبار القادة فى عصر الرشيد والأمين وهو الذى حرض الأمين على خلع المأمون من ولاية العهد ، وسيره الأمين لقتال المأمون بجيش كبير ، ولاه إمارة الجبل وهمذان ، وأصبهان ، وقم ، وحارب جيش المأمون بقيادة طاهر بن حسين فى الرى فقتل ، وانهزم أصحابه ، ت [١٩٥هـ - ٨١٠م] . انظر : النجوم الزاهرة (١٤٩/٢) ، الكامل لابن الأثير (٧٩/٦) ، البداية والنهاية (٢٢٦/١٠) .

فقال لكبيرهما : ما اسمك ياقرة عينى ؟ قال : الحسن ، وقال للصغير : ما اسمك ياحبيبى ؟ قال : الحسين ، فنظر إليهما وبكى بكاء شديدا ، ثم قال: يعز على حسنكما وجمالكما لارحم الله من ظلمكما ، ولم يد يا ما يراد بهما ، ثم قال : يامسرور ما فعلت بالمفتاح الذى دفعته لك وأمرتك بحفظه ؟ قال : هو حاضر يا أمير المؤمنين ، قال : فإئتنى به ، ثم دعا بجماعة من الغلمان والخدم ، وأمرهم أن يحفروا فى البيت حفرة عميقة ، ودعا مسرورا وأمره بقتلهما ودفنهما مع أمهما فى تلك الحفرة ، رحمهم الله تعالى جميعا ، وهو مع ذلك يبكى بكاء شديدا حتى ظننت أنه رحمهما، ثم مسح عينيه من الدموع، وأمر أن لا تذكر البرامكة فى مجلس، ولايستعان بمن بقى منهم فى المدينة أبدا ، فخرجوا على وجوههم فى البلاد شاردين متنكرين ، وقطع الله دابرهم .

[٩٢] قال : لما كان بعد مدة من هلاك البرامكة وجد الرشيد رقعة تحت مصلاه ، فيها خطاب وأبيات من الشعر فبحث عنها، فقيل: إن صاحب السر[١] عملها ، فبعث إليه فسأله عنها ، فقال : يا أمير المؤمنين وجدتها فى صحن الدار ولا أعلم من طرحها ، فأخذتها وطرحتها تحت مصلاتك .

فقيل :إن ذلك من زبيدة ، لتهلك من بقى من البرامكة ،فعملت الرقعة للرشيد وحركته وزادت فى غيظه،فاستدعى فى الوقت بالفضل بن يحيى[٢]،

---

(١) صاحب السر : أحد أعوانة الخليفة .

(٢) الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى : وزير الرشيد ، وأخوه فى الرضاعة . سجنه الرشيد وعذبه إثر نكبة جعفر البرمكى ، ومات فى سجن الرشيد بالرقة [١٩٣هـ] .

وضربه سياطا حتى كاد أن يهلكه، وزاد فى حديده وأغلاله ، ثم استدعى بيحيى[1] وكان شيخا كبيرا وزاد فى حديده وأغلاله أيضا ، وكان قد نشأ فى النعيم ، فتذكر فقد جعفر وتشتت الأهل ، فكتب كتابا إلى الرشيد يستعطفه ، ويسأله أن يخفف عنه من القيد والغل ، وهو:"بسم الله الرحمن الرحيم إلى أمير المؤمنين ونسل المهديين ، وإمام المسلمين ، وخليفة رسول رب العالمين ، من عبد أسلمته ذنوبه ، وأوبقته عيوبه ، وخذله شقيقه، ورفضه صديقه ، وخانه الزمان ، وأناخ عليه الخذلان ، ونزل به الحدثان ، فصار إلى الضيق بعد السعة ، وعالج الموت بعد الدعة[2] ، وشرب كأس الموت مترعة[3] ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهر بعد الكرى ، فنهاره فكر ونومه سهر وساعة شهر وليله دهر ، قد عاين الموت مرارا وشارف الهلاك جهارا ؛ يا أمير المؤمنين قد أصابتنى مصيبتا الحال والمال ، أما المال : فإن ذلك منك ولك ، وكان فى يدى

---

(١) يحيى بن خالد بن برمك ، أبو الفضل : الوزير السرى الجواد ، سيد بنى برمك وأفضلهم ، وهو مؤدب الرشيد ومعلمهم ، رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل . أمره المهدى [١٦٣هـ] أن يلازم بعد أن بلغ من عمره أربعة عشر عاما ويكون كاتبا له . ولما ولى هارون الخلافة دفع خاتمه إلى يحيى وقلده أمره ، فبدأ يعلو شأنه . واشتهر يحيى بجوده وحسن سياسته. واستمر إلى أن نكب الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه إلى أن مات . ت [١٩٠هـ = ٨٠٥م] . انظر : وفات الأعيان (٢/٢٤٣) .

(٢) الدعة : الرغد فى العيش .

(٣) مترعة : مملوءة ، وهى كناية عن شدة مايلاقى من العذاب .

عارية[1] منك ولابأس برد العوارى إلى أهلها . وأما المصيبة : بجعفر فبجرمه وجراءته ، وعاقبته بما استخف من أمرك وكان جزاؤه فوق ما استحق . وأما الفقير : فاذكر يا أمير المؤمنين خدمتى وارحم ضعفى ووهن قوتى وهب لى رضاك ، فمِنْ مثلى الزلل ومِنْ مثلك الإقالة[2] ، ولست أعتذر ولكن أقر وقد رجوت أن أفوز برضاك ، فتقبل عذرى ، وصدق نيتى وظاهر طاعتى وتلويح حجتى ، ففى ذلك مايكتفى به أمير المؤمنين ويرى الحقيقة فيه ويبلغ المراد منه ، ثم أنشأ يقول :

قل للخليفة ذى الصنا ... ئع والعطايا الفاشيه[3]
وابن الخلائف من قري ... ش والملوك العاليه
رأس الأمور وخير من ... ساس الأمور الماضيه
إن البرامكة الذين ... رموا لديك بداهيه
عمتهم لك سخطة ... لم تبق منهم باقيه
فكأنهم مما بهم ... أعجاز نخل خاويه
صفر الوجوه عليهم ... خلع المذلة باديه
مستضعفون ومطردون ... بكل أرض قاصيه
بعد الإمارة والوزا ... رة والأمور الساميه
ومنازل كانوا بها ... فوق المنازل عاليه
أضحوا وحل مُناهمو ... منك الرضا والعافيه

---

(١) العَارِية: ما تعطيه غيرك على شرط أن يعيده إليك، وجمعها عوارى .

(٢) الإقالة : العفو والصفح .

(٣) الفاشية : العديدة المنتشرة .

يـا مـن يريـد لـى الـردى ... يكفيـك ويحـك مـا بيـه[1]

يكفيـك أنـى مستبـا ... ح عـترتى ونسـائيه[2]

يكفيـك مـا أبصرتـه ... ذلـى وذل مكانيـه

فلقـد رأيـت المـوت مـن ... قبـل الممـات علانيـه

وبكـاء فاطمـة الكبـيرة ... والدمـوع الجاريـه

ومقالهـا بتفجـع ... يـا سـوأتى وشـقائيه

مـن لـى وقـد غلـب الزمـا ... ن علـى جميـع رجاليـه

يـا لهـف نفسـى لهفهـا ... مـا للزمـان وماليـه

أو مـا سـمعت مقـالتى ... يـاذا الفـروع الزاكيـه

ياعطفـة الملـك الرضـا ... عـودى علينـا ثانيـه

فلما وقف الرشيد على الرقعة ، كتب على ظهرها هذه الأبيات :

يـا آل برمـك إنكـم ... كنتـم ملوكـا عاتيـه

فعصيتمـو وطغيتمـو ... وكفرتمـو نعمائيـه

هـذى عقوبـة مـن عصـى ... مـن فوقـه وعصانيـه

أجـرى القضـاء عليكمـو ... مـا خنتمـوه علانيـه

مـن تـرك نصـح إمـامكم ... عنـد الأمـور الباديـه

ثم أردفه بقوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**﴾ [النحل: ١١٢].

---

(١) الردى : الهلاك .

(٢) العترة : الذرية والعشيرة .

فلما قرأها يحيى وهو بالسجن ، أخذته الحمى لوقته وساعته وكان ينام على التراب وآيس من الحياة ، وعلم أنه ليس له مخلص مما هو فيه من السجن انتهى .

[٩٣] [وقيل] **ليحيى بن خالد بن برمك** : أيها الوزير أخبرنا بأحسن ما رأيت فى أيام سعادتك ؟ قال : ركبت يوما فى بعض الأيام فى سفينة أريد التنزه ، فلما خرجت برجلى لأصعد فاتكأت على لوح من ألواحها ، وكان بإصبعى خاتم فطار فصه من يدى ، وكان ياقوتا أحمر قيمته ألف مثقال من الذهب فتطيرت[1] من ذلك . ثم عدت إلى منزلى وإذا بالطباخ قد أتى بذلك الفص بعينه وقال أيها الوزير لقيت هذا الفص فى بطن حوت ؛ وذلك لأنى اشتريت حيتانا للمطبخ فشققت بطنها فرأيت هذا الفص ، فقلت : لايصح هذا إلا للوزير أعزه الله تعالى ، فقال : الحمد لله هذا بلوغ الغاية .

[٩٤] [وقيل] له أخبرنا ببعض ما لقيت من المحن ؟ قال : اشتهيت لحما فى قدر طباخ وأنا فى السجن فغرمت ألف دينار فى شهوتى ، حتى أتيت بقدر ولحم مقطع فى قصبة فارسية والخل وسائر حوائجها فى قصبة أخرى وتركوا عندى ما أحتاج إليه، وأتيت بنار فأوقدت تحت القدر ونفخت ولحيتى فى الأرض حتى كادت روحى تخرج . فلما أنضجت تركتها تفور وتغلى وفتت الخبز وعمدت لأنزلها فانفلقت وانكسرت القدر على الأرض فبقيت ألتقط اللحم ، وأمسح منه التراب وآكله وذهب المرق الذى كنت أشتهيه وهذا أعظم ما مربى انتهى .

---

(١) تطير : تشاءم

[٩٥] ثم [قيل] : إن الرشيد نذر الحج ، فخرج وخرج معه العسكر وكان خروجه فى رمضان ، فكانت تضرب له السرادقات المكللة بالديباج مفروشة بالحرير يخرج من سرادق إلى سرادق ، والناس محدقون به حتى وصل إلى الحرم وحج ؛ فاتفق أن الوفاة دنت من يحيى وهو فى السجن ، فكتب رقعة وأوصى ولده الفضل أن يوصلها إلى الرشيد ، وكتب فيها هذه الأبيات :

ستعلم فى الحساب إذا التقينا ... غدا يوم القيام من الظلوم
وينقطع التلذذ عن أناس ... من الدنيا وتنقطع الهموم
تنام ولم تنم عنك المنايا ... تنبه للمنية يا نؤوم[1]
تروم الخلد فى دار المنايا ... وكم قد رام غيرك ما تروم[2]
إلى ديان يوم الدين نمضى ... عند الله تحتمع الخصوم

قال : فلما قدم الرشيد أنفذها إليه الفضل ، فلما قرأها علم بموته ، فقال : مات والله يحيى ، ومات الجود والكرم والسخاء ، والله لو كان حيا لفرجت عنه ، ثم أمر بإطلاق الفضل ابنه واستوزره مكان أخيه جعفر رحمة الله عليهم أجمعين .

[٩٦] قال بعضهم فى البرامكة شعرا :

إن البرامكة الكرام تعلموا ... فعل الكرام فعلموه الناسا
كانوا إذا غرسوا سقوا وإذا بنوا ... لم يهدموا مما بنوه أساسا

---

(١) المنايا : الموت .

(٢) تروم : تريد .

وإذا همو صنعوا الصنائع فى الورى ... جعلوا لها طول البقاء لباسا
فعلام تسقينى وأنت سقيتنى ... من مر هجرك من جنابك كاسا
آنستنى متفضلا أفلا ترى ... أن انقطاعك يوحش الإيناسا

[٩٧] وسئل ، إسحاق الموصلى عن سخاء أولاد يحيى بن خالد ؟ فقال : أما الفضل ففعله يرضيك . وأما جعفر فقوله يرضيك . وأما محمد فيفعل ما يجد .وفى يحيى يقول القائل:

سألت الندى هل أنت حر فقال لا ... ولكننى عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لابل وراثة ... توارثنى من والد بعد والد

وفى الفضل يقول القائل :

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة ... رأيت بها عشب السماحة ينبت
فليس بسعال إذا سئل حاجة ... ولا بمكب فى ثرى الأرض ينكت[1]

وفى محمد يقول القائل :

سألت الندى والجود مالى أراكما ... تبدلتما عزا بذل مؤبد
وما بال ركن المجد أمسى مهدما ... فقالا أصبنا فى ابن يحيى محمد
فقلت فهلا متما بعد موته ... وقد كنتما عبديه فى كل مشهد
فقالا أقمنا كى نعزى بفقده ... مسافة يوم ثم نتلوه فى غد

[٩٨] وذكر الحافظ السيوطى ـ نفعنا الله به ـ فى رسالته مشتهى العقول فى منتهى النقول : أن منتهى الكرم للوزراء البرامكة كاد أن لا

---

(١) السعال ، عند سؤال الحاجة : كناية عن الإعراض والصدود .

يوجد أحد من العلماء والحكماء والعظماء والندماء إلا وللبرامكة عليه كرم نما كماء السماء .

وتكرم جعفر بخمسين ألف دينار من الذهب وتكرر منه كثيرا فى ولايته كلها من غير مَنّ ولا أذى ولا لغرض ولا لمرض حتى صار يضرب بهم المثل الأكبر بقولهم تبرمك فلان .

ومن كرم جعفر إنه تكرم فى يوم على ألف شاعر أعطى كل شاعر ألف درهم والدرهم ثلاثة أنصاف فضة ، ومن كرمه أنه تكرم على من هجاه بخمسة آلاف دينار وعفا عن تأديبه وتعذيبه .

[٩٩] [قيل] : أوقع بهم من الأمر ما أوقع الرشيد صار أمرهم إلى ما سيوصف من الفقر والذل والإهانة ، فمن ذلك : ما قاله محمد بن غسان صاحب ولاية الكوفة وقاضيها ، قال : دخلت على أمى فى يوم عيد أضحى فرأيت عندها عجوز فى أطمار[1] رثة وإذا لها بيان ولسان ، فقلت لأمى : من هذه ؟ قالت : هذه خالتك عتابة[2] أم جعفر البرمكى ابن يحيى فسلمت عليها ، وقلت لها : أصار بك الدهر إلى ما أرى ! قالت : نعم يا بنى إن الذى كنا فيه كان عارية ارتجعها الدهر منا .

---

(١) أطمار : الثوب البالى .

(٢) عتابة ، وقيل : فاطمة بنت محمد بن الحسن بن قحطبة : سيدة جليلة ذات نفوذ وسلطان ، واحترام لدى الراعى والرعية ، كان الرشيد يشاورها مظهرا لإكرامها والتبرك برأيها . انظر : أعلام النساء (١/١٩٦) .

قال : فقلت : حدثينى ببعض شأنك ، قالت : خذه جملة لقد مضى علىَّ عيد أضحى مثل هذا منذ ثلاث سنين ، وعلى رأسى أربعمائة وصيفة وأنا أزعم أن ابنى عاق لى ، وقد جئتكم اليوم أطلب جلدى شاة ، أجعل أحدهما شعارا والآخر دثارا . قال : فغمنى ذلك وأبكانى فوهبت لها بعض دنانير كانت عندى ، والله أعلم .

[١٠٠] **ومن قول يحيى بن خالد لابنه جعفر** : يا بنى مادام قلمك يرعف[1] فأمطره معروفا .

[١٠١] **ومن كلام جعفر** : إذا أحببت إنسانا من غير سبب فارج خيرا ، وإذا أبغضت إنسانا من غير سبب فتوق شرا .

[١٠٢] **وقال يحيى بن سلام الأبرش** ، قال : حدثنى أبى قال : خرج الرشيد للصيد يوما بعدما أباد البرامكة فاحتاز بجدار خراب من جدران بنى برمك فرأى لوحا مكتوبا عليه هذه الأبيات :

يا منزل لعب الزمان بأهله ... فأبادهم بتفرق لا يجمع
إن الذين عهدتهم فيما مضى ... كان الزمان بهم يضر وينفع
أصبحت تفزع من رآك وطالما ... كنا إليك من المخاوف نفزع
ذهب الذين يعاش فى أكنافهم ... وبقى الذين حياتهم لا تنفع

قال : فبكى الرشيد ، وأقبل على الأصمعى وقال : أتعرف شيئاً من أخبار البرامكة تحدثنى به ؟ فقال الأصمعى : ولى الأمان ، قال ولك الأمان.

---

(١) رعف القلم : كثر مداده .

فقال : أحدثك بشيء شاهدته بعيني من الفضل بن يحيى ؛ وذلك أنه خرج يوما للصيد والقنص وهو في موكبه إذ رأى أعرابيا على ناقة قد أقبل من صدر البرية يركض في سيره ، قال : هذا يقصدني ، فقلت : ومن أعلمك ؟ قال : لا يكلمه أحد غيري . فلما دنا الأعرابي ورأى المضارب تضرب والخيام تنصب والعسكر الكثير والحم الغفير، وسمع الغوغاء والضجة ظن أنه أمير المؤمنين فنزل وعقل راحته وتقدم وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، قال : اخفض عليك ما تقول ، فقال: السلام عليك أيها الأمير ، قال : الآن قاربت اجلس فجلس الأعرابي فقال له الفضل: من أين أقبلت يا أخا العرب ؟ قال : من قضاعة ، قال : من أدناها أم من أقصاها ؟ قال : من أقصاها ، قال الأصمعي : فالتفت إلى الفضل ، وقال : كم من العراق إلى أرض قضاعة ؟ فقلت : ثمانمائة فرسخ، فقال : يا أخا العرب مثلك لم يقصد من ثمانمائة فرسخ إلى العراق إلا لشيء ، قال : قصدت هؤلاء الأماجد الأنجاد الذين قد اشتهر معروفهم في البلاد . قال : من هم ؟ قال : البرامكة ، قال الفضل : يا أخا العرب البرامكة خلق كثير وفيهم جليل وخطير ؛ ولكل منهم خاصة وعامة ، فهلا أفردت لنفسك منهم من اخترت لنفسك وأتيته لحاجتك ؟ قال : أجل ، قال : أطولهم باعا وأسمحهم كفا ، قال : من هو؟ قال : الفضل بن يحيى بن خالد ، فقال الفضل: يا أخا العرب إن الفضل جليل القدر عظيم الخطر إذا جلس للناس مجلسا عاما لم يحضر مجلسه إلا العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والكتاب والناظرون للعلم ، أعالم أنت؟ قال : لا ، قال : أفأديب أنت ؟ قال : لا ، قال : أفعارف أنت بأيام العرب وأشعارها؟ قال : لا ،

قال : هل وردت على الفضل بكتاب وسيلة ؟ قال : لا ، فقال: يا أخا العرب غرتك نفسك ؛ مثلك يقصد الفضل بن يحيى ، وهو كما عرفتك عنه من الجلالة ، بأى ذريعة أو وسيلة تقدم عليه ؟ قال : والله يا أمير ما قصدته إلا لإحسانه المعروف وكرمه الموصوف ، وبيتين من الشعر قلتهما فيه ، فقال الفضل : يا أخا العرب أنشدنى البيتين فإن كانا يصلحان أن تلقاه بهما أشرت عليك بلقائه ، وإن كانا لا يصلحان أن تلقاه بهما بررتك بشيء من مالى ، ورجعت إلى باديتك وإن كنت لم تستحق بشعرك شيئاً ، قال : أتفعل أيها الأمير ؟ قال : فإنى أقول :

ألم تر أن الجود من عهد آدم ... تحدر حتى صار يمتصه الفضل
ولو أن أما مسها جوع طفلها ... غذته باسم الفضل لاغتذى الطفل

قال : أحسنت يا أخا العرب فإن قال : لك هذان البيتان قد مدحنا بهما شاعر وأخذ الجائزة عليهما فأنشدنى غيرهما فمّا تقول ؟ قال . أقول :

قد كان آدم حين حان وفاته ... أوصاك وهو يجود بالحوباء[1]
ببنيه أن ترعاهما فرعيتهم ... وكفيت آدم عيلة الأبناء

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل ممتحنا : هذان البيتان أخذتهما من أفواه الناس ، فأنشدنى غيرهما ما تقول ؟ وقد رمقتك الأدباء بالأبصار وامتدت الأعناق إليك وتحتاج أن تناضل عن نفسك ؟ قال إذن أقول :

---

(١) الحَوْباء : النفس . قيل هى مأخوذة من الحوبة بمعنى الحاجة لكون النفس موطنا للحاجات ، الجمع حَوْباوات.

ملت جهابذ فضل وزن نائله ومل كاتبه إحصاء ما يهب
والله لولاك لم يمدح بمكرمة خلق ولم يرتفع مجد ولا حسب

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك هذان : البيتان أيضا أخذتهما من أفواه الناس ما كنت قائلا ؟ قال ، أقول :

وللفضل صولات على مال نفسه يرى المال منه بالمذلة والعنا
ولو أن رب المال أبصر ماله لصلى على مال الأمير وأذنا

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : هذان البيتان مسروقان أنشدنى غيرهما ما تقول إذن ؟ قال : أقول :

ولو قيل للمعروف نادى أخا العلا لنادى بأعلى الصوت يا فضل يافضل
ولو أنفقت جدواك من رمل عالج لأصبح من جدواك قد نفد الرمل[1]

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : هذان البيتان مسروقان أيضا أنشدنى غيرهما ما تقول ؟ قال : أقول :

وما الناس إلا اثنان صب وبازل وإنى لذاك الصب والباذل الفضل
على أن لى مثلا كما ذكر الورى وليس لفضل فى سماحته مثل

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : أنشدنى غيرهما ما تقول؟ قال : أقول أيها الأمير :

حكى الفضل عن يحيى سماحة خالد فقامت به التقوى وقام به العدل

---

(١) تعلج الرمل : تجمع .

وقام به المعروف شرقا ومغربا ولم يك للمعروف بعد ولاقبل

قال أحسنت : يا أخا العرب فإن قال : لقد ضحرنا من الفاضل والمفضول. أنشدنى بيتين على الكنية لاعلى الاسم ما تقول ؟ قال : إذن أقول:

ألا يا أبا العباس يا واحد الورى ويامل‍كا خد الملوك له نعل

إليك تسير الناس شرقا ومغربا فرادى وأزواجا كأنهم نحل

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : أنشدنا غير الاسم والكنية والقافية ، قال : والله لئن زادنى الفضل وامتحننى بعد هذا لأقولن أربعة أبيات ماسبقنى إليها عربى ولا أعجمى ، ولئن زادنى بعدها لأجمعن قوائم ناقتى هذه وأجعلها فى حر أم الفضل وأرجعن إلى قضاعة حاسرا ولا أبالى ، فنكس الفضل رأسه ، وقال للأعرابى : يا أخا العرب أسمعنى الأبيات الأربعة ، قال أقول :

ولائمة لامتك يا فضل فى الندى فقلت لها هل يقدح اللوم فى البحر

أتنهين فضلا عن عطاياه للغنى فمن ذا الذى ينهى السحاب عن القطر

كأن نوال الفضل فى كل بلدة تحدر هذا المزن فى مهمه قفر[1]

كأن وفود الناس فى كل وجهة إلى الفضل لاقوا عنده ليلة القدر

قال : فأمسك الفضل على فيه وسقط على وجهه ضاحكا ، ثم رفع رأسه وقال : يا أخا العرب أنا والله الفضل بن يحيى ، سل ماشئت ، فقال: سألتك بالله أيها الأمير إنك لهو ؟ قال : نعم ، قال له : فأقلنى ، قال :

---

(١) المزن : المطر. القَفْر : الأرض الخلاء لا ماء فيها ولاكلأ

أقالك الله ، اذكر حاجتك . قال : عشرة آلاف درهم ، قال الفضل : ازدريت بنا وبنفسك يا أخا العرب ، تُعطى عشرة آلاف درهم فى عشرة آلاف وأمر بدفع المال ، فلما صار المال إليه حسده وزير الفضل وقال : يا مولاى هذا إسراف ، يأتيك حلف[1] من أحلاف العرب بأبيات استرقها من أشعار العرب فتجزيه بهذا المال ! فقال : استحقه بحضوره إلينا من أرض قضاعة ، قال الوزير : أقسمت عليك يا مولاى إلا أخذت سهما من كنانتك وركبته فى كبد قوسك و أومأت به إلى الأعرابى فإن رد عن نفسه ببيت من الشعر ، وإلا استعطفت مالك ويكون له فى بعضه كفاية فأخذ الفضل سهما وركبه فى كبد قوسه و أومأ به إلى الأعرابى ، وقال : رد سهمى ببيت من الشعر فأنشأ يقول :

لقوسك قوس الجود والوتر والندى ... وسهمك سهم العز فارم به فقرى

قال فضحك الفضل وأنشأ يقول

إذا ملكت كفى منالا ولم أنل ... فلا انبسطت كفى ولا نهضت رجلى
على الله إخلاف الذى قد بذلته ... فلا مسعدى بخلى ولامتلفى بذلى
أرونى بخيلا نال مجدا ببخله ... وهاتوا كريما مات من كثرة البذل

ثم قال الفضل لوزيره : أعط الأعرابى مائة ألف درهم لقصده وشعره؛ ومائة ألف درهم ليكفينا شر قوائم ناقته ، فأخذ الأعرابى المال وانصرف وهو يبكى ، فقال له الفضل : مم بكاؤك يا أعرابى استقلالا بالمال الذى

---

(١) الحلف : الغليظ الحافى .

أعطيناك ؟ قال : لا ولكنى أبكى على مثلك يأكله التراب وتواريه الأرض ، وتذكرت قول الشاعر :

لعمرك ما الرزية فَقْدُ مال ... ولافرس يموت ولابعير[1]

ولكن الرزية فَقْد حر ... يموت لموته خلق كثير

وتوجه الأعرابى بالمال مسرورا رحمة الله عليهم أجمعين

[١٠٣] **ويحكى** : أن الرشيد قال لأبى نواس : بعنى ذقنك ، قال : بكم؟ قال: بألف دينار ، قال : بعتك ، فقال الرشيد لخازن داره : ادفع له ألف دينار فدفعها فأخذها وربطها ، وقال : يا أمير المؤمنين خذ ما اشتريت، قال : لا، ولكن جعلتها وديعة عندك ، قال : فمضى أبو نواس واشتغل بأمره ولهوه وهو خائف على ذقنه من أمير المؤمنين ، قال : فبينما هو متفكر فى شىء يفعله إذ جاء قاصد أمير المؤمنين فلم يقدر أن يتكلم دون أن قام معه ودخل إلى دار الخلافة فوجده فى جمع كثير من خواص المملكة وأعوان الدولة ، وكان من شأنه أن يجلس بالقرب من أمير المؤمنين ، فتحادثوا وتماجنوا فضرط أبو نواس ضرطة مزعجة أزعجت الحاضرين ، فضحكوا جميعا وضحك أمير المؤمنين ، وقال له : فى ذقنك يا معرص[2] ، فقال له فى الحال : الله أعلم هى ذقن من . فقال أمير المؤمنين : قد وهبتها لك يا ملعون ، فأخذها وانصرف وكسب الألف دينار بهذه الحيلة ، والله أعلم انتهى .

---

(١) الرَزِيَّة ، مفرد رزايا : المصيبة العظيمة .

(٢) عَرَّصَ الرجل : اضطرب .

[١٠٤] و[قيل] : كان نصر بن مقبل عاملا على الرقة[١] ، فأتى برجل من الظرفاء وجده ينكح شاة ، فقال : ماحملك على هذا ؟ فقال : أيها الأمير إنها والله ملك يمينى وقد قال الله تعالى ﴿أو ملكت أيمانكم﴾ [النساء: ٣] فأطلقه وأمر أن تضرب الشاة الحد ، فإن ماتت تصلب . قالوا : أيها الأمير إنها بهيمة ، قال : وإن كانت بهيمة ، فإن الحدود لا تعطل ، وإن عطلتها فبئس الوالى أنا . فانتهى إلى الرشيد خبره -ولم يكن رآه قبل- فدعا به .

فلما حضر بين يديه قال : من أنت ؟ قال : مولى الكلب ، فضحك منه ، ثم قال : كيف بصرك بالحكم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين البهائم عندى والناس سواء ، ولو وجب حد على بهيمة وكانت أمى أو أختى لحديتهما ، ولم تأخذنى فى الله لومة لائم ، فأمر الرشيد أن لا يستعان به على عمل فلم يزل معطلا إلى أن مات والله أعلم.

[١٠٥] ويحكى : أن هارون الرشيد أمر بقتل أبى نواس ، فقال : أتقتلنى شهوة لقتلى ؟ فقال : لا بل أنت مستحق للقتل ، قال : فبم استحقيت القتل ؟ قال ، بقولك:

ألا فاسقنى خمرا وقل هى الخمر ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر

فقال : يا أمير المؤمنين أفتعلم أنه سقانى وشربت ؟ فقال له أمير المؤمنين : أظن ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين أفتقتلنى على الظن وقد قال

---

(١) الرقة : مدينة فى شمال سوريا على الفرات ، أسسها السلوقيون . جعلها هارون الرشيد عاصمته الصيفية وبنى فيها قصر السلام ، فعرفت بمدينة الرشيد . دمرتها غزوات المغول .

الله تعالى ﴿إن بعض الظن إثم﴾ [الحجرات: ١٢] .فقال له الرشيد : قد قلت أيضا ماتستحق به القتل ، فقال : وماهو ؟ فقال له : قولك :

ماجاءنا أحد يخبر أنه في جنة من مات أو في نار

فقال : يا أمير المؤمنين هل جاءنا أحد ؟ قال : لا ، قال : أتقتلني على الصدق؟ فقال له الرشيد : أولست القائل :

يا أحمد المرتجى في كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات

فقال له : يا أمير المؤمنين أو صار القول فعلا ؟ قال لا أعلم ، قال : أفتقتلني على مالم تعلم . فقال له أمير المؤمنين : دع هذا كله فقد اعترفت في مواضع كثيرة من شعرك بانزنا ، قال أبو نواس : قد علم الله هذا قبل علم أمير المؤمنين بقوله تعالى ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون﴾ [الشعراء: ٢٢٤] فقال الرشيد : خلوا عنه؛ ومن هذا أخذ الصفى الحلى فقال :

نحن الذى جاء الكتاب مخبرا بعفاف أنفسنا وفسق الألسن

[١٠٦] وعن محمد بن نافع قال : رأيت أبا نواس في النوم بعد موته، فقلت :يا أبا نواس ، فقال : لات حين كنية ، فقلت : الحسن بن هانئ قال: نعم ، قلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى بأبيات قلتها في علتى قبل موتى هى تحت الوسادة .

فسألت أهله فقلت : هل قال أخى شعرا ؟ قالوا : لا نعلم إلا أنه دعا بدواة وقرطاس ، وكتب شيئاً لاندرى ماهو ، فدخلت ورفعت وسادة ، وإذا أنا برقعة مكتوب فيها :

يا رب إن عظمت ذنوبى كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلامحسن ... فمن الذى يدعو ويرجو المجرمُ
مالى إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل عفوك ثم إنى مسلمُ

وهذه حكاية العجمى والكردى وماجرى بينهما على يد القاضى بسبب الجراب

[١٠٧] **قيل** : إن الخليفة هارون الرشيد قلق ليلة ، فاستدعى بوزيره جعفر البرمكى ، فلما حضر عنده قال له : ياجعفر إنى قلقت وضاق صدرى وأريد منك شيئا يشرح خاطرى ، فقال له جعفر : يا أمير المؤمنين إن لى صديقا اسمه على العجمى، وعنده من جميع الحكايات والأخبار ؛ فقال : علىَّ به ، فقال سمعا وطاعة ، ثم إن جعفرا خرج من عند الخليفة فى طلب على العجمى فأرسل خلفه ؛ فلما حضر قال : أجب أمير المؤمنين، قال : سمعا وطاعة ، فأتى الخليفة فسلم وترحم ، فقال له: اجلس فجلس ، فقال له الخليفة : اسمع يا على إننى الليلة ضيق الصدر وقد سمعت عنك أن فى ذهنك حكايات وأخبارا وأريد منك أن تسمعنى مايزيل همى وفكرى، فقال : يا أمير المؤمنين تريد أن أحكى لك شيئاً سمعته ، أو رأيته ؟ فقال : إن كنت رأيت شيئاً فاحكه . فقال : سمعا وطاعة .

اعلم يا أمير المؤمنين : أنى سافرت فى بعض السنين من بلدى إلى هذه المدينة وهى بغداد وصحبنى غلام ظريف ومعه جراب نظيف ، فأودعنى إياه فبينما أنا أبيع وأشترى ، وإذا أنا برجل كردى ظالم معتد هجم علىَّ وأخذ الجراب منى ، وقال : هذا الجراب جرابى وكل مافيه قماشى

وثيابى ، فقلت: يامعشر الناس قد اعترانى الوسواس ، فقال الناس جميعا : امضوا إلى القاضى وأنا بحكمه راضى ، فدخلنا عليه وتمثلنا بين يديه .

فقال القاضى : فى أى شيء جئتما ؟ فقال الكردى : نحن خصمان، قال : أيكما المدعى ؟ فتقدم الكردى ، وقال : أيد الله مولانا القاضى هذا الحراب حرابى وكل مافيه قماشى وثيابى ، وقد ضاع منى ووجدته مع هذا الرجل . فقال القاضى : ومتى ضاع منك ؟ فقال الكردى : ضاع منى بالأمس ، فقال القاضى : إن كنت عرفته فصف لى مافيه ؟ فقال الكردى : إن فى حرابى هذا مرودين من لجين، وأكحلا للعينين ، ومنديلا لليدين ، ومشربتين مذهبتين ، وشمعدانين ، ومكبتين، وطبقين ، وإبريقين ، وصينية ، وطشتين ، وقدرة ، ودستين ، ومغرفة وملعقتين، ومسلة ، ومقلمة ، وملبتين وقعبا ، وقصعتين ، ومخدة ، ونطعين ، وحبة ، وفروتين، وبقرة ، وعجلتين ، وعنزا ، وشاتين ، ونعجة وخروفين ، وقطين أبلقين ، وحملا، وناقتين ، وبقرة ، وثورين ، ولبوة وسبعين ، ودبة وثعلبين ، ومرتبة وسريرين ، وطبقة وقاعتين ، ورواقا ومقعدين ، ومطبخا ببابين ، وجماعة ، أكراد يشهدون أن الحراب حرابى .

فقال القاضى : فما تقول أنت يا على ؟ فتقدمت يا أمير المؤمنين وقد بهتنى كلامه ، فقلت : أعز الله مولانا القاضى ؛ أنا ما فى حرابى إلا دويرة خراب ، وأخرى بلا باب ، ومقصورة للكلاب ، وفيه للصبيان كتاب وشباب يلعبون بالكعاب ، وفيه عساكر وأطناب ، ومدينة بصرى وبغداد ، وقصر كنعان بن شداد ، وكور وحداد ، وشبكة وصياد ، وعصا وأوتاد ، وبنات وأولاد ، وألف قواد يشهدون أن الحراب حرابى .

فلما سمع الكردى هـذا الكلام بكى وانتحب ، وقال : يا سيدى القاضى حرابى هذا معروف وكل مافيه موصوف فى حرابى هذا حصون ، وقلاع ، وقرى ، وضياع ، وطابق للصراع ، ووحوش وضباع ، ورجال يلعبون الطابة والرقاع، وإن فى حرابى هذا حجرة ومهرين ، وفحلا وحصانين ، ورمحين طويلين ، وسبعة وأرنبين، وسكينا وخنجرين ، وبحرا وخليجين ، وكمرا وخوختين ، وعشارى ومركبين ، وصارى وقريتين ، وكورا ودكانين ، ومنقلة ونردين ، وعجوزا وقحبتين، وقوادا وشاطرين ، ومختثا وعلقين ، وأعمى وبصيرين ، وأعرج ومكسحين ، وعياراً وأزعرين، وجامعا ومدرستين ، وديرا وكنيستين ، وقسيا وشماسين ، وبتركا وراهبين، وقاضيا وشاهدين يشهدون أن الحراب حرابى .

فقال القاضى : ما تقول أنت يا على ؟ فبادرت يا أمير المؤمنين ، وقد امتلأت غيظا وزدت فى الحمق ، وقلت: أيد الله مولانا القاضى إن فى حرابى هذا زرد خانات صفاح ، وخزائن سلاح ، وألف كبش نطاح فى عشرين مراح ، وأربعين كلبا نباح ، وبساتين وكروم عنب وتين وتفاح ، وصورا وأشباح ، وقنانى وأقداح ، وعرائس ملاح ، ومغانى وأفراح، وهرجا وصياح ، وعبدا وفلاح ، وأخاه نجاح ، ورفيقه صباح ، ومعهم سيوف ورماح ، وقسى ونشاب ، وأصدقاء وأحباب ، وخلان وأصحاب ، ومجلس للعتاب وندمان للشراب ، وطنبور مع رباب ، ونايات وقنانى مصفوفات ، وصبيان ودايات، وأخوات معلمات ، وبنات محليات ، وجوارى مغنيات ، وجوارى حبشيات ، وثلاثة هنديات ، وأربعة بدويات ، وخمسة روميات ، وستة تركيات ، وسبعة عجميات، وثمانية قفجيات ، وتسعة كرجيات ، وعشر كلبات ، والدجلة والفرات ، وشبكة وصياد ،

وقداحة وزناد ، وإرم ذات العماد ، وألف جواد ، وقصر شداد بن عاد وخانات مع حمامات ، وقدوم ونحار وخشبة مع مسمار ، وتاجر مع عطار، وبزار مع بيطار ، وعبد أسود بمزمار ، ومقدم وركبدار ، ومدن وأمصار ، ومائه ألف دينار، وبواب وكستدار ورأس نوبة ، وعلم دار والكوفة مع الأنبار ، وعشرين صندوقا ملآنة قماشا ، ودكان نحاس وحاصل معاش ، وبرجان للحمام ، وغزة وعسقلان، ومن دمياط إلى أسوان، وإيوان كسرى، وملك سليمان ، ومن كوش نعمان إلى أرض خراسان ، وبلخ وأصبهان ، ومن الهند إلى بلاد السودان ، وفيه أطال الله عمر مولانا القاضي : قماش وغلائل ، وعراضي وموسى بحد ماضي يحلق ذقن مولانا القاضي إن حكم إن الحراب ماهو جرابي .

فعند ذلك يا أمير المؤمنين حار القاضي مما سمع ثم قال : ما أراكما إلا شخصين نحسين تلعبان بالقضاة والحكام ؛ لأن ماوصف الواصفون ولاسمع السامعون ماوصفتما في هذا الحراب ، ماهذا إلا بحر ليس له قرار، ثم أمر القاضي بفتح الحراب ففتحه الكردي فإذا فيه خبز وليمون وجبن وزيتون ، ثم إني رميت الحراب أمام القاضي والكردي ومضيت إلى حال سبيلي .

فلما سمع أمير المؤمنين ذلك ضحك حتى استلقى على قفاه ، وقد زال همه وغمه وأحسن جائزة على العجمي وانصرف والله أعلم .

٨- فصل

معن بن زائدة الشيبانى[١]

كان من الكرماء ، يقال فيه : حدث عن البحر ولاحرج .

[١٠٨] و[قيل] : كان عاملا بالبصرة فحضر على بابه شاعر وأقام مدة يريد الدخول فلم يتهيأ له ، فقال : يوما لبعض الخدام إذا دخل الأمير البستان فعرفنى ، فلما دخل أعلمه بذلك ، فكتب الشاعر بيتا ونقشه على خشبة وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان ، وكان معن جالسا على القناة؛ فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها فإذا فيها هذا البيت مكتوب :

أيا جود معن ناج معنا بحاجتى فليس إلى معن سواك رسول

فقال : من الرجل صاحب هذه ؟ فأتى به إليه ، فقال :كيف قلت : فأنشده البيت فأمر له بعشر بدر[٢] ، فأخذها وانصرف فوضع معن الخشبة تحت بساطه ؛ فلما كان فى اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط ينظر فيها ودعا بالرجل ، فأمر له بمائة ألف درهم ؛ فلما كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك . فتفكر الرجل وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه ، فخرج من البلد بما كان معه ؛ فلما كان فى اليوم الرابع طلب الرجل فلم يوجد ،فقال معن:

---

(١) معن بن زائدة بن عبد الله بن مطر الشيبانى ، أبو الوليد : من أشهر أجواد العرب ، وأحد الشجعان العظماء . أدرك العصر الأموى والعباسى . أخباره كثيرة ، وللشعراء فيه أماديح ومراث من عيون الشعر ، ت[١٥١هـ = ٧٦٨م] . انظر : وفيات الأعيان (١٠٨/٢) ، خزانة البغدادى (١٨٢/١) .

(٢) بِدَر ، مفردها بَدْرة : عشرة الاف درهم .

والله هممت أن أعطيه حتى لايبقى فى بيت مالى درهم ولادينار إلا أعطيته له . وفيه يقول القائل :

يقولون معن لا زكاة لماله ... وكيف يزكى المال من هو باذله
إذا حال حول لم يجد فى دياره ... من المال إلا ذكره وجمائله
تراه ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت آمله
هو البحر من أى النواحى أتيته ... ولجته المعروف والبر ساحله
تعود بسط الكف حتى لو أنه ... أراد انقباضا لم تطعه أنامله
فلو أن ما فى كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سائله

ومن قول معن :

دعينى أهب الأموال حتى ... أعف الأكرمين عن اللئام

[١٠٩] ويروى : أن معن بن زائدة ، خرج فى جماعة يتصيدون فاعترضهم قطيع ظباء فتفرقوا فى طلبه ، وانفرد معن خلف ظبى ؛ فلما ظفر به نزل فذبحه ، فرأى شخصا مقبلا من البرية على حمار فركب فرسه واستقبله فسلم عليه ، وقال له : من أين أتيت ؟ قال : أتيت من أرض قضاعة[1] ، وإن لى بها أرضا لها عدة سنين مجدبة وقد أخصبت فى هذه السنة ، فزرعتها قثاء فطرحت فى غير وقتها فجمعت منها ما استحسنته وقصدت الأمير معن بن زائدة لكرمه المشهور ، ومعروفه المأثور ، وإحسانه المذكور ، فقال له : كم أملت منه ؟ قال : ألف دينار ، فقال : إن قال لك كثير ، قال : خمسمائة دينار ، قال : إن قال لك كثير ، قال :

---

(١) قضاعة : قبيلة عربية جنوبية من حمير من من قحطان اليمن .

ثلاثمائة دينار، قال : إن قال لك كثير ، قال : مائتى دينار ، قال : إن قال لك كثير ، قال : مائة دينار ، قال : إن قال لك كثير ، قال : خمسين دينارا ، قال : إن قال لك كثير ، قال : فلا أقل من ثلاثين ، قال : فإن قال لك كثير ، قال : أدخل قوائم حمارى فى حرامه وأرجع إلى أهلى خائبا ، فضحك معن منه وساق حواده حتى لحق بعسكره ونزل منزله ، وقال لحاجبه : إذا أتاك شيخ على حمار بقثاء فادخل به علىَّ . فأتى بعد ساعة ، فلما دخل على الأمير معن لم يعرفه لهيبته وجلالته وكثرة خدمه وحشمه وهو متصدر فى دست مملكته ، والحفدة قيام عن يمينه وشماله وبين يديه

فلما سلم عليه قال له الأمير معن : ما الذى أتى بك يا أخا العرب ؟ قال : أملت الأمير وأتيته بقثاء فى غير أوانها ، قال : فكم أملت فينا ؟ قال: ألف دينار ، قال : كثير، قال : خمسمائة دينار ، قال :كثير ، قال : ثلاثمائة دينار ، قال : كثير ، قال : مائتى دينار ، قال : كثير ، قال : والله لقد كان ذلك الرجل الذى قابلنى علىَّ مشؤما ، ثم قال : خمسين دينار ، قال : كثير، قال : فلا أقل من ثلاثين ، قال : فضحك معن وسكت ، فعلم الأعرابى أنه صاحبه .

فقال : يا سيدى إن لم تعطنى الثلاثين ، فالحمار مربوط بالباب وها أنا مع معن جالس، فضحك معن حتى استلقى على قفاه ، ثم استدعى بوكيله وقال له : أعطه ألف دينار ، وخمسمائة دينار ، وثلاثمائة دينار ، ومائتى دينار، ومائة دينار ، وخمسين دينارا وثلاثين دينارا ودع الحمار مربوطا مكانه فبهت الأعرابى ، وتسلم ألف دينار ومائة وثمانين دينارا فرحمة الله عليهم أجمعين .

[١١٠] وقيل : كان معن بن زائدة فى بعض صيوده ، فعطش فلم يجد مع غلمانه ، فبينما هو كذلك ، وإذا بثلاث حوار قد أقبلن حاملات ثلاث قرب فسقينه فطلب شيئاً من المال مع غلمانه فلم يجده ، فدفع لكل واحدة منهن عشرة أسهم من كنانته ، نصولها من ذهب ، فقالت إحداهن : ويلكن لم تكن هذه الشمائل إلا لمعن بن زائدة فلتقل كل واحدة منكن شيئاً من الأبيات فقالت الأولى :

يركب فى السهام نصول تبر ... ويرمى للعدا كرما وجودا
فللمرضى علاج من جراح ... وأكفان لمن سكن اللحودا

وقالت الثانية :

ومحارب من فرط جود بنانه ... عمت مكارمه الأقارب والعدا
صيغت نصول سهامه من عسجد ... كى لايفوته التقارب والندى[1]

وقالت الثالثة :

ومن جوده يرمى العداة بأسهم ... من الذهب الإبريز صيغت نصولها
لينفقها المجروح عند انقطاعه ... ويشترى الأكفان منها قتيلها

[١١١] وكان مع كرمه صاحب شهامة ، فمن ذلك : أنه سعى رجل فى إفساد دولة المهدى وكان من الكوفة فعلم به المهدى فهدر دمه وجعل لمن دل عليه مائة ألف درهم ، فأقام الرجل حينا مختفيا ، ثم ظهر فى بغداد فبينما هو فى بعض الشوارع إذ رآه رجل من الكوفة فعرفه ، فأخذ

---

(١) عَسْجَد : الذهب .

بمجامع طوقه ونادى هذا طلبة أمير المؤمنين ، فبينما الرجل على تلك الحالة وقد احتمع حوله خلق كثير ، إذ سمع وقع حوافر الخيل من ورائه فالتفت فإذا هو بمعن بن زائدة ، فقال : يا أبا الوليد أجرنى أجارك الله ، فوقف فقال للرجل الذى تعلق به : ما تريد منه ؟ قال : هذا طلبة أمير المؤمنين ، أهدر دمه وجعل لمن دل عليه مائة ألف درهم ، فقال له معن : دعه ، ثم قال : يا غلام أردفه فأردفه وكر راجعا إلى داره ، فصاح الرجل معن حال بينى وبين من طلبه أمير المؤمنين ، ولم يزل صارخا إلى أن أتى قصر المهدى فأمر المهدى بإحضار معن ، فأتته الرسل فدعا معن أولاده ومماليكه وقال : لا تسلموا الرجل وواحد منكم يعيش ، ثم سار إلى المهدى فدخل وسلم ، فلم يرد عليه، ثم قال : يامعن أتجير علينا عدونا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال المهدى : ونعم أيضا ، واشتد غضبه فقال معن : يا أمير المؤمنين بالأمس بعثتنى إلى اليمن مقدم الجيش فقتلت فى طاعتك فى يوم واحد عشرة آلاف رجل ، ولى على مثل هذا أيام كثيرة فما رأيتمونى أهلا أن أجير رجلا واحدا استجار بى ، ودخل منزلى ؛ فسكن غضب المهدى وقال : قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد ، قال معن : فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله بصلة يعلم منها موقع الرضا ، فإن قلب الرجل قد انخلع من صدره خوفا ، قال : قد أمرنا له بخمسين ألف درهم ، قال : يا أمير المؤمنين إن صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية ، قال : قد أمرنا له بمائة ألف درهم ، قال : عجلها يا أمير المؤمنين ، فإن خير البر عاجله ، فأحضر معن الرجل وقال له : خذ صلة أمير المؤمنين ، وقبل يده وإياك ومخالفة خلفاء الله فى أرضه ، فما كل مرة تسلم الحرة . فأرسلها الناس مثلا وأخذ الرجل المال واستغفر الله ، انتهى .

[١١٢] و[قيل] : كان معن لا يغيظ أحدا ولا أحد يغيظه ، فقال بعض الشعراء: أنا أغيظه لكم ولو كان قلبه من حجر ، فراهنوه على مائة بعير إن أغاظه أخذها ، وإن لم يغظه دفع مثلها .

فعمد الرجل إلى جمل فذبحه وسلخه ولبس الجلد مثل الثوب وجعل اللحم من خارج والشعر من داخل والذباب يقع عليه ، ويقوم ولبس برجليه نعلين من جلد الجمل ، وجعل اللحم من خارج والشعر من ناحية رجليه ، وجلس بين يدى معن على هذه الصورة المشروحة ومد رجليه فى وجهه وقال :

أنا والله لا أبدى سلاما على معن المسمى بالأمير

فقال له معن : السلام لله إن سلمت رددنا عليك ، وإن لم تسلم ما عتبنا عليك. فقال الشاعر :

ولا أنزل بلادا أنت فيها ولو حزت الشآم مع الثغور[1]

فقال له : البلاد بلاد الله ، إن نزلت فمرحبا بك وإن رحلت كان الله فى عونك . فقال الشاعر :

وأرحل عن بلادك ألف شهر أجد السير فى أعلا القفور

فقال له : مصحوبا بالسلامة . فقال الشاعر :

---

(١) الثغور ، مفردها ثغر : الموضع المحاذى للعدو . ويقصد : الشام مع الثغور ، أى الشام وما حولها .

أتذكر إذ قميصك جلد شاة وإذ نعلاك من جلد البعير

فقال له : أعرف ذلك ولا أنكره . فقال الشاعر :

وتأوى كل مصطبة وسوق بلا عبد لديك ولا وزير

فقال له : مانسيت ذلك يا أخا العرب . فقال الشاعر :

ونومك فى الشتاء بلا رداء وأكلك دائما خبز الشعير

فقال : الحمد لله على كل حال . فقال الشاعر :

وفى يمناك عكاز قوى تذود به الكلاب عن الهرير

فقال له : ماخفى عليك خبرها إذ هى كعصى موسى . فقال الشاعر :

فسبحان الذى أعطاك ملكا وعلمك القعود على السرير

فقال له : بفضل الله لا بفضلك . فقال الشاعر :

فعجل يا ابن ناقصة بمال فإنى قد عزمت على المسير

فأمر له بألف دينار . فقال الشاعر :

قليل ما أمرت به فإنى لأطمع منك بالشىء الكثير

فأمر له بألف دينار أخرى . فقال الشاعر :

فثلث إذ ملكت الملك رزقا بلا عقل ولا جاه خطير

فأمر له بثلاثمائة دينار . فقال الشاعر :

ولا أدب كسبت به المعالى ولا خلق ولا رأى منير

فأمر له بأربعمائة دينار . فقال الشاعر :

فمنـــك الجـــود والإفضـال حقا وفيـــض يديـــك كـالبحر الغزير

فأمر له بخمسمائة دينار ، ومازال يطلب منه الزيادة حتى استكمل ألفى دينار ؛ فأخذها وانصرف متعجبا من حلم معن وعدم انتقامه منه ، ثم قال فى نفسه : مثل هذا لا ينبغى أن يهجى بل يمدح ، واغتسل ولبس ثيابه ورجع إليه ، فسلم عليه ومدحه واعتذر له بأن الحامل له على هجوه المائة بعير التى صار الرهان عليها فى نظير إغاظته فأمر له بمائة بعير يدفعها فى نظر الرهان وبمائة بعير أخرى لنفسه فأخذها وانصرف ، والله أعلم .

obeikandl.com

٩- فصل

خلافة المأمون بن هارون الرشيد واسمه عبد الله[١]

[١١٣] ومما وضع في بطون الدفاتر : واستحسنته عيون البصائر ، ونقلته الأصاغر عن الأكابر ، مارواه خادم أمير المؤمنين المأمون قال طلبني أمير المؤمنين المأمون ليلة وقد مضى من الليل ثلثه فقال لي : خذ معك فلانا وفلانا وسماهما لي أحدهما على بن محمد والآخر دينار الخادم ، واذهب مسرعا لما أقول لك ، فإنه بلغني أن شيخا يحضر ليلا إلى آثار دور البرامكة ، وينشد شعرا ، ويذكرهم ذكرا كثيرا ، ويندبهم ويبكي عليهم ، ثم ينصرف؛ فامض أنت وعليّ ودينار حتى تردوا تلك الخرائب ، فاستتروا خلف بعض الجدران ، فإذا الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد أبياتا ، فأتوني به .

قال : فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرائب ، فإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسي حديد ، وإذا شيخ قد جاء وله جمال وعليه مهابة ولطف ، فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول هذه الأبيات :

ولما رأيت السيف جندل جعفرا ... ونادى مناد للخليفة يا يحيى

بكيت على الدنيا وزاد تأسفي ... عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

---

(١) عبد الله بن هارون الرشيد ، المأمون : من كبار خلفاء الدولة العباسية ، عنى بالأدب والعلوم ، وأنشأ "بيت الحكمة" في بغداد فازدهرت في عهده الترجمة والنقل ، ناصر المعتزلة ، وامتحن الناس في خلق القرآن . قتل أخاه الأمين . ت[٢١٨هـ = ٨٨٣م] . انظر : تاريخ بغداد (١٠/١٨٣) ، المسعودي (٢/٢٤٧) .

مع أبيات أطالها ، فلما فرغ قبضنا عليه وقلنا له : أجب أمير المؤمنين، ففزع فزعا شديدا وقال : دعونى حتى أوصى بوصية فإنى لا أوقن بعدها بحياة ، ثم تقدم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية وسلمها إلى غلامه ، ثم سرنا به . فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين قال حين رآه : من أنت وبما استوجبت منك البرامكة ماتفعله فى خرائب دورهم ؟ قال الخادم : ونحن نسمع ، فقال : يا أمير المؤمنين إن للبرامكة أيادى خضراء عندى ، أفتأذن لى أن أحدثك بحالى معهم ، قال : قل فقال : يا أمير المؤمنين أنا المنذر ابن المغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال .

فلما ركبنى الدين واحتجت إلى بيع ما على رأسى ورؤوس أهلى وبيتى الذى ولدت فيه ، أشاروا على بالخروج إلى البرامكة فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلاثين امرأة وصبيا وصبية وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ، ونزلنا فى بعض المساجد فدعوت ببعض ثياب كنت أعددتها لأستتر بها ، فلبستها وخرجت وتركتهم جياعا لا شىء عندهم ، ودخلت شوارع بغداد سائلا عن البرامكة ، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفى جانبه شيخ بأحسن زى وزينة ، وعلى الباب خادمان وفى الجامع جماعة جلوس فطمعت فى القوم ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم ، وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى والعرق يسيل منى ؛ لأنها لم تكن صناعتى ، وإذا الخادم قد أقبل ودعا القوم فقاموا وأنا معهم فدخلوا دار يحيى بن خالد .

فدخلت معهم وإذا يحيى جالس على دكة له وسط بستان فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحدا وبين يديه عشرة من ولده ، وإذا بأمرد نبت العذار

فى خديه قد أقبل من بعض المقاصير ، وبين يديه مائة خادم متمنطقون فى وسط كل خادم منطقة[1] من ذهب ، يقرب وزنها من ألف مثقال ، مع كل خادم مجمرة[2] من ذهب ، فى كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر[3] ، وقد قرن به مثله من العنبر السلطانى ، فوضعوه بين يدى الغلام وجلس إلى جنب يحيى، ثم قال للقاضى : تكلم وزوج ابنتى عائشة من ابن أخى هذا، فخطب القاضى خطبة النكاح وزوجه وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمى ، ونظرت وإذا نحن فى المكان ما بين يحيى والمشايخ وولده والغلام مائة واثنا عشر ، وإذا بمائة واثنى عشر خادما قد أقبلوا ومع كل خادم صينية من فضة على كل صينية ألف دينار ؛ فوضعوا بين يدى كل رجل منا صينية ، فرأيت القاضى والمشايخ يضعون الدنانير فى أكمامهم ، ويجعلون الصوانى تحت آباطهم ويقوم الأول فالأول ، حتى بقيت وحدى لا أجسر على أخذ الصينية فغمزنى الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب فى كمى والصينية فى يدى، فقمت وجعلت أتلفت إلى ورائى مخافة أن أمنع من الذهاب ، فبينما أنا كذلك إلى أن وصلت إلى صحن الدار ويحيى يلاحظنى فقال للخادم : ائتنى بهذا الرجل ، فأتيته فقال : مالى أراك تلتفت يمينا وشمالا ؟ فقصصت عليه قصتى ، فقال للخادم : ائتنى بولدى موسى[4]

---

(١) المِنطقة:شقة تشد على الوسط فترسل الأعلى على الأسفل والأسفل ينجر على الأرض

(٢) مِجْمَرة : ما يجعل فيه العود والبخور .

(٣) الفِهْرُ : هو حجر رقيق ناعم يسحق به العود الذى جعلوه فى المجمرة .

(٤) موسى بن يحيى بن خالد البرمكى : أمير السند من رجال الدولة العباسية ، كان من غسان بن عباد فى أرض الهند ، وقبل رجوع غسان إلى العراق [٢١٦هـ] كتب إليه-

فأتاه به ، فقال له : يا ابنى إن هـذا الرجل غريب ، فخذه إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك فقبض موسى ولده على يدى ، وأدخلنى إلى دار من دوره فأكرمنى غاية الإكرام وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذ عيش وأتم سرور .

فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال لـه : الوزير أمرنى بالعطف على هذا الفتى ، وقد علمت اشتغالى فى بيت أمير المؤمنين فأقبضه إليك وأكرمه، ففعل ذلك وأكرمنى غاية الإكرام . ثم لما كان من الغد سلمنى أخوه أحمد . ثم لم أزل فى أيدى القوم يتداولونى مدة عشرة أيام ، لا أعرف خبر عيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء .

فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا: قم اخرج إلى عيالك بسلام فقلت : وا ويلاه سلبت الدنانير والصينية وأخرج على هذه الحالة ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، فرفع الستر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع ، فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لى : مهما كان لك من الحوائج فارفعها إلى فإنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به ؛ فلما رفع الستر الأخير رأيت حجرة كالشمس حسنا ونورا واستقبلنى منها رائحة الند[1] والعود ونفحات المسك ، وإذا بصبيانى وعيالى يتقلبون فى الحرير والديباج وحمل إلىَّ مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشور بضيعتين وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق

المأمون بتولية موسى ثغر السند . ت[٢٢١هـ = ٨٣٦م] . انظر : نوزهة الخواطر (٦٢/١) .

(١) النَدّ : عود يتبخر به .

وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة لايعلم الناس أَمِنَ البرامكة أنا أم رجل غريب .

فلما جاءتهم البلية ونزل بهم يا أمير المؤمنين من الرشيد ما نزل أجحف بى عمرو بن مسعدة ، وألزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج مالا يفى دخلهما به ؛ فلما تحامل على الدهر كنت في آخر الليل أقصد خرابات دورهم ، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إلىَّ وأبكى على إحسانهم .

فقال المأمون : على بعمرو بن مسعدة ، فلما أتى به قال له : تعرف هذا الرجل ؟ قال : يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة ، قال : كم ألزمته فى ضيعته ؟ قال : كذا وكذا ، فقال له : رد إليه كل ما أخذته منه فى مدته وأفرغهما له ليكونا له ولعقبه من بعده ، قال : فَعَلاَ نحيب[1] الرجل فلما رأى المأمون كثرة بكائه ، قال له : يا هذا قد أحسنا إليك ، فما يبكيك؟ قال : يا أمير المؤمنين وهذا أيضا من صنيع البرامكة لو لم آت خراباتهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبرى إلى أمير المؤمنين ففعل بى ما فعل ، من أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين ، قال إبراهيم بن ميمون ، فرأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه ، وقال : لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابك ، وإياهم فاشكر ، ولهم فأوف ولإحسانهم فاذكر ، انتهى .

[١١٤] **وقال إسحاق** : دخلت يوما على المأمون فى زمن الورد ، فقال لى: يا إسحاق هل قلت شيئاً فى الورد ؟ قلت : أقول بسعادة أمير

---

(١) نَحَبَ : رفع صوته بالبكاء .

المؤمنين وفكرت ساعة فلم تسمح قريحتى فى ذلك الوقت بشىء ، فخرجت من عنده وبقيت ليلتى ساهرا متفكر ، فلم يفتح على بشىء ، فلما أصبحت غدوت إلى دار الخلافة وإذا غلام الفضل بن مروان على باب المأمون ومعه سبع وردات على صينية فضة ينتظر الإذن فى الدخول بها عليه ، فسألته المهلة بها قليلا فامتنع ، فسألته ثانيا وقلت : أمهل قليلا ولك بكل وردة دينار ، فأحابنى إلى ذلك فدفعت له سبعة دنانير وأحببت أن لايصل إليه الورد قبل وصول الشعر وخرجت أقصد الأزقة لعلى أسمع شيئاً من أحد أو ينبعث خاطرى ، ولو ببيت واحد ؛ فبينما أنا كذلك ، وإذا أنا برجل يغربل التراب وهو ينشد ويقول :

اشرب على ورد الخدود فإنه ... أزهى وأبهى فالصبوح يطيب
ما الورد أحسن من تورد وجنة ... حمراء جاد بها عليك حبيب
صبغ المدام بياضها فكأنه ... ذهب بقالب فضة مضروب

فلما سمعته نزلت عن دابتى ودخلت مسجدا بالقرب منه وطلبته ، فلما أقبل سألته أن يمليها على فاعتل وقال : إن أردت فاعطنى بكل بيت عشرة دنانير ، فدفعتها له واستمليتها منه ، ثم عدت أنا وغلام الفضل بن مروان وإذا بالمأمون يشرب من وراء الستارة ؛ فلما حسيت العود قال : لجواريه اسكتن فقد جاء إسحاق فقدمت ذلك الورد بين يديه وأنشدت الأبيات فسمعت الشهيق والزفير من وراء الستارة ، ثم أخرج إلى بدرة فيها عشرة آلاف درهم فأعدت الأبيات ، فأخرج إلى بدرة أخرى ، فأعدت الثالثة فأخرج إلى بدرة ثالثة ، فأخذت فى غير الشعر ، فخرج إلىَّ خادم وقال: يقول لك أمير المؤمنين لو دمت على إنشادك لدمنا على البدرة ، ولو إلى الليل، انتهى من حلبة الكميت .

[١١٥] ويحكى عن العباس صاحب شرطة المأمون قال : دخلت إلى مجلس أمير المؤمنين ببغداد يوما ، وبين يديه رجل مكبل بالحديد فقال لى : يا عباس ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : خذ هذا إليك فاستوثق به واحتفظ عليه وبكر به إلى فى غد واحترز عليه كل الاحتراز . قال العباس : فدعوت جماعة حملوه ولم يقدر أن يتحرك ، فقلت فى نفسى : مع هذه الوصية التى أوصانى بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معى فى بيتى .

فلما تركوه فى دارى أخذت أسأله عن قضيته وحاله ومن هو فقال : أنا من دمشق فقلت : جزى الله دمشق خيرا ، فمن أنت من أهلها ؟ فقال : وعمن تسأل ، قلت : أو تعرف فلانا ؟ قال : ومن أين تعرف ذلك الرجل ؟ فقلت : وقعت لى معه قضية ، فقال : ما كنت بالذى أعرفك خبره حتى تعرفنى قضيتك معه ، فقلت : ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق فسمعت أهلها وقد خرجوا علينا ، حتى أن الوالى خرج فى زنبيل[1] من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه ، وهربت فى جملة القوم ؛ فبينما أنا هارب فى بعض الدور وإذا بجماعة يعدون ، فما زلت أعدو أمامهم حتى تجاوزتهم ومررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك وهو جالس على باب داره، فقلت : يا هذا أغثنى أغاثك الله ، قال : لا بأس عليك ادخل الدار فدخلت، فقالت لى زوجته : ادخل تلك المقصورة فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون هو والله عندك فقال : دونكم الدار فتشوها ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك

---

(١) زِنْبِيل : الجراب .

المقصورة وامرأته فيها فقالوا : ها هو هنا فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا ، وخرّج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاى من شدة الخوف ، فقالت المرأة : اجلس لابأس عليك ، فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل ، فقال : لا تخف فقد صرف الله عنك شرهم وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى .

فقلت : جزاك الله خيرا ، فما زال يعاشرنى أحسن معاشرة وأحملها وأفرد لى مكانا من داره ولم يحوجنى إلى شيء ولم يفتر عن تفقد أحوالى، فأقمت عنده أربعة أشهر فى أتم عيش وأرغده إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها ، فقلت له : أتأذن لى فى الخروج حتى أتفقد حال غلمانى فلعلى أقف منهم على خبر ، فأخذ علىَّ المواثيق بالرجوع إليه ؛ فخرجت وطلبت غلمانى فلم أر لهم أثراً فرجعت إليه وأعلمته بالخبر ، وهو مع هذا كله لا يعرفنى ولايعرف من أنا . فقال لى : علام تعزم ؟ فقلت: عزمت على التوجه إلى بغداد ، قال : إن القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج ، فقلت له : إنك قد تفضلت علىَّ هذه المدة ؛ لك على عهد الله إننى لا أنسى لك هذا الفضل ولأوفينك مهما استطعت ، قال : فدعا بغلام أسود ، وقال له : انعل الفرس الفلانى ، ثم جهز آلة السفر ، فقلت فى نفسى : ما أشك أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة له أو ناحية من النواحى ، فأقاموا يومهم ذلك فى كد وتعب .

فلما كان يوم خروج القافلة جاء فى السحر ، فقال : يا فلان قم فإن القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها ، فقلت فى نفسى : كيف أصنع وليس معى ما أتزود به ولا ما أكرى به مركبا ، ثم قمت فإذا هو وامرأته

يحملان بقجة[1] من أفخر اللباس ، وخفين حديدين ، وآلة السفر ، ثم جاءنى بسيف ومنطقة فشدهما فى وسطى ، ثم قدم لى غلاما وعلى كتفه صرتان وفوقهما مرتبة السفر وسجادة من أفخر ما يكون ، وأعلمنى بما فى الصرتين : أنه خمسة آلاف درهم وشد لى الفرس الذى أنعله بسرجه ولجامه وقال لى : اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك وأقبل هو وامرأته يعتذران إلى من التقصير فى أمرى ، وأركب معى من يشيعنى وانصرفت إلى بغداد وأنا أتوقع خبره لأوفى بعهدى له فى مجازاته ومكافأته، واشتغلت مع أمير المؤمنين ، فلم أقدر أتفرغ ، إلى أن أرسل إليه من يكشف خبره ؛ فلهذا أسأل عنه .

فلما سمع الرجل الحديث قال : قد أمكنك الله من الوفاء له ، ومكافأته على فعله ، ومجازاته على صنعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك ، فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : أنا ذلك الرجل ، وإنما الضر الذى أنا فيه قد غير عليك حالى ، وما كنت تعرفه منى ثم لم يزل يذكر لى تفاصيل الأسباب ، حتى أثبت معرفته ، فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه ، ثم قلت له : فما الذى صيرك إلى ما أرى ؟ قال : هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التى كانت فى أيامك فنسبت إلىَّ وبعث أمير المؤمنين بجيوش ، فضبطوا البلد فأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت وقيدت وبعث بى إلى أمير المؤمنين ، وأمرى عنده عظيم وهو قاتلى لا محالة ، وقد أخرجت من عند أهلى بلا وصية ، وقد تبعنى من ينصرف إليهم بخبرى وهو نازل عند فلان ، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لى أن

---

(١) بقجة : صُرة الثياب .

ترسل من يحضره لى حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأه وقمت بوفاء عهدك .

قال العباس : فقلت : يصنع الله خيرا ، ثم أحضر حدادا فى الليل وفك قيوده وأزال ما كان عليه من الأنكال ، وأدخله حمام داره وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ، ثم سير من أحضر إليه غلامه ؛ فلما رآه جعل يبكى ويوصيه فاستدعى العباس نائبه وقال : على بفرسى الفلانى والبغلة الفلانية حتى عد عشرة ثم عشرة من الصناديق من الكسوة كذا وكذا قال : ذلك الرجل وأحضر لى بدرة فيها عشرة آلاف درهم وكيسا فيه خمسة آلاف دينار ، وقال لعامله فى الشرطة : خذ هذا الرجل وشيعه إلى حد الأنبار .

فقال له : إن ذنبى عظيم عند أمير المؤمنين وخطبى جسيم ، وإن أنت احتجيت بأنى هربت بعث أمير المؤمنين فى طلبى كل من على بابه فأرادوا قتلى ، فقال : انج بنفسك ، ودعنى أدبر أمرى فقال : والله لا أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك ، فإن احتجت إلى حضورى حضرت ، فقال لصاحب الشرطة : إن كان الأمر على ما يقول فليكن فى موضع كذا، وكذا فإن أنا سلمت فى غداة غد أعلمته ، وإن أنا قتلت وقيته بنفسى كما وقانى بنفسه وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم ، وتجتهد فى إخراجه من بغداد .

قال الرجل : فأخذنى صاحب الشرطة ، وصيرنى فى مكان يشق به وتفرغ العباس لنفسه ، وتحنط وجهز له كفنا ، قال : فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا و رسل المأمون فى طلبى يقولون : يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم ، قال : فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين ، وإذا هو جالس

وعليه كآبه ، فقال : أين الرجل ؟ فسكت ، فقال : ويحك أين الرجل ؟ فسكت ، فقال : ويحك أين الرجل ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين اسمع منى ما أقول ، فقال :لله على عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك ، فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين إنه ما هرب ولكن اسمع ، حديثى معه : كيت وكيت، وقصصت عليه القصة جميعا ، وعرفته أنى أريد أن أفى له وأكافئه على ما فعله معى ، وقلت : أنا وسيدى ومولاى أمير المؤمنين بين أمرين إما أن يصفح عنى ، وقد وفيت وكافأت ، وإما أن يقتلنى فأقيه بنفسى وقد تحنطت وها كفنى يا أمير المؤمنين .

فلما سمع المأمون الحديث قال : ويحك لاحزاك الله خيرا عن نفسك إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة ، وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لاغير ؛ هلا عرفتنى خبره فكنت أكافئه عنك ، ولا أقصر بوفائى له ، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ههنا وقد حلف أنه لا يبرح حتى يعرف سلامتى ، فإن احتجت إلى حضوره حضر ، فقال المأمون : وهذه منه أعظم من الأولى اذهب الآن فطيب نفسه وسكن روعه وائتنى به حتى أتولى مكافأته عنك ، قال : فأتيت إليه وقلت : ليزل عنك حزنك إن أمير المؤمنين قال : كيت وكيت ، فقال : الحمد لله الذى لا يحمد على السراء والضراء أحد سواه ، ثم قام فصلى ركعتين ، ثم أتيت به إلى أمير المؤمنين ؛ فلما مثل بين يديه أقبل عليه وأدنى مجلسه وحدثه ، حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق ، فاستعفى عنها ، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ، ولجامها وعشرة أبغال بآلاتها ، وعشر بدر ، وعشرة آلاف دينار ، وعشرة مماليك بدوابهم ، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به ، وأطلق خراجه وأمر بمكاتبته بأحوال دمشق ، فصارت كتبه تصل إلى

المأمون ، وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لى : يا عباس هذا كتاب صديقك ، والله أعلم .

[١١٦] ويحكى عن إسحاق الموصلى أنه قال : خرجت ليلة من عند المأمون متوجها إلى بيتى ، فأحسست بالبول ، فعمدت لزقاق وقمت لأتمسح بالحيطان ، وإذا بزنبيل كبير بأربعة آذان ملبس ديباجا ، فقلت : إن لهذا سببا وبقيت متحيرا فى أمره فحملنى السكر على أن أجلس فيه فجلست ؛ فلما أحس بى الذين كانوا يرقبونه جذبوه إلى رأس الحائط فإذا أنا بأربع جوار يقلن لى : انزل بالرحب والسعة ومشت بين يدي جارية بشمعة ، حتى نزلت إلى دار ومجالس مفروشة ، لم أر مثلها إلا فى دار الخلافة ، فجلست فما شعرت بعد ساعة إلا بستور قد رفعت فى ناحية من الجدران ، وإذا بوصائف يتمشين وفى أيديهن الشمع ، وبعض محامر يحرق فيهن العود وبينهن جارية كأنها البدر الطالع ؛ فنهضت وقالت : مرحبا بك من زائر وجلست ، ثم سألتنى عن خبرى ، فقلت : انصرفت من عند بعض إخوانى وغرنى الوقت ، وحرقنى البول فعمدت إلى هذا الزقاق فوجدت زنبيلا معلقا، فحملنى السكر على أن جلست فيه فإن كان خطأ فالنبيذ أكسبنيه ، قالت: لاضير وأرجو أن تحمد عاقبة أمرك ، ثم قالت : فما صناعتك ؟ قلت : بزاز[1] ببغداد ، فقالت : هل رويت من الأشعار شيئا ؟ قلت : شيئا ضعيفا ، قالت : فذاكرنا شيئاً ، قلت : إن للداخل حشمة ، ولكن تبدئين أنت ، قالت : صدقت فأنشدتنى شعرا لجماعة من القدماء والمحدثين من أجود أقاويلهم ، وأنا مستمع لا أدرى مم أعجب من حسنها

---

(١) بزاز : بائع ثياب .

أم من حسن روايتها، ثم قالت : أذهب ماكان فيك من الحصر ؟ قلت : أى والله ، قالت : فإن رأيت أن تنشدنا، فأنشدتها شيئاً لجماعة من القدماء ما فيه مقنع ، فاستحسنت ذلك ، ثم قالت: والله ماظننت أن يوجد فى أبناء السوقة مثل هذا ، ثم أمرت بالطعام فأحضر فجعلت تقطع وتضع قدامى وفى المجلس من صنوف الرياحين وغريب الفواكه ما لا يكون إلا عند السلطان ، ودعت بالشراب فشربت قدحا ، ثم ناولتنى قدحا ، ثم قالت : هذا أوان المذاكرة والأخبار ، فاندفعت أذاكرها وقلت : بلغنى أن كذا وكذا وكان رجل يقال له : كذا حتى أتيت على عدة أخبار حسان ، فسرت بذلك وقالت كثر تعجبى أن يكون أحد من التجار يحفظ مثل هذا، وإنما هذه أحاديث ملوك ! فقلت : كان لى جار يحادث الملوك وينادمهم، وإذا تعطل حضرت معه فربما حدثت بما سمعت ، فقالت : لعمرى لقد أحسنت الحفظ وما هذه إلا قريحة جيدة وأخذنا فى المذاكرة ، إذا سكت ابتدأت هى ، وإذا سكتت ابتدأت أنا، حتى قطعنا أكثر الليل وبخور العود يعبق وأنا فى حالة لو توهمها المأمون لطار شوقا إليها .

فقالت : إنك من أظرف الرجال وضىء الوجه ، بارع فى الأدب وما بقى إلا شىء واحد ، قلت : وما هو ؟ قالت : لو كنت تترنم ببعض الأشعار؟ قلت : والله لقديما كنت ألفت به ولم أرزقه ، وأعرضت عنه وفى قلبى منه حرارة ، وكنت أحب فى مثل هذا المجلس شيئا منه لتكمل ليلتى. قالت : كأنك عرضت ، فقلت : والله ما هو تعريض قد بدأتِ بالفضل وأنتِ جديرة بذلك ، فأمرت بعود فحضر وغنت بصوت ما سمعت بحسنه مع حسن أدبها ، وجودة الضرب بالكمال الراجح ، ثم قالت: هل تعرف هذا الصوت ومن غنى به ؟ قلت : لا ، قالت : الشعر لفلان ، والغناء

لإسحاق ، قلت : و إسحاق هذا -جُعلت فداكِ- بهذه الصفة ؟ قالت : بخ بخ إسحاق بارع فى هذا الشأن ، فقلت : سبحان الله ، أعطى هـذا الرجل مالم يعطه أحد ، قالت : فكيف لو سمعت هذا الصوت منه ، ثم لم تزل على ذلك ؛ حتى إذا كان الفجر أقبلت عجوز كأنها داية لها ، وقالت : إن الوقت قد حضر فنهضت عند قولها . فقالت : لتستر ما كنا فيه ، فإن المجالس بالأمانات .

قلت : جُعلْتُ فداكِ لم أكن أحتاج إلى وصية فى ذلك ، فودعتها وجارية بين يدى إلى باب الدار ، ففتح لى فخرجت ، ورجت إلى دارى فصليت الصبح ونمت ، فانتهى رسول المأمون إلىَّ فسرت إليه ، وأقمت عنده نهارى .

فلما كان العشاء تفكرت ما كنت فيه البارحة ، وهذا شىء لا يصبر عنه إلا جاهل ، فخرجت وجئت إلى الزنبيل فوجدته على عادته ، فجلست فيه ورفعت إلى موضعى البارحة ، وإذا هى قد طلعت فقالت : لقد عاودت، فقلت : ولا أظن إلا أننى قد ثقلت وأخذنا فى المحادثة مثل تلك الليلة السالفة فى المذاكرة والمناشدة وغريب الغناء منها ، إلى الفجر فانصرفت إلى منزلى ، فصليت الصبح ونمت فانتهى رسول أمير المؤمنين إلى فمضيت إليه وأقمت نهارى عنده .

فلما كانت العشية وجه إلى خطابا ، وقال : أقسمت عليك لتجلسن حتى أجىء وأحضر ، فما كان حتى أن غاب وجالت وساوسى ؛ فلما تذكرت ما كنت فيه هان على ما يخصنى من أمير المؤمنين ، فوثبت مبادرا وخرجت جاريا حتى أتيت الزنبيل ، فجلست فيه فرفعت إلى

مجلسى . فقالت : صديقنا ، قلت : إى والله ؛ قالت: أجعلتها دار إقامة ؟ قلت : جُعلْتُ فداك ؛ حق الضيافة ثلاثة أيام ، فإن رجعت بعد ذلك فأنتم فى حل من دمى . ثم جلسنا على ذلك الحال ، فلما قرب الوقت علمت بأن المأمون لابد أن يسألنى فلا يقنع إلا بشرح القصة .

فقلت : إنى أراكِ ممن يعجب بالغناء ولى ابن عم أحسن منى وجها ، وأظرف قدا ، و أكثر أدبا ، وأطيب أرجا ، وهو أعرف خلق الله بغناء إسحاق ، فقالت : طفيلى وتقترح ! قلت لها : أنت المحكمة ، ثم قالت : إن كان ابن عمك على ما تصف فما نكره معرفته ، ثم جاء الوقت فنهضت وقمت وذهبت ، فلم أصل إلى دارى إلا ورسل المأمون قد هجموا علىَّ وحملونى حملا عنيفا فوجدته قاعدا على كرسى وهو مغتاظ.

فقال : يا إسحاق أخروجا عن الطاعة ؟ قلت : لا والله ، قال : فما قصتك أصدقنى ؟ قلت : نعم فى خلوة ؛ فأومأ إلى من بين يديه ، فتنحوا فحدثته الحديث وقلت له : وعدتها بك ، قال : أحسنت ، فأخذنا فى لذتنا ذلك اليوم والمأمون معلق القلب بها ، فما صدقنا أن جاء الوقت وسرنا وأنا أوصيه وأقول له : تجنب واحذر أن تنادنيى باسمى بحضرتها وغن وأنا لك تبع، وهو يقول : نعم . ثم سرنا إلى الزنبيل -فوجدناهما- اثنين فقعدنا فيهما ورفعنا إلى الموضع المعهود فحضرت وأقبلت وسلمت .

فلما رآها المأمون بهت فى حسنها وجمالها ، وأخذت تذاكره وتناشده الأشعار ، ثم أحضرت النبيذ -فشربنا- وهى مقبلة عليه مسرورة به، وهو أكثر فأخذت العود وغنت صوتا ، ثم قالت : وابن عمك هذا من التجار وأشارت إلىَّ ؟ قلت : نعم ، قالت : والله إنكما لقريبان ، فلما

شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطرب فصاح وقال : يا إسحاق قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : غن هذا الصوت ، فلما علمت أنه الخليفة نهضت إلى مكان فدخلته ، فلما فرغتُ من الصوت قال : انظر من رب هذه الدار ، فبادرت العجوزة ، وقالت : للحسن بن سهل[1] ، فقال : على به فغابت العجوز ساعة وإذا الحسن قد حضر ، فقال له المأمون : ألك ابنه ؟ قال : نعم ، قال : ما اسمها ؟ قال : بوران[2] ، قال : أمتزوجة؟ قال : لا والله ، قال : فإني أخطبها منك، قال : هي جاريتك وأمرها إليك، قال : قد تزوجتها على نقد ثلاثين ألفا تحمل إليك صبيحة يومنا هذا ، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا من ليلتنا ، قال : نعم ؛ ثم خرجنا .

فقال : يا إسحاق لا توقف على هذا الحديث أحدا ، فسترته إلى أن مات المأمون . فما اجتمع لأحد مثل ما اجتمع لى فى تلك الأربعة أيام مجالسة المأمون بالنهار و بوران بالليل والله مارأيت أحدا من الرجال مثل المأمون ولاشاهدت امرأة تقارب بوران فهما وعقلا ، والله تعالى أعلم انتهى من حلبة الكميت .

[١١٧] **وقيل** : كان المأمون يوما ، يأكل مع أبيه الرشيد فلما فرغ جعلت جارية تصب الماء على يدى الرشيد ، فنظر إليها المأمون وأشار

---

(١) الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسى ، أبو محمد :وزير المأمون بعد أخيه الفضل، ووالد بوران التى تزوجها المأمون . ت[٢٣٥هـ] . انظر : وفيات الأعيان (١١٧/٢) .

(٢) بوران بنت الحسن بن سهل : من أجمل النساء أدبا وأخلاقا ، بنى بها المأمون فى شهر رمضان سنة [٢١٠هـ] وأنفق على عرسها أموالا جمة ، ت[٢٧١هـ].انظر : أعلام النساء (١٥٩/١) .

إليها كأنه يقبلها ، فأنكرت ذلك بعينها وأبطات فى الصب بقدر النظر إلى المأمون، فقال لها الرشيد : لأى شيء صغى الإبريق فى يدك ، فوالله لئن لم تصدقينى الحق لأضربن عنقك ؟ فقالت : ياسيدى نظر إلى عبد الله المأمون وأشار كأنه يقبلنى ، فأنكرت ذلك بعينى ، فنظر الرشيد إلى المأمون فسقط مغشيا عليه كأنه ميت مما داخله من الخوف والفزع ، فأخذه وضمه إلى صدره وقال : يا عبد الله أتحبها ؟ قال : إى والله يا أمير المؤمنين ، فقال : هى لك ، خذ بيدها وادخل بها فى هذه القبة ففعل .

فلما خرج إلى الرشيد قال له : هل قلت فى هذا شيئاً ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ثم أنشد يقول :

ظبى كنيت بطرفى ... عن الضمير إليه
قبلته من بعيد ... فاعتل من شفتيه
ورد أخبث رد ... بالكسر من حاجبيه
فما برحت مكانى ... حتى قدرت عليه

[١١٨] **وعن أبى عبد الله النميرى أنه قال** : كنت يوما مع المأمون وكان بالكوفة، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر ؛ فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة فأطلق عنان فرسه وكان على سابق من الخيل ، فأشرف على نهر من ماء بحر الفرات ، فإذا هو بجارية عربية خماسية القد، قائمة النهد ، كأنها القمر ليلة تمامه ، وبيدها قربة قد ملأتها من النهر ورفعتها عن كتفها ، وصعدت من حافة النهر فانحل وكاؤها[1] فصاحت

(١) وكاؤها : الحامل الذى تشد عليه القربة .

برفيع صوتها : يا أبت أدرك فاها قد غلبنى فوهـا لاطاقة لى بفيهـا . قـال: فعجب المأمون من فصاحتها ورمت القربة من يدها ، فقال لهـا المـأمون : يا جارية من أى العرب أنت ؟ فقـالت : أنـا مـن بنـى كـلاب ، قـال : ومـا حملك أن تكونى من الكلاب ؟ قالت : والله لست من الكـلاب وإنمـا أنـا من قوم كرام غير لئام يقرون الضيف ويضربون بالسيف ، ثم قالت : يا فتى من أى الناس أنت ؟ قال : أو عندكم علم بالأنساب ؟ قالت : نعم ، قـال : أنا مـن مضـر الحمـراء، قـالت : مـن أى مضـر ؟ قـال : مـن أكرمهـا نسبا وأعظمها حسبا وخيرها أما وأبا ممن تهابه مضـر وتخشـاه ، قـالت: أظنـك من كنانة ، قال : أنا من كنانة ، قالت : من أى كنانة ؟ قال : مـن أكرمهـا مولدا وأشرفها محتدا وأطولها فى المكرمات يدا ممن تهابه كنانة وتخشاه، قالت: والله أنت من بنى هاشم ، قال : أنا من بنى هاشم ، قالت : مـن أى هاشم ؟ قال : من أعلاها منزلة وأشرفها قبيلة ، ممن تهابه هاشم وتخشاه ، قال : فعند ذلك قبلت الأرض ، وقالت : السـلام عليـك يـا أمـير المؤمنيـن وخليفة رسـول رب العـالمين ، قـال: فعجـب المـأمون منهـا وطـرب طربـا شديدا ، ثم قال : لأتزوجن بهـا لأنهـا مـن أكبر الغنـائم ، ثـم وقـف حتـى تلاحقته العسكر فنزل وأرسل خلـف أبيهـا وخطبهـا منـه فزوجـه بهـا وهـى والدة العباس ، والله أعلم .

[١١٩] ومن محاسن الأخلاق ، ما حكـى عـن القـاضى يحيى بـن أكثم قال : كنت نائما ذات ليلة عنـد المـأمون ، فعطـش فـامتنع أن يصيـح بغلام يسيقه وأنا نـائم فينغـص علـىَّ نومـى ، فرأيتـه وقـد قـام يتمشـى علـى أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء، وكان بينه وبين المـاء نحـو ثلاثمائـة خطوة ، ثم رجع يتمشى علـى أطـراف أصابعـه حتـى وصـل إلـى الفـراش ،

الذى أنا عليه رخطا خطوات لطيفه لئلا ينبهنى حتى وصل إلى فراشه ، ثم رأيته آخر الليل وقد قام يبول فقعد طويلا يحاول أن أتحرك فيصيح للغلام، فلمّا تحركت وثب قائما وصاح بالغلام وتأهب للصلاة ؛ ثم جاء إلىَّ وقال: كيف أصبحت يا أبا محمد ، وكيف مبيتك ؟ قلت : بخير مبيت جعلنى الله فداك .

قال : قد استيقظت للصلاة فكرهت أن أصيح بالغلام فأزعجك ، فقلت : يا أمير المؤمنين لقد خصك الله بأخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ووهب لك سيرتهم ، فهناك الله بهذه النعمة وأتمها عليك فأمر لى بألف دينار وانصرف .

[١٢٠] وحدث سليمان الوراق قال : ما رأيت أعظم حلما من المأمون دخلت عليه يوما ، وفى يده فص مستطيل من ياقوت أحمر له شعاع قد أضاء له المجلس ، وهو يقلبه بيده ويستحسنه ، ثم دعا برجل صائغ ، وقال له : اصنع بهذا الفص كذا وكذا ونزل فيه كذا وكذا ، وعرفه كيف يعمل به ؛ فأخذه الصائغ وانصرف ، ثم عدت إلى المأمون بعد ثلاث فتذكره، فاستدعى بالصائغ فأتى به وهو يرعد وقد انتقع لونه ، فقال المأمون: ما فعلت بالفص ؟ فتلجلج الرجل ولم ينطق بكلام ، ففهم المأمون بالفراسة أنه حصل فيه خلل ، فولى وجهه عنه حتى سكن جأشه ثم التفت إليه وأعاد القول ؟ فقال : الأمان يا أمير المؤمنين ، قال : لك الأمان ، فأخرج الفص أربع قطع وقال : يا أمير المؤمنين سقط من يدى على السندال فصار كما ترى . فقال المأمون : لا بأس عليك اصنع به أربع خواتم ، وألطف له فى الكلام حتى ظننت أنه كان يشتهى الفص على أربع.

فلما خرج الرجل من عنده ، قال : أتـدرون كـم قيمـة هـذا الفـص ؟ قلنا: لا ، قال : آشتراه الرشيد بمائة ألف وعشرين ألفا انتهى .

[١٢١] **ومن حلمه أيضا قال يحيى** : كنت أنـا والمـأمون يومـا فـى بستان ندور فيه فمشينا فى البسـتان مـن أولـه إلـى آخـره وكنـت ممـا يلـى الشمس والمأمون مما يلى الظل، فكان يجذبنى أن أكون فى الظل وهو فـى الشـمس فأمتنع من ذلك ، فإذا رجعنا قال لى: والله يـا يحيـى لتكونـن فـى مكانى ولأكونن فى مكانك حتى آخـذ نصيبـى مـن الشـمس كمـا أخـذت نصيبك منها .

فقلت : والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيلـك مـن هـول المطلع لفعلت ، ولم يزل بى حتى تحولـت إلـى الظـل وتحـول هـو إلـى الشـمس، ووضع يده على عاتقى وقال : بحياتى إليك إلا ما وضعت يدك على عـاتقى مثل ما فعلت فإنه لاخير فى صحبة من لاينصف .

[١٢٢] و[**قيل**] **من حلمه أيضا** : أنه كان لـه خـادم يسـرق طاسـاته التى يتوضأ فيهـا ، فقـال لـه المـأمون : إذا سـرقت شـيئا فـأتنى بمـا تسـرقه فأشتريه منك ، فقال له الخادم : اشتر منى هذه وأشار إلى التى بيـن يديـه ، فقال : بكم ؟ قال : بدينارين ، قـال: علـى شـرط إنـك لاتسـرقها ، قـال : نعم. فأعطاه دينارين ، فلم يعد الخادم يسرق بعدها شيئا لما رأى من حلمه والله أعلم .

[١٢٣] **وروى بعض أهل الأدب** : أن فتى من أهل الكوفـة قـد فـاق أهل زمانه فى الأدب والبيان والفصاحة باللسان ، ناقدا فى صناعته ، حافظـا للأقـدار ، راو للأشـعار ، خبيرا بسـير الملـوك فـى الأيـام السـالفة ، بصـيرا

بالبحث عن أمورهم فى الأيام الآنفة ، حاذقا فى التصنيف ، فائقا فى التأليف ، صبيح الوجه ، مقبول المشاهد حلو الشمائل وكان مع ذلك لايتوجه له وجه من العمل إلا عارضه فيه عائق وحال دونه حائل وقدر سابق ؛ فبقى حينا من الدهر وقد برز فى القدر والمال والجاه من كان عنده فى الصناعة متأخرا ، فضاق صدره وعيل صبره وصلت مقاليده . فخرج إلى بغداد واكترى[1] فى بعض خاناتها منزلا ، وأجمع رأيه على أن يحمل نفسه على خطب هائل ليكون فيه هلكة أو ملكة ، وتربص لذلك أن يرى وجها إلى أن عزم أمير المؤمنين المأمون أن يشرب يوما هو وصنوه[2] المعتصم

فأمر المأمون بالاستعداد ليوم سماه ليخلو فيه مع الحوارى منفردين عن سائر الندماء ، فظهر خبرهما بذلك وعرف الناس ذلك اليوم الذى عزما عليه، فعزم هذا الأديب المذكور على أن يتطفل فى ذلك على المأمون وأخيه المعتصم ، فمضى إلى إخوانه وأصدقائه فاستعار من هذا قباء وجبة وزردية ، ومن آخر منطقة وخفا وسيفا، ومن آخر برذونا ، ومن آخر ما يحتاج إليه من الطيب ، واستعد لذلك اليوم ودخل الحمام سحرا وتطيب ولبس وركب عند طلوع الشمس إلى دار المعتصم وقال للحاجب : عرّف الأمير أنى رسول أمير المؤمنين ، واستأذن لى عليه فسعى الحاجب عدوا حتى أخبر المعتصم ، فأذن له ؛ فلما دخل عليه وتمثل بين يديه قال له : سيدى إن أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك : أنسيت الوعد ألم يقدم إليك بالركوب لنخلو ونستريح يومنا هذا ، قال المعتصم : لا والله ما

---

(١) اكترى : استأجر .

(٢) صنوه : الأخ الشقيق .

نسيت ذلك ، ولكن تربصت ساعة ونمت نومة لأتقوى بذلك على انتصابى سائر النهار ، فقال الفتى : فعجل الآن أيها الأمير فإنه أمرنى أن لا أفارقك حتى آتيه بك ، فأمر المعتصم بإسراج مركوبه وأسرع فى التأهب ولبس ثيابه وتطيب وركب الفتى معه ، والمعتصم لاينكر شيئا من كلام الفتى ويتأمل للطافته وهيئته ولم يتوهم إلا أنه من بعض خواص المأمون ، وأخذ الفتى يحدث المعتصم ، وأقبل عليه بكليته ولم يتمكن من سؤاله شهوةً لاستماع حديثه ، حتى بلغ باب الخليفة فألقى الفتى نفسه عن دابته ، وأخذ يمشى بين يديه والحجاب لا ينكرون منه شيئاً ويظنون أنه من خدم المعتصم حتى نزل المعتصم ، وأخذ الفتى بركابه ودخل المجلس .

فلما استقر المعتصم فى مجلسه وجلس الفتى بين يديه ، وهو منهمك فى نوادره وأخباره والمعتصم مصغ إليه تعجبا مما يسمع من حسن كلامه ، وأُخبر المأمون أن المعتصم قد وصل ومعه رفيق لايعرف من هو ، فقال المأمون : أخى قد عرِف أن هذا المجلس اتفقنا عليه لا ينبغى أن يحضره أحد من الناس إلا من هو عديل النفس ، وقد أحسن أخى إذ جعل لنا ثالثا ، فإن المجلس إذا لم يحضره أكثر من اثنين تعطل لقيام أحدهما إلى الصلاة ، وإلى ما لابد منه . ثم خرج من ساعته فرحا وليس له همة إلا تصفح وجه الغلام واستنطاقه واعتباره قده وعقله .

فلما استقر على سرير ملكه والفتى عالم بما وقع فى نفس المأمون نهض قائما وقبل يد المأمون وعاد إلى مجلسه ، وأخذ فى نوادره وحديثه ومضحكاته ، وحسن أخباره وغرائب أشعاره كأنه يغرف من بحر وهو مع ذلك يوهم المأمون أنه من خواص المعتصم فساعة يكنيه وساعة يسميه ،

حتى غلب على قلب المأمون وأظهر الحسد لأخيه فى صحبته مثل هذا الغلام وكلامه ، وأمر المأمون بإحضار المائدة فنصبت بأنواع الطعام فأكلوا وغسلوا أيديهم ، ولمجلس الشراب انتقلوا وأمر المأمون بإحضار الحوارى من غير ستارة فحضرن وأخذن فى الغناء ، فما من صوت يمر إلا والفتى عارف به وبالغناء ومتى قيل وفيمن قيل فعز فى عين المأمون حتى ملأ عينه وتزايد حسده لأخيه فى صحبة مثله ، فمس الفتى بول ولم يجد للمدافعة سبيلا ، فقام وهو متيقن أنهما سيذكرانه ويتواصفان أمره وحاله إذا خلا المجلس ، فما هو إلا أن غاب من بين أيديهما ، حتى قال المأمون : لأخيه المعتصم يا أبا إسحاق من صاحبك هذا ، فوالله ما رأيت رجلا قط أكثر منه أدبا ، ولا أنظف هيئة ، ولا أشرف من شمائله ؟ فقال المعتصم : والله ما أعلم من هو وإنه جاءنى مبكرا برسالة أمير المؤمنين، فقال المأمون : سألتك بالله يا أخى أهو كذلك ؟ فقال إى والله الذى لا إله إلا هو، فقال المأمون : طفيلى ورب الكعبة وغضب وأمر الحوارى بالنهوض فنهضن ، وأقبل الفتى راجعا .

فلما نظر إلى خلو المجلس من الحوارى وإلى تغير وجه المأمون ، وقف على رأس المجلس ، وأقبل بوجه على المعتصم وقال : يا أبا إسحاق كأنى بك قد أخذت فى نوع الزور والبهتان ، وهذا المجلس من المجالس التى لا تحمل المزاح وما هكذا وعدتنى ، ثم قال : والله يا أمير المؤمنين ما بليت من أحد من الناس مثل ما بليت من هذا ، لأنه دائما أبدا يعرضنى لمثل هذا وأشباهه ، ويغرى بى ويوقعنى فى كل ورطة، ثم أقبل على المعتصم وقال : يا أبا إسحاق سألتك بالله وبحق أمير المؤمنين إلا ما أعفيتنى من ملاعبتك التى لا تحتمل وتؤدى إلى مؤاخذة أمير المؤمنين ،

ولم يزل يأتي بهذا وأمثاله حتى شك المأمون في أمره والتفت إلى أخيه المعتصم وقال : سألتك بالله يا أخي بحياتي عليك ألا ما أعلمتني حقيقة أمره ؟ فقال المعتصم : يا أمير المؤمنين برئت من ذمة الله ورسوله ومن حياتك وولايتك إن كنت أعرفه أو رأيته قط إلا في يومي هذا ، فقال الفتى: كذب والله يا أمير المؤمنين لقد كنت معه دهري الطويل وفي مواضع كذا وكذا ، وإن هذا فعله معي أبدا فضحك المأمون تعجبا ، وقال: ادخل فدخل وأمره بالجلوس فجلس ثم قال : لك الأمان إن صدقتني فصدقه الحديث على وجهه ، فأعجب من حسن منطقه ولطف مدخله ودقيق تصرفه ، وأمر بإعادة الجواري إلى مجلسهن فطربوا سائر يومهم .

فقال له المأمون : أخبرني بأعجب ما لحقك في قدومك من الكوفة إلى بغداد واجعله نظما ولاتكتم عني شيئاً ، فقال : نعم ثم أنشأ يقول :

بينا أنا راقد في البيت مكتئب ... مفكر في حصول الكد والقوت
وليس في البيت لي شيء ألم به ... وبي من الجوع ما يدني إلى الموت
إذا بصوت بباب الدار أسمعه ... والأذن مصغية مني إلى الصوت
ناديت من ذا الذي أرجوه لي فرجا ... نادى أنا فرج زن لي كرا البيت

فضحك المأمون حتى استلقى على فراشه ، ثم ضرب برجله الأرض من شدة إعجابه وقال : ثم ماذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين فخرجت ، فإذا هو صاحب الخان يطالبني بالكراء[1] فوعدته بأن يرجع إليّ مرة أخرى ، فمضى ومضيت على وجهي لا أعلم أين أتوجه فسألت كل من لقيته من

---

(١) الكراء : إيجار البيت .

صديق لى كنت أستأنس به ، فخطر على بالى بيتان من الشعر فى ذلك وهما :

غريب الدار ليس له صديق ... جميع سؤاله أين الطريق
تعلق بالسؤال لكل شخص ... كما يتعلق الرجل الغريق

فأشرفت يا أمير المؤمنين على جارية كأنها البدر ليلة كماله وهى تقول:

ترفق يا غريب فكل حر ... يمر بحاله سعة وضيق
وكل ملمة إن أنت فيها ... صبرت لها أتيح لها الطريق[1]

ثم قالت : خذ هذه فادفع بها فاقتك فوالله ما هى إلا مواساة من قوت ورمت إلى صدرى بقرطاس ، وإذا فيه عشرة دراهم فرجعت من فورى فوجدت صاحب الكراء قائما على الباب ، فدفعت إليه خمسة دراهم واستعنت بالباقى إلى أن وقعت هذه القصة وهذا الأمر الذى كلفنى وحملنى على ما فعلت وأنشأ يقول :

لعم آت فعلا غير مستحسن ... جهلا بفعل الأحسن الأملح
لكننى فى حالة أوجبت ... ضرورة إتيان مستقبح

فأعجب المأمون أمره واستحسنه ، وأمر له بمائة ألف درهم يصلح بها شأنه، وألحقه بمراتب الخاصة ، ورفعت منزلته عنده وصار أقرب الناس إليه ، وآخر خارج من عنده ، وأول داخل إليه ، وسمى طفيلى المعتصم وأنشد للمأمون يوما يقول :

---

(١) ملَمَّة : شِدة .

كـــانت لقلبـــى أهـــواء مفرقـــة فاستجمعت إذ رأتـك العيـــن أهوائـــى
تركـــت للنـــاس دنيـــاهم ودينهـــم شـــغلا بذلـــك عـــن دينـــى ودنيـــائى
وصار يحسدنى مـن كنـت أحسـده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى

فاستحسن المأمون الأبيات ، وأمر بكتبها على الستارة ، وصار الفتى إذا حضر يوم سرور المأمون لم يكن للمأمون هـم إلا اقتراح هـذه الأبيـات إلى أن ينقضى المجلس، ثم إن الفتى بعد أن حسنت حالته أرسل إلى الـدار التى أشرفت عليه منها الجارية ، فإذا هى لرجل من أهل بغداد من مباشريها وقد مات ولم يخلف ولدا سوى تلـك الجاريـة ومـا مـات حتى تضعضـع حاله ؛ فأعلم المأمون بذلك فأمر بخطبتها للفتـى ودفـع المهـر مـن عنـده ، وصار الفتى والجارية فى نعمة عظيمة بقية عمرهما ، والله أعلم.

[١٢٤] و[قيل] : سرق شـاب سـرقة فـأتى بـه إلـى المـأمون ، فـأمر بقطع يده فتقدم لتقطع يده فأنشد الشاب يقول :

يـدى يـا أمـير المؤمنيـــن أعيذهـــا بعفـــوك أن تلقـــى نكـــالا يشـــينها
فلا خير فـى الدنيـا ولاراحـة بها إذا مـــا شـــمال فارقتهـــا يمينهـا

وكانت أم الشاب واقفة على رأسه ، فبكت وقالت : يا أمير المؤمنين إنه ولدى وواحـدى ناشـدتك الله إلا رحمتنـى ، وهـدأت لوعتـى وجـدت بالعفو عمن استحق العقوبة فقال المأمون : هذا حد من حدود الله تعـالى ، فقالت : يا أمير المؤمنين اجعل عفوك عن هذا الحد ذنبا مـن الذنـوب التـى تستغفر منها، فرق لها المأمون وعفا عنه .

[١٢٥] وفي حياة الحيوان[1] قال : رأيت في بعض المجاميع بخط بعض العلماء الأكابر : أن المأمون أشرف يوما من قصره فرأى رجلا قائما وبيده فحمة وهو يكتب بها على حائط قصره فقال المأمون لبعض خدمه : اذهب إلى ذلك الرجل فانظر ما كتب وائتني به ، فبادر الخادم إلى الرجل مسرعا وقبض عليه ، وقال : ما كتبت فإذا هو قد كتب هذين البيتين :

يا قصر جمع فيك الشوم واللوم ... متى يعشش في أركانك البوم
يوما يعشش فيك البوم من فرحي ... أكون أول من ينعاك مرغوم

ثم إن الخادم قال له : أجب أمير المؤمنين ، فقال الرجل : سألتك بالله لا تذهب بي إليه ، فقال الخادم : لابد من ذلك ، ثم ذهب به . فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين وأعلمه بما كتب قال له المأمون : ويلك ما حملك على هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنه لا يخفى عليك ما حواه قصرك هذا من خزائن الأموال ، والحلى ، والحلل ، والطعام، والشراب ، والفرش ، والأواني، والأمتعة ، والحوارى ، والخدم ، وغير ذلك مما يقصر عنه ، وصفي ويعجز عنه فهمي ، وإني يا أمير المؤمنين قد مررت عليه الآن، وأنا في غاية من الجوع والفاقة فوقفت مفكرا في أمرى ، وقلت في نفسي : هذا القصر عامر عالٍ ، وأنا جائع ولا فائدة لنا فيه فلوكان خرابا ومررت به لم أعدم رخامةً أوخشبةً أومسماراً أبيعه وأتقوت بثمنه أو ما علم أمير المؤمنين رعاه الله قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ ... نصيب ولاحظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض له غير أنه ... يرجى سواها فهو يهوى انتقالها

---

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف الباء (١/٢٣٢) .

فقال المأمون يا غلام أعطه ألف درهم ، ثم قال : هى لك فى كل سنة مادام قصرنا عامرا بأهله مسرورا بدولته ، وأنشدوا فى معنى ذلك :

إذا كنت فى أمر فكن فيه محسنا ... فعما قليل أنت ماض وتاركه

فكم دحت الأيام أرباب دولة ... وقد ملكوا أضعاف ما أنت مالكه

[١٢٦] **ويحكى** : أنه تنبأ[1] رجل فى أيام المأمون ، فقال ليحيى بن أكثم القاضى: يا يحيى امض بنا مستترين حتى ننظر إلى هذا المتنبئ ، وإلى دعواه فركبا فى الليل مستترين ومعهما خادم ، حتى صار إلى بابه وكان مستترا بثوبه فاستأذنا عليه ، فخرج إليهما فقال : من أنتما ؟ فقالا : رجلان يريدان أن يسلما على يديك ، قال : ادخلا ، فدخلا وجلس المأمون عن يمينه ويحيى عن يساره ، فقال المأمون : إلى من بعثت ؟ قال: إلى الناس كافة ، قال : أفيوحى إليك أم ترى فى المنام أم ينفث فى قلبك ؟ قال: بل أناجى وأكلم ، قال : ومن يأتيك ؟ قال : جبريل ، قال : فمتى كان عندك؟ قال: الساعة قبل أن تأتيانى بساعة ، قال : فما أوحى إليك ؟ قال : أوحى إلى أنه سيدخل عليك رجلان فيجلس أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك والذى يجلس عن يسارك ألوط خلق الله تعالى ، فقال له المأمون : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وكان يحيى يعزى إلى ما قاله عنه المتنبئ ، انتهى .

---

(١) تنبأ أى ؛ ادعى النبوة كذبا .

[١٢٧] و[قيل][1] : دخل أبو نُواس على القاضى يحيى بن أكثم ودخل معه غلام جميل الوجه ، فقال الغلام : هذا مر علىّ وقبلنى كرها ففتن به القاضى فأنشد يقول :

إذا كنت للتخميش والبوس كارها ... فلا تدخل الأسواق إلا منقبا
ولا تظهر الأصداغ من تحت طرة ... وتشهر منها فوق خديك عقربا

فلما سمع الغلام ، أنشأ يقول :

لقد كنت أرجو أن أرى العدل بيننا ... فأعقبنى بعد الرجاء قنوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها ... إذا كان قاضى المسلمين يلوط

[١٢٨] ويحكى[2] : أنه كان عند المأمون يوما فقال له المأمون وهو يعرض له باللواط : يا يحيى من ذا الذى يقول :

قاض يرى الحد فى الزنا ولا ... يرى على من يلوط من باس

فقال له : الذى يقول :

ما أرى الحور ينقضى وعلى ... الأمة والٍ منكم بنى العباس

[١٢٩] ويقال : إن المأمون شرب يوما ومعه القاضى يحيى بن أكثم، فمال الساقى على القاضى حتى وقع سكران ، فأمر المأمون أن يلقى

---

(١) انظر : ثمرات الأوراق ص٤٠١ .

(٢) قلت : ونحن نربأ بالقاضى يحيى بن أكثم عن مثل هذه الحكايات التى دُسّت عليه حسدا ،وحقدا وننكرها ؛ كما أنكرها الإمام أحمد بن حنبل ، حيث قال : ما عرفت فيه بدعة . وكفى بشهادة إمام أهل السنة له . تقدمت ترجمته فقرة [٩١] .

عليه الورد والرياحين حتى يدفن فيها كأنه ميت ، وصنع بيتى شعر وقال : لمغنيته خذى العود وغنى على رأسه ، فغنت وقالت :

ناديته وهو حى لاحراك له	مزمل فى ثياب من رياحين
فقلت قم قال رجلى لا تطاوعنى	فقلت خذ قال كفى لايواتينى

فاستيقظ يحيى لرقة العود والجارية تغنى البيتين فقام وقال :

يا سيدى وأمير الناس كلهم	قد جار فى حكمه من كان يسقينى
سقانى الراح لم يمزج سلافتها	حتى بقيت سليب العقل لا الدين

[١٣٠] **قال الواقدى**[١] : كان إبراهيم بن المهدى ادعى لنفسه الخلافة بالرى[٢]، وأقام مالكها سنة وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوما وله أخبار كثيرة .

فمما حكاه قال : لما دخل المأمون الرى فى طلبى أثقل على الطلب وجعل لمن دل علىّ وأتاه بى مائة ألف درهم فخفت علّى نفسى وتحيرت فى أمرى ، فخرجت من دارى وقت الظهر وكان يوما صائفا وما أدرى أين أتوجه فمررت بزقاق لا ينفذ، فقلت : لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم إنالله وإنا إليه راجعون ، وخفت إن رجعت على أثرى يعلموا بى فرأيت فى

---

(١) محمد بن عمر بن واقد السهمى ، أبو عبد الله الواقدى : الحافظ ، صاحب المغازى والسير من أقدم المؤرخين فى الإسلام ، ت[٢٠٧هـ] . انظر : تذكرة الحفاظ (٣١٧/١) .

(٢) الرى : مدينة فى شمال إيران ، بضاحية طهران ، فتحها المسلمون فى صدر الإسلام، وازدهرت فى عهد العباسيين وكانت من العواصم الإسلامية التجارية والثقافية . ولد فيها هارون الرشيد . خربها المغول [٦١٧هـ] .

صدر الزقاق عبدا أسوداً قائمـا على بـاب داره، فتقدمت إليه وقلت لـه : عندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار ، قال : نعم وفتح البـاب فدخلت إلى بيت نظيف فيه حصر نظيفة وبسط ومخدات جلد ، ثم إنه أغلق الباب عليَّ ومضى ، فخفت أن يكون سمع الجعالـة فى حقى ، وأنـه عرفنى ومضى ليدلهم عليَّ فبقيت مثل الحبة فى المقلاه قلقا ميتا من الخوف .

فبينما أنا كذلك إذا أقبل ومعه حمال حامل كـل مـا أحتـاج إليه مـن لحم وخبز وقدر جديدة وجرة وكيزان جدد، ثم التفت إليَّ وقال : جعلنى الله فداك أنا رجل حجام ، وأنا أعرف إنك تنفر منى لما أتولاه من معيشتى فشأنك بما لم تقع عليه يدى ، وكان لى حاجة إلى الطعام فقمت وطبخت قدرا ما ظننت أنى أكلت مثلها قدرا ؛ فلما قضيت أربى قال لى: هـل لـك أن تشرب شيئاً فإنه يسلى الهم ، ويزيل الغم ، ويهد للنفس الفرح ؟ قلـت : ما أكره ذلك رغبة فى مؤانسته ، فأتى بقطرٍ ، ميز جديد ، وأحضر لى نقـلا وفاكهة فى أوانٍ جدد من فخار ثم قال بعد ذلك : إن أذنـت لـى -جعلت فداك- أن أقعد بناحية منك وآتى بشراب فأشـرب مسرورا بـك ؛ فقلـت : افعل ، ففعل وشرب ثلاثا ، ثم دخل إلى خزانة له فـأخرج عـودا مصلحـا ، ثم قال : يا سيدى ليس من قدرى أن أسألك أن تغنى ولكن قد وجب علـى مروءتك حرمتى ، فإن رأيت أن تشرف عبـدك بـأن تغنى لنفسـك ، والعبـد يسمع فافعل فقلت له : ومن أين لـك أنـى أحسـن الغنـاء ؟ فقـال متعجبـا : سبحان الله أنت أشهر من ذلك أنت : إبراهيم بن المهدى خليفتنا بـالأمس، الذى جعل المأمون لمـن يـدل عليـك مائـة ألـف درهـم ؛ فلمـا قـال ذلـك عظمت مروءتـه عنـدى وعلمـت أن نخوتـه أجـل ممـا بـذل فتنـاولت العـود فأصلحته وقد مر بخاطرى ذكر أهلى وولدى فقلت :

وعسى الذى أهدى ليوسف أهله وأعزه فى السجن وهو غريب
أن يستجيب لنا فيجمع شملنا فالله رب العالمين قريب

فقال : يا سيدى اجعل ما تغنيه مما أقتضيك به ، قلت : نعم ، فقال : غن لى :

إن الذى عقد الذى انعقدت به عقد المكاره فهو يملك حلها
فاصبر فإن الله يعقب راحة فلعها أن تنجلى فلعلها

فحسن عندى اقتراحه وشربت ، ثم قال غن لى :

وراء مضيق الخوف متسع الأمن وأول مفروح به آخر الحزن
فلا تيأسن فالله ملك يوسفا خزائنه بعد الخلاص من السجن

ففرح وشربت ، وقال غن لى :

إذا الحادثات بلغن النهى وكاد لهن تذوب المهج
وحل البلاء وقل العزاء فعند التناهى يكون الفرج

فغنيته وحسن فى نفسى اقتضاؤه ، وأنست به واستظرفته ثم قال : إن رأيت يا سيدى أن تأذن لى أن أغنى ما خطر ببالى وإن كنت من غير أهل هذه الصناعة ، فقلت : يكون ذلك زيادة فى أدبك ومروءتك فأخذ العود ثم قال : دستور ، ثم ضرب عليه وغنى ويقول :

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم سريعا ولا يغشى لنا النوم أعينا
إذا مادنا الليل المضر بذى الهوى حزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما نلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا

فقلت : والله ذهب عنى كل ما كان عندى من الفزع ، وسألته يغنى فغنى يقول :

تعيرنا أنا قليل عدادنا ... فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل
وأنا لقوم لانرى الموت سبة ... إذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول

فوالله لقد أجاد وذهب عنى كل ما كان من الفزع والجزع واستأنست به ، وأخذنى من الطرب ما لامزيد عليه وعالجنى النوم قبل أوانه، فنمت ولم أستيقظ إلا بعد المغرب، وجال فكرى فى هذا الحجام وأدبه وظرفه ، وكيف غناؤه وأدبه وإرادته أن يسلينى عما أنا فيه ، وإشارته إلى تخصيصه بالوفاء لضيفه ونصره لجاره ، فقعدت وغسلت وجهى وأيقظته ، وأخذت خريطة كانت صحبتى فيها دنانير ومصاغ له قيمة، فدفعتها إليه وقلت له : أنت فى وديعة الله وحفظه فإنى ماض عنك وأسألك أن تصرف ما فى هذه الخريطة[1] فى بعض مهماتك ، ولك عندى إذا أمنت المزيد، فأعادها علىَّ مبادرا ، وقال : يا سيدى الصعلوك من لا قيمة له عند أهل الرياسات ويظنون فيه الظنون الرديئة ، أفآخذ على ما وهبنى الله من قربك وحلولك فى منزلى ثمناً ؟ لا والله ، فألححت عليه ، فأخذ موسى له بيده ، وقال : والله إن راجعتنى لأنحرن نفسى ، فخشيت عليه وأخذت الخريطة وأثقلنى حملها ، فلما انتهيت إلى باب الدار قال : يا سيدى إن هذا الموضع أخفى لك من غيره وليس عندى فى مؤنتك ثقل، فأقم عندى

---

(١) الخَرِيطة : وعاء من الجلد .

إلى أن يفرج الله عنك فرجعت وسألته أن يكون منفقا من تلك الخريطة ، فلم يفعل وكان كل يوم يفعل بى مثل ما فعل فى اليوم الأول .

قال : فأقمت أياماً فى أطيب عيش وأهناه ، ثم سئمت من الإقامة عنده وخشيت الثقل عليه ، فتركنى ومضى يجدد لنا حالنا ، فلبست ثيابى وتزينت بزى النساء : بالخف والنقاب ، وخرجت . فلما صرت فى الطريق داخلنى من الخوف والفزع أمر شديد ومشيت لأعبر الجسر ، وإذا هو قدرش ورجل قائم فأبصرنى بعض من كان فى خدمتى من الجند ، فتعلق بى وقال : طلبة أمير المؤمنين فدفعته فى صدره فوقع فى الزلق[1] ، وصار عبرة وتبادر الناس إليه ، فاجتهدت فى المشى حتى قطعت الجسر ودخلت زقاقا فوجدت بابا وامرأة واقفة فقلت : يا سيدة النساء احقنى دمى فإنى رجل خائف ، فقالت: ادخل فدخلت فأطلعتنى إلى غرفة وفرشت لى ، وقدمت لى طعاما وقالت : ليهدأ روعك فإنه لا يعلم بك مخلوق ، ولو أقمت سنة ما عليك بأس، وإذا بالباب يدق فخرجت ، وفتحت الباب ، فإذا هو صاحبى الذى دفعته على الجسر وهو مشدوخ[2] الرأس ودمه يسيل على ثيابه فقالت له : ما دهاك ؟ قال : إن حديثى عجيب وأمرى غريب ظفرت بالغنى ، وقد انفلت من يدى. قالت : وكيف ؟ قال : إبراهيم بن المهدى لقيته فتعلقت به فدفعنى فأصابنى ما ترين من حالى ، ولو حملته إلى أمير المؤمنين ، لأخذت منه مائة ألف درهم . قال : فأخرجت له حراقا وذروراً وفرشت له بعد كبس جرحه، فنام قليلا وطلعت . وقالت لى : أظنك

---

(١) الزَّلَق : أرض ملساء لا تثبت عليها قدم .

(٢) مشدوخ : مكسورة .

صاحب القصة؟ قلت: نعم ، فقالت لى : إنى خائفة عليك ، ثم جددت لى الكرامة وأقمت عندها ثلاثة أيام . ثم قالت لى : إنى خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع على أمرك، فينم عليك ، فانج بنفسك ، فسألتها إمهالى إلى الليل .

فلما دخل الليل ، لبست زى النساء وخرجت من عندها ، وأتيت إلى بيت مولاة لنا ؛ فلما رأتنى بكت وتوجعت وحمدت الله تعالى على سلامتى، وخرجت كأنها تريد كرامتى فتوجهت للسوق مظهرة الاهتمام بالضيافة فظننت خيرا ، فلم أشعر إلا بإبراهيم الموصلى بخيله ورجله والمولاة معه حتى سلمتنى إليه ؛ فرأيت الموت عيانا وحملت مثل ما أنا إلى أمير المؤمنين . فجلس مجلسا عاما وأمر بإدخالى عليه .

فلما مثلت بين يديه سلمت عليه سلام الخلافة ، فقال لى : لا سلمك الله ، ولا حفظك، ولا رعاك . فقلت: يا أمير المؤمنين إن ولى الثأر محكم فى القصاص، والعفو أقرب للتقوى ، ومن تناولته يد الأقدار ربما مد له من أسباب الرجاء ، ما يأمن معه عادية الدهر وقد جعلك الله فوق خلقه، وأصبح عفوك فوق كل ذى عفو، فإن تأخذ فبحقك ، وإن تعف فبفضلك وأنشدت أقول :

ذنبى إليك عظيم ... وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا ... فاصفح بحلمك عنه
إن لم أكن فى فعالى ... من الكرام فكنه

قال : فرفع رأسه إلى فقلت مبتدرا :

أتيـــت ذنبـــا عظيمـــا وأنـــت للعفـــو أهـــل
فـــإن عفـــوت فمـــنِ وإن جزيـــت فعـــدل

قال : فرق المأمون ، واسترجع فرأيت روائح الرحمة فى شمائله ، ثم أقبل على أخيه ، أبى إسحاق محمد المعتصم ، وابنه العباس[1] ، وجميع من حضر من خاصته ، وقال : ما ترون فى أمره ؟ فأشار الكل بقتلى ، إلا أنهم اختلفوا فى القتل. فقال المأمون لأحمد بن أبى خالد : ما تقول يا أحمد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن قتلته فقد وجدنا مثلك قتل مثله ، وإن عفوت لم نجد مثلك فى العفو . فنكس المأمون رأسه إلى الأرض وجعل يخط فى الأرض بأصبعه ، ثم رفع رأسه وقال :

قومـــى همـــو قتلـــوا أميـــم أخى فـــإذا رميـــت يصيبنـــى ســـهمى

ثم قال المأمون : لا بأس عليك يا عم : فقلت : ذنبى يا أمير المؤمنين أعظم من أن أفوه معه بعذر ، وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر ، ولكن أقول شعرا :

إن الذى خلق المكـارم حازهـا فـى صلـب آدم للإمـام السـابع
ملئت قلوب الناس منك مهابـة وتظـل تكلؤهـم بقلـب خاشـع

---

(١) العباس بن عبد الله المأمون بن هارون الرشيد : أمير عباسى . ولاه أبوه الجزيرة والثغور والعواصم [٢١٣هـ] ولما مات المأمون ، وولى المعتصم امتنع كثير من القواد والرؤساء من متابعته ونادو باسم ابن أخيه العباس بن المأمون ، فدعاه المعتصم إليه وأخذ بيعته ، فخرج العباس وسكن الناس وأقام إلى أن خرج المعتصم إلى الثغور ، فاتفق العباس مع بعض القواد على قتله ، فعلم المعتصم فقبض عليه وعلى أصحابه ، وسجنه إلى أن مات [٢٢٣هـ=٨٣٨م] .انظر :الأعلام (٢٦٢/٣) .

ما إن عصيتك والغواة تمدنى ... أسبابها إلا بنية طائع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله ... عفو ولم يشفع إليك بشافع
ورحمت أشبالا كأفراخ القطا ... وحنين والدة بقلب جازع

فقال المأمون : لا تثريب اليوم عليك[1] ، قد عفوت عنك ، ورددت عليك مالك وضياعك فأنشدت أقول :

رددت مالى ولم تبخل على به ... وقبل ردك مالى قد حقنت دمى
أمنت منك وقد خولتنى نعما ... نعم الحياتان من موت ومن عدم
فلو بذلت دمى أبغى رضاك به ... والمال حتى أسل النعل من قدمى
وإن جحدتك ما أوليت من نعم ... إنى إلى اللوم أولى منك بالكرم

فقال المأمون : إن من الكلام كلاما كالدر ، وهذا منه ؛ وأمر لى بمالى، وخلع على وقال : يا عم إن أبا إسحاق والعباس أشارا بقتلك ، فقلت : إنهما نصحاك يا أمير المؤمنين ولكن فعلت ما أنت أهله ودفعت ما خفت أنا بما رجوت ، فقال المأمون : لقد مات حقدى بحياة عذرك ، وقد عفوت عنك ؛ ثم سجد المأمون طويلا ؛ ثم رفع رأسه ؛ ثم قال : يا عم أتدرى لم سجدت ؟ قلت له : شكر الله تعالى على ما أوقعك على وملكك إياى فى يدك تفعل بى ما تشاء ، فقال : أخطأت ولكن أشكر الله تعالى على ما ألهمنى من العفو عنك من قبل نفسى ، ثم قال : وأعظم من عفوى عنك أننى لم أجرعك مرارة امتنان الشافعين فحدثنى بما كان من أمرك ، فشرحت له ما جرى لى مع الحجام ، والجندى وزوجته ، والمولاة التى أسلمتنى ، فأمر المأمون بإحضارها وهى فى دارها تنتظر الجائزة .

---

(١) لا تثريب عليك : أى لا لوم عليك .

فلما حضرت قال لها المأمون : ما حملك على ما فعلت من تسليمك إبراهيم مع إنعامه عليك ؟ قالت : رغبة فى المال ، قال : هل لك من ولد أو زوج ؟ قالت : لا ، فأمر بضربها مائة سوط وأمر بتخليدها فى السجن ، ثم أحضر الجندى وامرأته ، والحجام فسأل الجندى عن السبب الذى حمله على ما فعل ؟ قال: رغبة فى المال ، فقال : إنك أولى بأن تكون حجاما من أن تكون خداما ، ووكل من يلزمه الجلوس فى مكان الحجام ليتعلم الحجامة[1] وأحسن إلى امرأته وجعلها قهرمانة قصره وقال : هذه امرأة أديبة تصلح للمهمات ، وسلم للحجام دار الجندى وما فيها وخلع عليه وأثبته برزقه فى الديوان وزيادة ألف دينار فى كل سنة ؛ ولم يزل كذلك إلى أن مات ، والله أعلم .

[١٣١] **وعن محمد بن عبد الله التميمى قال** : حدثنا أحمد بن محمد الحريرى، قال : كان لحمنة بنت عبد الرحمن الهاشمى من الأموال، ما لا يسعه الديوان ، ولا تأكله النيران لكثرته ، وكانت آدب نساء بنى هاشم وأفصحهن لسانا ، وأقولهن شعرا ، فدخلت على المأمون يوما وكانت تحبه غاية الحب سرا ، وكان المأمون جالسا فى إيوان قد ابتدعه لنفسه لم يبتدعه أحد من الخلفاء قبله ، وكان قد تأنق فى بنائه وكان فيه من كل صورة فى البر والبحر ممثلة من الذهب والفضة ، وقد فرشه ببساط من الديباج الأصفر وأسبل عليه ستورا من الحرير الصينى وقد أقام فيه

---

(١) الحِجَامة : المداواة والمعالجة بالمِحْجَم ، قال الأزهرى : المحجم بالكسر هو الالة التى يجمع فيها الدم عند جذبه من الإنسان .

أربعمائة وصيفة بقراطق الحرير وقد لبسن الوشى[1] بطرر وشعور وإصداغ وهن بقد واحد ، لاتزيد الواحد منهن على الأخرى ؛ أقام مائتين عن يمينه ، ومائتين عن يساره .

فقال: ياحمنة هل كان لأبيك أو لبعلك أو لأحد من الخلفاء مثل هذا الإيوان ، مع فرشه ، ومثل هؤلاء الحوارى مع زينتهن ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين متعك الله به ، وعمره بك ، فلقد أوتيت ملكا عظيما تستأهله لترفهك وشرفك ، فإن أَحْبَبْتَ خادمتك حمنة؛ أجلستك فى مجلس لم تجلس فى مثله قط ، وأصادتك صيدا لم تصد مثله قط ، وأسقتك شرابا لم تشرب مثله قط ، وكان عنده يحيى بن أكثم . فقال لها : ياحمنة قد أَجَبْتُكِ إلى ماسألتينى ، ولكن لاينفعنى ولايهنأ لى ذلك إلا بمشهد من يحيى بن أكثم، فإنه لايطيب لى مجلس إلا به . فقالت : نعم يا أمير المؤمنين ثم ضربت يدها فى جيبها فأخرجت منه مخزنة من ذهب أحمر محشوة مسكا أذفر ، فدفعتها إلى يحيى وقالت: يا يحيى إن الأجير لا يعمل حتى يستوفى أجرته ، وهذه أجرتك منى فكن مستحثا لى أمير المؤمنين غدا عند الزوال فى المسير إلى منزل خادمته ، فقال : حبا وكرامة . ثم خرجت من عنده فهيأت ما تحتاج إليه للمأمون وغيره .

فلما كان من الغد جلس المأمون فى مجلس السلام . فلما زالت الشمس وصارت فى كبد السماء ، قال يحيى : ياأمير المؤمنين الحاجة التى عرضت عليك بالأمس ، ففطن المأمون لذلك وقام من مجلسه ولبس ثياب

---

(١) الوَشَى : الثوب المنمنم المنقوش .

التجار ولبس يحيى مثل ذلك ، ودعا بحمارين مصريين بغاشيتين وركباهما حتى أتيا دار حمّنة ، فدقا الباب دقا خفيفا ، فسمعته فأقبلت بنفسها حتى فتحت الباب ، وأقبلا يمشيان جميعا حتى انتهوا إلى بيت فى بستان قد حمل على أربعة أعمدة من الرخام الأحمر المنقوش وإذا فى صدر البيت أربعة أسطر منقوشة بالدر وصنوف الجوهر وهى :

ما سرنى أن فؤادى ولا	أن لسانى بالمدام حلا
وأن لى ملك بنى هاشم	يجىء إلىّ أوّلا أوّلا
إن لم أشاهدك أياما لكى	تأتى إلى بيتى كذا مقبلا
يا سائلى روحى بلا علة	أنت المعافى وأنا المبتلى

فقال المأمون : يا يحيى ما ملك أحد من الخلفاء مثل هذا البيت ، وإذا فرشه أرمنى محفور منقوش باللآلئ ، وإذا فوق الأرمنى مطارح من الديباج الأخضر حشوها حواصل الريش ، وفى البيت المسك والعنبر والكافور والصندل والزعفران والند والعود مصفوف فى أوانى الذهب والفضة ، وتفوح منه روائح لايدرى ماهى من طيبها ؛ ثم أخرجتهما إلى أربعة ميادين فيها أنواع الرياحين حول البيت.

فقالا : إن هذا إلا سحر يؤثر ، ثم دعت لهما بمائدة من الخزع اليمانى قوائمها منها قطعة واحدة فوضعت وقدمت عليها الألوان الغريبة ، فقال المأمون : ما طعمت مثل هذا الطعام قط، ثم دعت بالطشت والإبريق فغسلا أيديهما ، ثم أمرت بشراب فقدمت إليهما قنانى الزجاج الشامية المرتفعة الصافية والبلور فيها شراب قد أتت عليه الأيام والأعوام، فهى تحكى الهواء لرقتها ، والياقوت لحمرتها والزنجبيل لحدتها ، ووضعت بين

أيديهما مع أقداح وأنطال[1] تشاكل ذلك ؛ فقال المأمون : والله ما رأيت مثل هذا قط ، ثم أخرجت جاريتين عليهما ثياب الوشى الكوفى المنسوج بالذهب وعلى رؤوسهما مقانع رشيدية وتيجان من الذهب مكللة بالجوهر، فجلستا وفى حجرهما العيدان المبسوطة الموزونة ، فحركتا الأوتار وغنتا بصوت شجى مليح من أنواع الأغانى وغرائب الأصوات.

فقال المأمون : هذه الجنة بما نرى فيها من غرائب الطيب والجوهر، فقال يحيى : وقد بقى لنا يا أمير المؤمنين شرط آخر ، فقال : وما هو يا يحيى؟ قال : الصيد يا أمير المؤمنين ، قال : صدقت يا يحيى ، ثم قال : يا حمنة ما فعل الصيد ؟ فقالت : قوما إليه فقام المأمون ويحيى حتى دخلا بستانا لم يريا مثله ، وقد كانت زينت البستان بأحسن ما تقدر عليه ، واتخذت فيه ألوان الطيور من الفاخت ، والقمرى ، والهزار ، والطواويس فكانت الأطيار تغنى من رؤوس الأشجار ، وتغرد بالسر والأجهار ، وقد كانت زينت مائة جارية نواهد أبكار بطرر وشعور وخدود ومباسم ساطعات الأنوار ، ترى كل واحدة منهن أبهى من صاحبتها وأحسن ، وعليهن من ألوان الثياب ما يعجز عنه الوصف ، وفى وسطهن مناطق الذهب الأحمر، وتقدمت إليهن وقالت لهن : إذا رأيتن المأمون ويحيى تعادين ما بين الأشجار .

فلما دخل المأمون ويحيى البستان فعلن ما كانت أمرتهن فتضاعف السرور على المأمون وأعجب المأمون بذلك عجبا شديدا ؛ ثم قال ليحيى:

---

(١) أنطَال ، مفردها النَيْطَل : وعاء يكال به الخمر واللبن ، ونحوهما .

هذا الصيد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين رأيك فيه ! فقال المأمون : لو كان لنا كلب لاصطدنا هؤلاء ، فقال يحيى : أنا كلبك يا أمير المؤمنين فعدا المأمون ويحيى فاصطادا منهن صبية ، فقالت حمنة : سألتك بحق أحدادك ألا ما خليت عن الحوارى لا لبخل أبخل بهن عليك ، وقد فهمت المعنى فيه ، وقد كانت حمنة تغار على المأمون ، فخلى عن الحوارى وقال ليحيى: دونك والصيد إذن أنت محل .

فقال يحيى : لو كان لى كلب لاصطدت من هؤلاء فقال المأمون : أنا كلبك فضحك يحيى وضرب بقلنسوته الأرض ، وعدا خلفهن فأخذ منهن خمسة ، فقالت حمنة : يا يحيى لك الخمسة ولاغيرة لى عليك ، وإنما أغار على المأمون لحاجتى إليه ، فقال يحيى : والله يا أمير المؤمنين لقد رأيت الهوى الغالب فى حماليق عينيها ولا تتم لنا النعمة إلا بتزويجك إياها إن رأيت ذلك، فقال المامون : أنا برىء من رسول الله ﷺ ومنتف من جدى العباس إن ذهبت من البستان ولم أتزوجها ، ثم قال : يا يحى أخطب خطبة النكاح ، فخطب يحيى وأمهرها المأمون ألف ألف دينار وأقطعها مائة من منتخبات الضياع ؛ فحمدت حمنة الله سرورا بما ظفرت من تزويج المأمون إياها ؛ وأمرت ليحيى بعشرة آلاف دينار ، ورجع المأمون إلى منزله وزفت إليه فى تلك الليلة فواقعها فحملت بالعباس ابنه انتهى .

[١٣٢] وحكى : أن المأمون كان مشغوفا بحب جارية يقال لها : نسيم ، وكانت ذات عقل وأدب وفضل وكمال ، وكان لا يفارقها فى الحضر ولا فى السفر ؛ ثم بعد ذلك مال إلى جارية أخرى أحسن منها

وأعرض عنها ، فاغتمت ولم تجد حيلة فى استعطافه ، وكانت لها جاريه رومية أحسن منها فى العقل والأدب ، وكتمت أمرها عن المأمون . فاتفق أن المأمون حصل له بعض ضعف ففصد[1] فحصل له الشفاء ، فجعل الناس يدخلون إليه بأصناف التحف والهدايا ، فأهدت إليه نسيم الجارية المذكورة هذية ومعها جام بلور[2] وغطته بمنديل ديبقى مكتوب عليه بالذهب هذه الأبيات :

فصدت عرقا تبتغى صحة	ألبسك الله به العافية
فاشرب بهذا الجام يا سيدى	مستمتعا بهذه الجارية
واجعل لمن أهداكها زورة	تحظى بها فى الليلة الثانية

فأعجب المأمون ما رأى من الجام والجارية ، ثم بعث لها يقول : نعم وفى هذه الليلة ثم رضى على نسيم وواصلها بعد ذلك .

[١٣٣] وحكى : أن المأمون مر يوما على زبيدة أم الأمين فرآها تحرك شفتيها بشىء لا يفهمه فقال لها : يا أماه أتدعين علىَّ لكونى قتلت ابنك وسلبته ملكه ،قالت: لا والله يا أمير المؤمنين ، قال : فما الذى قلتيه؟

قالت : يعفينى أمير المؤمنين فألح عليها ، وقال : لابد أن تقوليه قالت له : قلت : قبح الله اللجاجة[3] ، قال : وكيف ذلك ، قالت : لأنى لعبت يوما مع أمير المؤمنين الرشيد بالشطرنج على الحكم والرضا ، فغلبنى

---

(١) فَصَدَ المريض : شقّ عرقه حتى يسيل الدم .

(٢) جام بلور : كأس من البلور .

(٣) اللَّجَاجَة : التمادى فى العناد إلى الفعل المزجور عنه .

فأمرنى أن أتجرد من أثوابى وأطوف القصر عريانة ، فاستعفيته ، وبذلت له أموالا لا تحصى فلم يعف عنى ، فتجردت من أثوابى وطفت القصر عريانة، وأنا حقدة عليه ؛ ثم عاودنا اللعب فغلبته ، فأمرته أن يذهب إلى المطبخ فيطأ أقبح جارية وأشوهها خلقة ، فاستعفانى عن ذلك فلم أعفه ، فنزل لى عن خراج مصر والعراق فأبيت ، وقلت : والله لتطأنها فألححت عليه وأخذت بيده وجئت به إلى المطبخ ، فلم أر جارية أقبح ، ولا أقذر ، ولا أشوه خلقة من أمك ؛ مراحل ، فأمرته أن يطأها فوطئها ، فعلقت منه بك فكنت سببا لقتل ولدى وسلبه ملكه ، فولى المأمون وهو يقول : قاتل الله اللجاجة ، أى التى لج بها عليها حتى أخبرته بهذا الخبر انتهى[1] .

[١٣٤] [وقيل] : أتى شاعر المأمون ، فقال : لقد قلت فيك شعرا ، فقال : أنشدنيه فقال :

حياك رب الناس حياكا ... إذ بجمال الوجه رقاكا
بغداد من نورك أشرقت ... وأورق العود بحدواكا

قال : فأطرق المأمون ساعة ، وقال : يا أعرابى ، وأنا قد قلت فيك شعرا وأنشد يقول:

حياك رب الناس حياك ... إن الذى أملت أخطاك
أتيت شخصا قد خلا كيسه ... ولو حوى شيئاً لأعطاك

فقال يا أمير المؤمنين الشعر بالشعر حرام ، فاجعل بينهما شيئاً يستطاب، فضحك المأمون وأمر له بمال انتهى .

---

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١/١١٥) .

[١٣٥] وروى ابن عامر الفهرى عن أشياخه قال : أمر المأمون أن يحمل إليه من أهل البصرة عشرة رجال كانوا قد رموا عنده بالزندقة ، فحملوا إليه فمر بهم طفيلى[1] فرآهم مجتمعين ، فظن خيرا ومضى معهم إلى الساحل ، وقال ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة ، فانسل ودخل الزورق ، وقال : لا شك أنها نزهة ، فلم يكن إلا يسير حتى قيد القوم وقيد معهم ، فعلم أنه وقع فيما لا طاقة له ورام الخلاص فلم يقدر ، وساروا إلى أن وصلوا إلى بغداد ، وأدخلوا على المأمون فاستدعى بهم بأسمائهم واحدا بعد واحد وجعل يذكره بفعله وبقوله ويضرب عنقه حتى لم يبق إلا الطفيلى وفرغت العشرة .

فقال المأمون للموكل : من هذا ؟ فقال : لا أعلم يا أمير المؤمنين غير إننا رأيناه معهم فجئنا به، فقال : يا أمير المؤمنين امرأتى طالق إن كنت أعرف من أحوالهم شيئا ولا أعرف غير لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وإنما رأيتهم مجتمعين فظننت إنها وليمة يدعون إليها ، فلحقت بهم. فضحك المأمون ، وقال : أو قد بلغ من شؤم التطفل أن يحل بصاحبه هذا المحل ، لقد سلم هذا الجاهل من القتل ولكن يؤدب حتى لا يعود إلى مثلها ، وكان إبراهيم بن المهدى حاضرا ، فقال : يا أمير المؤمنين هبه لى، وأنا أحدثك عن نفسى فيما وقع لى فى التطفل من العجب ، فقال : وهبته لك هات حديثك .

فقال : يا أمير المؤمنين خرجت متنكرا يوما أنظر إلى سكك بغداد ، فاستهوى بى الطرب والتفرج فانتهى بى المسير إلى موضع شممت فيه

---

(١) طُفَيْلى : الذى يدخل وليمة ولم يُدع إليها ، وهو منسوب إلى رجل اسمه طُفَيْل .

رائحة طعام وأبازير[1] قد فاحت وهفت نفسى إليها ، ووقفت يا أمير المؤمنين لا أقدر على المشى فرفعت بصرى وإذا بشباك خلفه كف بمعصم ما رأيت أحسن منه ، فبقيت حائرا ونسيت رائحة الطعام بذاك الكف ، فأخذت فى عمل الحيلة إلى الوصول إليها ، فإذا بجانب المكان خياط فسلمت عليه فرد علىَّ السلام ، فقلت : يا سيدى لمن هذه الدار ؟ فقال: لرجل من البزازين ، فقلت : ما اسمه ؟ فقال : فلان ، قلت : هو ممن يشرب الخمر قال : نعم ، وأظن أن عنده اليوم أصحابه تجار مثله ، فبينما نحن فى الكلام إذ أقبل رجلان ، فقال لى : هذان ندماؤه ، فقلت له : ما اسمهما وما كنيتهما ؟ فقال لى: فلان الفلانى ، وفلان الفلانى ، فحركت ورائهما رجلى ، فلحقتهما فقلت : جعلت فداءكما استبطأكما فلان أعزه الله ، ولم أزل معهما حتى أتيت البيت فدخلت، ودخلا . فلما رآنى صاحب البيت بينهما لم يشك فى أنى معهما ، فرحب بى وأجلسنى فى أفضل الأماكن ثم جىء بالمائدة ، ونقلت إليها الألوان .

فقلت فى نفسى : هذه الألوان قد منَّ الله علىَّ ببلوغ الغرض منها بقى الكف والمعصم ، ثم جىء بالماء فغسلنا أيدينا ثم نقلنا إلى مجلس المنادمة، فإذا شكل مليح ما رأيت أحسن منه ولا أظرف ، ورأيت صاحب المكان يتلطف بى ويقبل على لظنه أنى ضيف لأضيافه ، وهم على الحالة هذه إلى أن شربنا فخرجت علينا جارية كأنها غصن بان فى غاية الظرف وحسن الهيئة ، فسلمت من غير خجل ولا احتشام وجلست وأتى بعود فجسته أحسن جس وإذا هى حاذقة فى الصناعة وغنت تقول :

---

(١) البِزْر ، جمعه أبْزَار ، وجمع الجمع أبازير : التابل ، وهو ما يطيب به الغذاء .

توهمها فكرى فأصبح خدها وفيه مكان الوهم من نظرى أثر
وصافحها كفى فآلم كفها فمن ضم كفى فى أناملها عقر

فهيجت يا أمير المؤمنين بلبالى فطربت لحسن شعرها وحذقها ، ثم غنت تقول :

أشرت إليها هل عرفت مودتى فردت بطرف العين أنى على العهد
فحادت عن الإظهار عمدا بسرها وحادت عن الإظهار أيضا على عمد

فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذاقتها وإصابتها معنى الشعر ، فضحكت لما أصابنى من الطرب الذى لم أملك نفسى معه ، ثم غنت تقول:

أليس عجيبا أن بيتا يضمنا و إياك لا نلهو ولا نتكلم
سوى أعين تبدى سرائر أنفس وتقطيع أنفاس على النار تضرم
إشارة أفواه وغمز حواجب وتكسير أجفان وكف يسلم

فزاد حسدى لها يا أمير المؤمنين على حذاقتها ، وإصابتها معنى الشعر ، لأنها لم تخرج عن المعنى ، وقلت : عليك يا جارية شيء ، فرمت العود من يدها ، وقالت : متى كنتم تحضرون الغناء ! فندمت على ما كان منى ، ورأيت القوم كأنهم قد أنكروا علىَّ ، فقلت فى نفسى : فاتنى جميع ما أملت وأحببت أن أتلافى قضيتى ، فقلت : أثم عود غير هذا ؟ قالوا : نعم فأحضروا عودا فأصلحت ما أردت إصلاحه ، ثم قلت:

ما للمنازل لا تجيب حزينا أصممن أم قد بالبلاء بلينا

فما أتممت شعرى ، حتى وثبت الجارية إلى وانكبت على يدى تقبلها، وتقول: المعذرة إليك يا سيدى والله ما علمت مكانك ولا سمعت بهذه الصناعة من أحد ، ثم زادوا إكرامى وطربوا غاية الطرب ، فشربت عدة أقداح ثم غنيتهم أبياتا فرأيت من طربهم شيئاً عظيما ، حتى قلت : إن أرواحهم فارقت أبدانهم فسكت عنهم ساعة حتى تراجعوا إلى عقولهم فغنيتهم ، وقلت :

هذا محبك مطوى على كمده ... وحدا وأدمعه تجرى على جسده
له يد تسأل الرحمن راحته ... مما به واليد الأخرى على كبده
يا من يرى كلفا فى حبه دنفا ... كانت منيته فى عينه ويده

قال : فجعلت الجارية تصيح وتقول : هذا والله الغناء ، والذى كنا فيه ليس بشيء . وشرب القوم ؛ فلما جاءهم البسط وأخذ المجلس منتهاه، أمر صاحب البيت عبدين له أن يحفظا النديمين إلى منزلهما ، وخلوت معه فقال : والله يا سيدى ذهب ما مضى من عمرى باطلا حيث لم أعرفك قبل يومى هذا فبالله يا مولاى من أنت؟ فجعلت أرد عليه وهو يقول ، ويقسم علىَّ حتى أعلمته من أنا على الحقيقة ، فلما سمع ذلك قام على قدميه وقال: عجبت أن تكون هذه المكارم إلا لمثلك ، وقد أصابنى من الدهر نعم لا أقوم بشكرها ، ثم قال : أترى هذا يقظة أم مناما أقسمت أنى لا أزال هذه الليلة قائما إلى أن تأذن لى فإنى أحقر من أن أجالس الملوك ، فأقسمت عليه بأن يجلس ، ثم أخذ فى الكلام وجعل يعرض على السبب الذى أوجب حضورى عنده بألطف تعريض ، فأخبرته بأمرى على الحقيقة، ولم أخفه شيئاً ثم قلت له : الطعام قد نلت منه بغيتى ، وبقى الأمر الآخر فوثب إلى باب القاعة ، وقال : كل منكن تلبس أفخر ثيابها وتخرج علينا

من المخدع ، ثم استدعى بهن وجعل يقول : يا فلانة وهن يخرجن واحدة بعد واحدة ، وأنا لا أرى صاحبة الكف والمعصم إلى أن أتى أربعون امرأة.

فقال والله ما بقى إلا أختى وها أنا مخرجها إليك، فقلت : افعل ، فقال : حبا وكرامة ، ثم استدعاها فنزلت فرأيت يدها ومعصمها ، فإذا هى التى رأيتها ، قلت : هذه الحاجة ، فأمر غلمانه لوقته أن يأتوا بعشر شهود ثم قام وأخرج عشرين ألف درهم وألفا أخرى . فلما حضروا قال لهم : هذا سيدى إبراهيم بن المهدى يخطب أختى فلانة ، وأشهدكم أنى قد زوجتها له وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم ، فقلت : قبلت الزواج ، ثم دفع الألف التى كان أخرجها لهم، فشكروا له ودعوا وانصرفوا ؛ ثم قال : يا سيدى أمهد لك بعض البيوت لتنام مع أهلك ، فأعجبنى ما كان من كرمه واستحييت أن أدخل بها فى داره .

فقلت له : بل أجعلها فى عمارية وأحملها إلى منزلى فوحقك يا أمير المؤمنين ، لقد حمل معها من الفرش والأثاث ما ضاقت به بيوتنا ، فأولدتها هذا الغلام القائم بين يديك يا أمير المؤمنين . فتعجب المأمون من كرم الرجل وقال : لله دره ما أكرمه والله ما سمعت بمثله قط . ثم أطلق الطفيلى ، وأمر بإحضار الرجل واستنطقه ، فأعجبه حسن منطقه وعقله وأدبه فصيره من جملة خواصه ومناديه ، والله أعلم .

١٠ - فصل

ذكر خلافة إبراهيم المعتصم بن هارون الرشيد[١]

هو ثامن خلفاء بنى العباس ، وكان شديد القوة ما كان فى بنى العباس مثله فى القوة والشجاعة والإقدام .

[١٣٦] قيل إنه أصبح ذات يوم وكان برده شديدا وثلجه عتيدا فلم يقدر أحد على إخراج يده ولا إمساك قوسه ، فأوتر المعتصم فى ذلك اليوم، أربعة آلاف قوس وكان يدعى المثمن .

[١٣٧] وأنشد أبو تمام حبيب بن أوس الطائى[٢] يمتدح المعتصم بن هارون الرشيد يقول :

إن حس عودا رأيت الخيل ناقصة ... كأنها من سماع هزها نغم

أو حركت يده اليمنى له وترا ... على أعاديه يغنى البوم والرخم[٣]

---

(١) محمد بن هارون الرشيد بن المهدى بن المنصور : خليفة عباسى من أعاظم الخلفاء . بويع بالخلافة [٢١٨هـ] يوم وفاة أخيه المأمون ، وبعهد منه ، وكان بطرسوس . وهو فاتح عمورية من بلاد الروم ، وهو بانى مدينة سامراء [٢٢٢هـ] ، وهو أول من أضاف اسمه إلى اسم الله تعالى ، وكان لين العريكة رضى الخلق ، اتسع ملكه . وكان له سبعون ألف مملوك ، مدة خلافته ثمانى سنين وثمانية أشهر . ت[٢٢٧هـ = ٨٤١م]. انظر : ابن الأثير (٦/١٤٨-١٧٩) ، تاريخ بغداد (٣/٣٤٢) .

(٢) أبو تمام حبيب بن أوس الطائى : من أشهر شعراء العصر العباسى ، نشأ فى دمشق وتوفى فى الموصل ، مدح الخلفاء ولاسيما المعتصم . ت[٢٣٠هـ = ٨٤٥م] .

(٣) الرخم : طائر من الطيور الجارحة .

كان يقول بخلق القرآن ، وضرب على ذلك أحمد بن حنبل على أن يقول ذلك فلم يقل رضى الله عنه ، وله معه كلام طويل ، فانظره فى حياة الحيوان[1] .

[١٣٨] ومن لطائف الحكايات ، ما روى عن أحمد بن أبى دؤاد القاضى[2] أنه قال: جىء بتميم بن جميل إلى المعتصم أسيرا ، وكان قد خرج عليه . قال : فما رأيت رجلا عرض عليه الموت ، فلم يكترث[3] به سواه ، ثم دعا بالسيف والنطع . فلما مثل بين يديه نظر إليه ، فأعجبه حسنه ، وقده، ومشيه إلى الموت غير مكترث ، فأطال الفكر فيه ، ثم كلمه لينظر أين عقله ولسانه من جماله ، فقال : يا تميم إن كان لك عذر فأت به ؟ فقال : أما إذا أذن أميرالمؤمنين فى الكلام فإنى أقول الحمد لله الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الدين ، ولمَّ بك شعث المسلمين ، وأخمد بك نار الباطل ، وأنار بك سبل الحق : إن الذنوب تخرس الألسنة وتصدع القلوب : وأيم الله لقد أعظمت الجريمة ، وانقطعت الحجة وساء الظن إلا فيك وهو أشبه بك وأليق ، ثم أنشد يقول:

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا يلاحظنى من حيث لا أتلفت

---

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١/١١٨) .

(٢) أحمد بن أبى دؤاد الإيادى : من قضاة المعتزلة ، ورأس الفتنة بالقول بخلق القرآن . وزير المعتصم ، كان من المعتصم كيحيى بن أكثم من المأمون ، ت[٢٤٠هـ-٨٥٤م].

(٣) يكترث : يبالى به .

وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ عما قضى الله يفلت
ومن ذا الذي يأتي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز على الأوس بن تغلب موقف ... يسل على السيف فيه ويصلت
وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أنعى إليهم ... وقد لطموا حمر الوجوه وصوتوا
فإن عشت عاشوا في سرور ونعمة ... أذود الردى عنهم وإن مت موتوا[1]
فكم قائل لا أبعد الله داره ... وآخر حذلان يسر ويشمت[2]

قال : فبكى المعتصم ، ثم قال : إن من البيان لسحرا ، كما قال : النبي ﷺ. يا تميم كاد والله أن يسبق السيف العذل ، قد غفرت لك الهفوة ووهبتك للصبية ثم عقد له ولاية على عمله ، وأعطاه خمسين ألف دينار . انتهى من زهر الكمام في قصة يوسف عليه السلام .

[١٣٩] وذكر صاحب تاريخ بغداد عن مخارق المغني[3] قال : تطفلت تطفيلة، قامت على أمير المؤمنين المعتصم بتسعين ألف درهم . قيل له وكيف ذلك ؟ قال: شربت معه ليلة إلى الصبح ، فلما أصبحنا قلت له : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن أخرج إلى الرصافة فأتنسم إلى وقت انتباه أمير المؤمنين، قال : نعم فأمر البوابين أن يتركوني، فخرجت أتمشى في

---

(١) الردى : الهلاك .

(٢) حذلان : فرحان .

(٣) مخارق أبو المهنأ بن يحيى الحزار : إمام عصره في فن الغناء ، ومن أطيب الناس صوتا ، ت[٢٣١هـ-٨٤٥م] .انظر : الطبري (٢١/١١) .

الرصافة، وإذا بجارية كأن الشمس تشرق من جبينها ، فتبعتها ورأيت معها زنبيلا ، فوقفت على فاكهانى ، واشترت سفرجلة بدرهم ، وإنصرفت فتبعتها ، فالتفتت فرأتنى ، فقالت : يا ابن الفاعلة إلى أين ؟ قلت : خلفك يا سيدتى ، فقالت : ارجع يابن الزانية لئلا يراك أحدا فيقتلك ، فتأخرت ومشيت ، وتمشت أمامى ثم إلتفتت فرأتنى فشتمتنى شتما قبيحا ، ثم جاءت إلى دار كبيرة فدخلت فيها، وجلست أنا عند الباب ، وقد ذهب عقلى ونزلت على الشمس وكان يوما حارا ، فلم ألبث أن جاء فتيان كأنهما بدران على حمارين .

فلما وصلا إلى الباب أذن لهما فدخلا ودخلت معهما ، فظنا أن صاحب المنزل قد دعانى وجىء بالطعام فأكلنا وغسلنا أيدينا ، فقال لنا صاحب المنزل : هل لكم فى فلانة ؟ فقالوا : إن تفضلت . قال : فاستدعى بتلك الجارية ، فخرجت فإذا هى صاحبتى ووراءها وصيفة تحمل عودها ، فوضعته فى حجرها فغنت وشربوا وطربوا وهى تلحظنى وتشك فى فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدى مخارق ، فلم ألبث أن قلت : يا جارية شدى يدك، فشدت أوتارها وخرجت عن إيقاعها الذى تقول عليه ، قال : فاستدعيت بمدورة ، وقضيب ، وغنيت الصوت الذى قالته الجارية فقاموا إلى وقبلوا رأسى ، قال: وكان مخارق من أحسن الناس صوتا وكان يوقع بالقضيب توقيعا عجيبا ؛ قال : ثم غنيت الصوت الثانى والثالث فكادت عقولهم تطير ، فقالوا : بالله من أنت ياسيدى ؟ فقلت : مخارق ، فقالوا : وماسبب مجيئك ؟ قلت : طفيلى ـ أصلح الله شأنكم ـ وأخبرتهم بخبرى .

فقال صاحب البيت لصديقيه : أما تعلمان أنى أعطيت فى هذا الجارية ثلاثين ألف درهم فامتنعت من بيعها ، قالا : نعم ، قال : هى له فقال صديقاه: علينا عشرون ألف درهم وعليك عشرة آلاف ، قال مخارق: فملكونى الجارية وجلست عندهم إلى العصر وانصرفت بها ، وكلما مررت بالمواضع التى شتمتنى فيها أقول : يا مولاتى أعيدى كلامك فتستحى منى، فأحلف عليها لتعيدنه فتعيده حتى وصلت إلى أمير المؤمنين ، فقيل لى : إنه انتبه فطلبك فى منازل ابناء القواد فلم يجدك وتغيظ غيظا شديدا ، فدخلت عليه ويدى فى يدها ؛ فلما رآنى سبنى وشتمنى ، فقلت : يا أمير المؤمنين لاتعجل ، وحدثته الحديث ، فضحك وقال : نحن نكافئهم عنك فأحضرهم وأمر لكل واحد منهم بثلاثين ألف درهم ، والله أعلم انتهى.

حكاية غريبة عن محلها

[١٤٠] **قال الأصمعى** : دعانى بعض العرب الكرام إلى قرى الطعام، فخرجت معه إلى البرية فأتوا بباطية[1] بأذنين ، وعليها السمن غارق ، فجلسنا للأكل ، وإذا بأعرابى ينسف الأرض نسفا حتى جلس من غير نداء، فجعل يأكل والسمن يسيل على كراعه[2] ؛ فقلت : لأضحكن الحاضرين عليه فقلت :

كأنك أثلة فى أرض هش ... أتاها وابل من بعد رش[3]

---

(١) بَاطِيَة : إناء من الزجاج ، والجمع بَوَاطٍ.

(٢) الكُرَاع : ما دون الركبة من مقدم الساق ، والجمع أكْرُع .

(٣) أثلة : الترات القليل . أرض هش : اللينة الضعيفة التى لا يثبت عليها شىء . وابل : المطر الشديد . رش : تفرقت .

فإلتفت إليَّ بعين مبحلقة ، وقال لى : الكلام أنثى ، والجواب ذكر وأنت :

كأنك بعرة فى أست كبش مدلاة وذاك الكبش يمشى

فقلت له : هل تعرف شيئاً من الشعر أو ترويه ؟ فقال : كيف لا أقول الشعر وأنا أمه وأبوه ، فقلت له : إن عندى قافية تحتاج إلى غطاء ، فقال : هات ماعندك فغصت فى بحور الأشعار ، فما وجدت قافية أصعب من الواو المجزومة فقلت :

قوم بنجد قد عهدناهم سقاهم الله من النو[1]

قلت أتدرى النو ماذا ؟ فقال :

نو تلألا فى دجا ليلة حالكة مظلمة لو

فقلت له : لو ماذا ؟ فقال :

لو سار فيها فارس لإنثنى على بساط الأرض منطو

فقلت له : منطو ماذا ؟ فقال :

منطوى الكشح هضيم الحشا كالباز ينقض من الجو[2]

فقلت له : الجو ماذا ؟ فقال :

جو السماء والريح تعلو به اشتم ريح الأرض فاعلو

---

(١) النو : النجم .

(٢) الكشح من الجسم : ما بين السرة و وسط الظهر .

فقلت : فعلو ماذا ؟ فقال :

فـاعلوا لمـا عيـل مـن صبره فصـار نحـو القـوم ينعـو

فقلت : ينعو ماذا ؟ فقال :

ينعـو رجـالا للفنـا شرعت كفيـت مـا لاقـوا ومايلقوا

قال : فعلمت أنه لاشيء بعد الفناء ، ولكن أردت أن أثقل عليه فقلت له ويلقوا ماذا ؟ فقال :

إن كنـت مـا تفهـم مـا قلتـه فـأنت عنـدى رجـل بـو

فقلت له : البو ماذا ؟ فقال :

البـو سـلخ قـد حشـى جلده يـا ألـف قرنـان تقـوم عنى أو

فقلت له : أو ماذا ؟ فقال :

أو أضـرب الـرأس بصوانـة تقـول فـى ضربتهـا قـو

فخفت أن أقول له قوا ماذا فيضربنى ويكمل البيت ، فقلت له : أنت ضيفى الليلة ، فقال : لا يأبى الكرامة إلا لئيم ، فقلت : لزوجتى اصنعى لنا دجاجة ، ففعلت فأتيته بها وجئته أنا وزوجتى وابناى وابنتاى ، وقلت : له فرق يا بدوى ، فقال : الرأس للرأس وأعطانى الرأس ، وقال : الولدان جناحان لهما الجناحان ، والبنتان لهما الرجلان ، والمرأة لها العجز ، وأنا زائر لى الزور ، وأكل الدجاجة ونحن ننظر إليه ، وبتنا نتحدث .

فلما أصبحنا قلت لزوجتى : اصنعى لنا خمس دجاجات ، ففعلت وأتيته بالدجاج وقلت له : اقسم يا بدوى فقال :تريد شفعا أو وترا ؟ فقلت: إن الله وتر يحب الوتر ، فقال : كأنك تريد بالفرد ، فقلت : نعم ، فقال : أنت وزوجتك ودجاجة ، وابناك ودجاجة ، وابنتاك ودجاجة ، وأنا ودجاجتان ، فقلت : لا أرضى بهذه القسمة ، فقال : كأنك تريد شفعا ؟ فقلت : نعم ، فقال : أنت وولداك ودجاجة ، وزوجتك وبنتاها ودجاجة ، وأنا وثلاث دجاجات ، والله لأحول عن هذه القسمة ، قال الأصمعى : فغلبنى مرتين : مرة فى الشعر ، ومرة فى الدجاج ، ثم انصرف انتهى.

١١- فصل

خلافة أمير المؤمنين الواثق بالله تعالى[١]

[١٤١] **قال ابنه محمد -الذى يقال له المهتدى بالله-** : كان أبى الواثق بالله إذا أراد أن يقتل رجلا أحضرنا فى ذلك المجلس ، فبينما نحن عنده ذات يوم إذا أتى بشيخ مقيد ، فقال : إئذنوا لأبى عبد الله يعنى ابن أبى دؤاد ، وأصحابه ، وأدخل الشيخ مقيدا ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : لا سلم الله عليك ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين بئسما أدبك المؤدب ، قال الله تعالى ﴿**وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها**﴾ [النساء: ٨٦] وأنت والله ما حييتنى بها ولا بأحسن منها ، فقال: ابن أبى دؤاد يا أمير المؤمنين الرجل متكلم ، فقال الواثق : كلمه فقال الشيخ : ما تقول فى القرآن ؟ فقال الشيخ : لم تسألنى ولى السؤال ، أأسأله ؟ فقال الأمير : سله فقال الشيخ لا بن أبى دؤاد : ماتقول فى القرآن ؟ فقال ابن أبى دؤاد : مخلوق ، فقال الشيخ : هذا شيء علمه النبى ﷺ ، وأبو بكر ، وعمر وعثمان وعلى- رضي الله عنهم أجمعين- والخلفاء الراشدون أم شيء

---

(١) هارون بن محمد بن هارون الرشيد العباسى ، الواثق بالله : من خلفاء الدولة العباسية ولد ببغداد وولى الخلافة بعد وفاة أبيه [٢٢٧هـ] ، فامتحن الناس فى خلق القرآن وسجن جماعة ، وقتل فى ذلك أحمد بن نصر الغزالى بيده [٢٣١هـ] وكان فى كثير من أموره يذهب مذهب المأمون ، وشغل نفسه بمحنة الناس فى الدين فأفسد قلوبهم ومات فى سامراء . قيل بعلة الاستسقاء . قال ابن دحية : كان مسرفا فى حب النساء، وخلافته خمس سنين وكان كريما عارفا بالأنساب ، طروبا يميل إلى السماع . ت[٢٣٢هـ = ٨٤٧م] .انظر : تاريخ ابن الأثير (١٠/٧) ، النبراس لابن دحية ص٧٣.

لايعلمونه فقال : شيء لايعلمونه . فقال : سبحان الله ! شيء لايعلمه النبي ﷺ ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا علي ، ولا الصحابة ، ولا الخلفاء الراشدون ؛ وعلمته أنت ! قال : فخجل ، وقال : أقلني . فقال : قد فعلت، والمسألة بحالها ، قال : نعم .

قال : ما تقول في القرآن ؟ فقال : مخلوق ، قال : هذا شيء علمه النبي ﷺ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ رضي الله عنه والخلفاء الراشدون أم لم يعلموه ؟! قال علموه ، ولم يدعوا الناس إليه . قال : أفلا وسعك ما وسعهم ؟

قال : ثم قام أبي ، فدخل مجلس الخلوة واستلقى على قفاه ووضع إحدى رجليه على الأخرى ، وهو يقول : هذا شيء لم يعلمه النبي ﷺ ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولاعلي ، ولا الخلفاء الراشدون ، وعلمته أنت سبحانه الله ! انتهى[1] .

[١٤٢] وذكر الحافظ أبو نعيم في حليته[2] ، قال الحافظ أبو بكر الآجري[3] : بلغني عن المهتدي -رحمه الله- أنه قال : ما قطع أبي يعني :

---

(١) انظر : تارخ بغداد في ترجمة الواثق (١٥٣/٧) .

(٢) أحمد بن عبد الله بن أحمد ، أبو نعيم : الحافظ ، صاحب حلية الأولياء ، ت[٤٣٠هـ]. انظر : شذرات الذهب (٢٥٤/٣) .

(٣) محمد بن الحسين بن عبد الله ، أبو بكر الآجري : فقيه شافعي محدث . له تصانيف كثيرة ، منها أخبار عمر بن عبد العزيز ، ت[٣٦٠هـ = ٩٧٠م] . انظر : وفيات الأعيان (٤٨٨/١) .

الواثق إلا شيخ جيء به من المصيصة[1] ، فمكث فى السجن مدة ، ثم إن أبى ذكره يوما ، فقال : على بالشيخ ؛ فأتى به مقيدا ، فلما وقف بين يديه سلم عليه ؛ فلم يرد عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ما سلكت بى أدب الله ولا أدب رسول الله ﷺ ، قال الله تعالى ﴿**وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها**﴾[النساء: ٨٦] وأمر النبى ﷺ برد السلام ، فقال: إن وعليك السلام ، ثم قال لابن أبى دؤاد سله ، فقال : ياأمير المؤمنين أنا محبوس مقيد أصلى فى الحبس بتيمم منعت الماء فمرْ بقيودى تُحَلُّ ومرْ بماء أتوضأ وأصلى ثم سلنى فَأَمَرَ به فَحُلَّتْ قيودُه ، وأمر له بماء فتوضأ وصلى ، ثم قال لابن أبى دؤاد : سله .

فقال الشيخ : المسألة لى فمرْهُ أن يحيبنى ؛ فقال : سل ، فأقبل الشيخ على ابن أبى دؤاد ، فقال له : أخبرنى عن هذا الأمر الذى تدعو الناس إليه . أشيء دعا إليه النبى ﷺ ؟ قال : لا ، قال : أفشيء دعا إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعده؟ قال : لا، قال : أفشيء دعا إليه عمر بن الخطاب، بعدهما ؟ قال : لا ، قال: أفشيء دعا إليه عثمان بن عفان ، بعدهم ؟ قال : لا ، قال : أفشيء دعا إليه على بن أبى طالب ، بعدهم ؟ قال : لا .

قال الشيخ : أفشيء لم يدع إليه الرسول ﷺ ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولاعثمان ، ولا علىٌ ، تدعو أنت الناس إليه ! ليس يخلو أن تقول: علموه أو جهلوه ، فإن قلت : علموه وسكتوا عنه توسعا ، وسعنا وإياك من السكوت ما وسع القوم ؛ وإن قلت : جهلوه وعلمته أنت ، فيالكع بن

---

(١) المصيصة : مدينة على نهر جيحان .

لكع، شيء يجهله النبى ﷺ ، والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم وتعلمه أنت ، وأصحابك.

قال المهتدى: فرأيت أبى وثب قائما ، ودخل الحجرة فجعل ثوبه فى فيه وجعل يضحك ، ثم جعل يقول : صدق الشيخ إلى آخر ماتقدم .

[١٤٣] **وقال المهتدى** : مازلت أقول القرآن مخلوق صدرا من خلافة الواثق، حتى أقدم علينا أحمد بن أبى دؤاد شيخا من أهل الشام ، فأدخل الشيخ على الواثق مقيداً و هو جميل الوجه تام القامة حسن الشيبة ، فرأيت الواثق قد استحيا منه ، ورق له ، فمازال يدنيه ويقربه ، حتى قرب منه فسلم عليه الشيخ ، فأحسن السلام ودعا فأبلغ وأوجز ، فقال له الواثق : اجلس ، ثم قال : يا شيخ ناظر ابن أبى دؤاد على ما يناظرك .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ابن أبى دؤاد ، يقل ويصغر ويضعف عن المناظرة ، فغضب الواثق وأعاد مكان الرقة له ، غضبا وقال : أبو عبد الله بن أبى دؤاد يقل ويصغر ويضعف عن مناظرتك أنت ! قال الشيخ : هون عليك يا أمير المؤمنين مابك ، وأذن لى فى مناظرته ، فقال الواثق : مادعوتك إلا للمناظرة .

فقال الشيخ : يا أحمد يا ابن أبى دؤاد ، إلام دعوت الناس ودعوتنى إليه ؟ فقال أن تقول القرآن مخلوق، لأن كل شيء دون الله مخلوق، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين إنى رأيت أن تحفظ على وعليه ما نقول ، فقال : افعل ، فقال الشيخ : يا أحمد أخبرنى عن مقالتك هذه أواجبة داخلة فى

عقد الدين ، فلايكون الدين كاملا حتى يقال ماقلت ؟ قال : نعم ، فقال الشيخ: أخبرنى عن رسول الله ﷺ حين بعثه الله عز وجل إلى عباده هل ستر شيئاً مما أمر الله به فى دينه ؟ فقال : لا ، قال الشيخ : أفدعا رسول الله ﷺ إلى مقالتك هذه ؟ فسكت ابن أبى دؤاد ، فقال الشيخ : تكلم ، فسكت فإلتفت الشيخ إلى الواثق ، فقال : يا أمير المؤمنين قل : واحدة ، فقال الواثق: واحدة .

فقال الشيخ : ياأحمد أخبرنى عن الله عزوجل حين أنزل آخر القرآن على رسول الله ﷺ، فقال ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتىورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ [المائدة: ٣] أكان الله صادقا فى إكماله أم أنت الصادق فى نقصانه ، فلا يكون كاملا حتى يقال فيه بمقالتك هذه فيكون كاملا ، فسكت ابن أبى دؤاد. فقال الشيخ : أجب يا أحمد ، فلم يجبه . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين قل : اثنتان، فقال : اثنتان .

فقال الشيخ : يا أحمد أخبرنى عن مقالتك هذه أعلمها رسول الله ﷺ أم جهلها ؟ فقال ابن أبى دؤاد : علمها ، فقال : أفدعا الناس إليها؟ فسكت ابن أبى دؤاد ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، قل : ثلاثة ، فقال الواثق: ثلاثة .

فقال الشيخ: يا أحمد أفاتسع لرسول الله ﷺ كما زعمت ولم يطالب أمته بها ؟ قال : نعم ، فقال الشيخ : واتسع لأبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب رضي الله عنهم فقال ابن أبى دؤاد: نعم ، فأعرض الشيخ عنه، وأقبل على الواثق ، فقال : يا أمير المؤمنين قد قدمت أن أحمد يقل ويصغر ويضعف عن المناظرة ، يا أمير

المؤمنين ألم يتسع لك من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول الله ﷺ، ولأبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى رضي الله عنهم فلا وسع الله على من لم يتسع له منًا ما اتسع لهم من ذلك ؟ فقال الواثق نعم إن لم يتسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول الله ﷺ ، ولأبى بكر ، وعمر، وعثمان ، وعلى رضي الله عنهم فلا وسع الله علينا . ثم قال : اقطعوا قيد الشيخ ؛ فلما قطع ضرب الشيخ بيده، فأخذ القيد فوضعه في كمه ، فقال الواثق : لم فعلت هذا ، فقال الشيخ : لأنى نويت أن أقدم إلى من أوصى إذا مت أن يجعله بينى وبين كفنى حتى أخاصم به هذا الظالم عند الله عزوجل يوم القيامة ، وأقول : يارب سل عبدك هذا لم قيدنى ، وروع أهلى ، وولدى وإخوانى بلاحق واجب علىَّ ؛ وبكى الشيخ ، وبكى الواثق ، وبكينا ثم سأله الواثق أن يجعله فى حل وسعة مما ناله منه.

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين لقد جعلتك فى حل وسعة من أول يوم، إكراما لرسول الله ﷺ إذ أنت رجل من أهله . فقال الواثق : لى إليك حاجة ؟ فقال الشيخ إن كانت ممكنة فعلت . فقال الواثق : تقيم عندنا ينتفع بك فتياننا ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين إن ردك إياى إلى الموضع الذى أخرجنى منه هذا الظالم أنفع لك من مقامى عندك ، فقال : ولم ذلك؟ فقال: لأسير إلى أهلى وولدى فأكف دعاءهم عنك ، فقد خلفتهم على ذلك، فقال الواثق : أفتقبل منًا صلة تستعين بها على دهرك ؟ فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين أنا غنى وذو ثروة ، قال : أفتسألنا حاجة ؟ قال : أوتقضيها؟ قال : نعم ، قال تخلى سبيلى إلى السفر الساعة ، وتأذن لى ،

قال أذنت لك؛ فسلم عليه الشيخ وخرج ، قال صالح : فقال المهتدى بالله: فرجعت عن هذة المقالة من ذلك اليوم ، والله أعلم[1] .

فائدة

[١٤٤] **روى الدارقطنى وشيخه ، والحاكم ، وابن عدى ، عن عمر** : «أن النبى ﷺ كان فى محفل من أصحابه اذ جاء أعرابى من بنى سليم ، قد اصطاد ضبا[2] وجعله فى كمه ليذهب به إلى رحله ، فرأى جماعة محتفين بالنبى ﷺ فقال : على من هؤلاء ؟ قالوا : على هذا الذى يزعم أنه نبى ، فأتاه فقال ، ياأحمد ما اشتملت على ذى لهجة أكذب منك، ولولا أن تسمينى العرب عجولا لقتلتك ، فسررت بقتلك الناس أجمعين ، فقال عمر : يارسول الله دعنى أقتله ، فقال رسول الله ﷺ : «أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبيا» ، ثم أقبل الأعرابى على رسول الله فقال : واللات والعزى لا آمنت بك حتى يؤمن بك هذا الضب ، وأخرج الضب من كمه، وطرحه بين يدى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : «يا ضب فتكلم الضب، بلسان فصيح عربى صريح يفهمه القوم جميعا ، فقال : لبيك وسعديك يارسول رب العالمين ، فقال رسول الله ﷺ : من تعبد ؟ قال الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه ، وفى البحر سبيله ، وفى الجنة رحمته ، وفى النار عذابه . قال : فمن أنا ياضب ؟ قال : أنت رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين قد أفلح من

---

(١) انظر : تاريخ بغداد (١٩٦/٧) ، حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١٢٩/١) .

(٢) الضب : من الحيونات الزحافات التى تعيش فى الحبال .

صدقك وخاب من كذبك فقال الأعرابى : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله حقا ، والله لقد أتيتك وماعلى وجه الأرض أحد أبغض منى إليك ، والله لأنت الساعة أحب إلى من نفسى ومن ولدى فقد آمن بك شعرى ، وبشرى ، وداخلى ، وخارجى، وسرى ، وعلانيتى .

فقال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذى هداك إلى هذا الدين الذى يعلو ولا يعلى عليه ، ولا يقبله الله تعالى إلابصلاة ولايقبل الصلاة إلابقراءة، قال : فعلمنى فعلمه النبى ﷺ الحمد لله ، وقل هو الله أحد ، فقال: يارسول الله ماسمعت فى البسيط ولا فى الرجز أحسن من هذا ، فقال رسول الله ﷺ : إن هذا كلام رب العالمين ، وليس بشعر إذا قرأت قل هو الله أحد ثلاثا أو قال ثلاث مرات فكأنما قرأت القرآن كله فقال الأعرابى : إن إلهنا يقبل اليسير ويعطى الكثير» . انتهى باختصار من حياة الحيوان الكبرى[1] .

[١٤٥] و [قيل] : وقف رجل على الواثق فقال : يا أمير المؤمنين صل رحمك، وارحم أقاربك ، وارحم رجلا من أهلك . فقال الواثق : من أنت فإنى لا أعرفك قبل اليوم ؟ قال : ابن جدك آدم ، فقال : ياغلام اعطه درهما ، فقال : يا أمير المؤمنين وما أصنع بالدرهم ، قال أرأيت لو قسمت المال بين إخوتك أولاد جدى أكان ينوبك منه حبة فقال لله درك ما أذكى فهمك فأمر له بعطاء وانصرف مكرما .

---

(١) انظر حياة الحيوان ، حرف الضاد (١٠٨/٢) .

١٢- فصل

خلافة المتوكل على الله تعالى[١]

[١٤٦] حكى عنه أنه قال ذات يوم لأبى العيناء : ما أشد ما مر عليك فى ذهاب عينيك ! فقال : فقْدُ رُؤْيتك يا أمير المؤمنين ، فاستحسن منه هذا الجواب ، وأمر له بجائزة نفيسة .

[١٤٧] ومماحكاه أبو القاسم على بن محمد الذهبى عن أبى عبد الله النحوى قال: لما حج محمد بن عبد الله بن طاهر رأى فى الطواف جارية فى نهاية الحسن فسأل عنها فقيل : إنها لرجل من الأدباء ، قد رواها الأشعار ، والأخبار ، والنحو ، والعروض، وقد أحسنت ضرب العود ، وطريق الغناء ؛ فاشتراها بمائة ألف درهم . فلما قدم بها مدينة دار السلام شغف بها شغفا شديدا وأخفى أمرها ومايجده منها تخوفا من أمير المؤمنين المتوكل ، وكان من شدة وجده بها يحتبس عندها أياما لايظهر للناس فيظنون أنه زمن[٢] وأمره معها مستور ففطن به سويد بن أبى العالية[٣]

---

(١) جعفر بن محمد بن هارون الرشيد ، المتوكل على الله : من خلفاء الدولة العباسية ، ولد ببغداد ، وبويع بعد وفاة أخيه الواثق [٢٣٢هـ] وكان جوادا ، محبا للعمران ، من آثاره المتوكلية ببغداد أنفق عليها أموالا كثيرة . ولما استخلف كتب إلى أهل بغداد كتابا قرىء على المنبر بترك الجدل فى القرآن ، وأن الذمة بريئة ممن يقول بخلقه أو غير خلق .اغتيل فى سامراء ليلا [٢٤٧هـ - ٨٦١م] . انظر : تاريخ بغداد (١٦٥/٧).

(٢) زَمِنَ : أصابته الزَمَانة ، أى شدة العشق .

(٣) محمد بن يذداد بن سويد المروزى :من رجال الدولة العباسية ، ومن كتاب الإنشاء.ت[٢٣٠هـ] .

صاحب البريد ، وكان بينه وبين محمد منافرة ، فلم يجد سوأ يكيده به إلا أن كتب إلى المتوكل وهو نازل على أربعة فراسخ من بغداد كتابا نسخته : «بسم الله الرحمن الرحيم ؛ أما بعد يا أمير المؤمنين فإن محمد بن عبد الله اشترى جارية بمائة ألف درهم فهو يصطبح معها ويغتبق زمانه كله معها ، وقد اشتغل بها عن النظر فى أمور المسلمين ، وعن التوقيع فى قصص المظلومين ، ولا يأمن أمير المؤمنين أن تخرب عليه بغداد مع كثرة ما فيها من الغوغاء ، فيتعب أمير المؤمنين فى اصطلاحها وقد أنهى المملوك ذلك إلى أمير المؤمنين أيده الله وهو أعلى رأيا والسلام عليه ورحمة الله وبركاته»

قال : فلما قرأ المتوكل الكتاب رفع رأسه إلى نرجس الخادم وقال له: امض الساعة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر وادخل عليه داره بغتة من غير إذن ، وانظر إلى ما يصنع ، ثم خذ منه جاريته فلانة وأت بها من غير تأخير، فمضى نرجس من ساعته . وكان محمد قد اصطبح معها فى ذلك اليوم فدخل عليهما نرجس من غير استئذان فلم يشعر محمد إلا وهو واقف عليه ، فتغير وجهه وانتقع لونه وفاضت عيناه وارتعدت فرائصه ، لعلمه أن نرجسا ما دخل عليه من غير إذن إلا وقد أضمر له السوء . فقال له : يا نرجس ما الذى أقدمك قال أمير المؤمنين أمرنى أن آخذ جاريتك هذه ، قال : يا نرجس هذا اليوم قد حضر شره ، وغاب خيره ، وقد ترى ما نحن فيه ، وأنا لا أخالف ما أمر به أمير المؤمنين ، ثم أمر للخادم بكرسى فجلس عليه بعد أن امتنع ساعة وقال : إن مثلى لا يجلس مع مثلك ، ثم إن محمدا نظر إلى الجارية وبكى بكاءاً شديدا ، وقال لها غنى لأتزود منك ، فأخذت العود وغنت بصوت حزين تقول :

لله من لمعذبين رماهما	بشماتة العذال والحساد
أما الرحيل فحين حد تحمل	مهج النفوس به من الأجساد
من لم يت والبين يصدع شمله	لم يدر كيف تفتت الأكباد[1]

ثم إنهما أعلنا بالبكاء والنحيب والشهيق ، فرحمهما الخادم ورق لهما حين عاين ما حل بهما ، فقال : أيها الأمير إن رأيت أن أمضى وأدعكما على ما أنتما عليه، وأتعلل عنكما لأمير المؤمنين فعلت ، فقال : يا نرجس من خلفه مثل أبى سويد كيف يمكنه التعلل ؟ ولكن ارفق بنا ، فقالت الجارية: والله يا سيدى لا ملكنى غيرك أبدا ، ولئن دفعتنى إليه لأقتلن نفسى، فقال لها محمد : لوكان غير أمير المؤمنين لكان فى ذلك أوسع حيلة ، ولقد وددت أن يأخذ منى أمير المؤمنين جميع ما أملك ويعزلنى عن عملى ويبقيك علىّ ، ولكن هذا قضاء الله وقدره ، ثم التفت إلى نرجس وقال : لقد شاهدت منى ومن هذه الجارية ما شهد قلبك علينا بالمحبة والمودة والألفة، وليس يخفى عن علمك أن صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، ومثلك من يصنع المعروف مع مثلى ، فخذها وامض بها إلى أمير المؤمنين وقل ما شئت مما يليق بمروءتك ، ثم التفت إليها وقبلها وبكى وبكت وبكى نرجس ، ثم أخذها وخرج وهى تبكى، وتخمش خدها ووجهها[2] ثم حملها نرجس على بغلة أمير المؤمنين وسار حتى دخل على المتوكل .

---

(١) البين : البعد .

(٢) تُخمش خدها : أى تلطمه

فلما رآه قال : ما وراءك يا نرجس قال ورائى يـا أمير المؤمنيـن كـل بلية ثم إنه جلس بيـن يديـه وقـص عليـه حالهمـا ولـم يخـف شـيئا ، فقـال المتوكل : وكل هذا الوجد يجده محمد من هذه الجارية ؟ فقال : يا أمير المؤمنين والذى خفى أكثر مما ظهر وما أظنه يعيش بعدها ، فرق عليه قلب المتوكل وقال : يا نرجس ارجع بها إليه الساعة من وقتك هذا وأدركه قبـل أن تزهق روحه وقد أمرت له بمائة ألف درهم ولها مع ذلك مثله ، وجعلت أمر أبى سويد إليه يصنع به ما يشاء ، ثم كتب له توقيعا بذلـك ودفعـه إلـى نرجس فرجع الخادم بالجارية والتوقيع ولم يتمهل حتى دخـل عليـه فوجـده عريانا يتقلب على حصر سامان[1] من شدة الكرب والوجد ، وقد أحدقـت به الجوارى يروّحنه بالمراوح .

فقال : أبشر يا محمد إن أمير المؤمنين قد رد جاريتك عليك من غـير أن يوقع نظره عليها ، وقد حكمك فى أبى سويد ، ثم ناوله التوقيـع بذلـك ودخلت الجارية عليه فوثب إليها وعانقها وقبلها ساعة ، ثـم خـرج فجلـس على باب داره وبعث إلى أبى سويد . فلما حضـر دفـع إليـه التوقيـع . فلمـا قرأه قال : أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك ، وأن تهدم منـى ركنا أنت شيدته ، وأن تضيع صنيعة اصطنعتها إلى مثلـى ، فمثلـى مـن هفـا ومثلك من عفا ، ثم قام وقبل البساط .

فقال له محمد : لا أبدل نعمة الله كفرا ، ثم أمـر لـه بخمسـين ألـف درهم، فقالت الجارية : وأنا أيضا أهب له خمسين ألف درهم مما وهبه لى أمير المؤمنين شكرالله تعالى على ذلك ، ثم أقره على ما كان عليه وأمر أن

---

(١) حصر سامان : نوع من أنواع الحصر ، وسـامان : قريـة فـى خراسـان إليهـا ينسـب السامانيون .

يحمل المال بين يديه إلى منزله ، ورجع محمد والجارية إلى ما كانا عليه في أطيب عيش وأحسن حال متظاهرا بذلك غير مستتر ولا خائف ، انتهى.

[١٤٨] و [قيل] :أتى المتوكل بمحمد بن النصيب ووزيره ابن الديرواني ، وكان محمد هذا قد خرج على المتوكل واستوزر ابن الديرواني ، فلما مثل بين يدى المتوكل قال له : ما حملك على ما فعلت يا محمد ؟ قال الشقوة وحسن الظن بعفوك يا أمير المؤمنين ، وأنشد يقول :

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلى ... إمام الهدى والعفو بالحر أجمل
تضاءل ذنبى عند عفوك قلة ... فجد لى بعفو منك فالعفو أفضل

فقال الملك : خلوا سبيله ثم قدم ابن الديرواني فقال : اضربوا عنقه فقال : سبحان الله يا أمير المؤمنين تعفو عن الرأس وتقطع الذنب ، فضحك المتوكل وعفا عنه انتهى .

[١٤٩] **وكتب محمد بن عبد الملك الزيات[1] وهو في السجن :** - وقد اشتد به الحال- فكتب رقعة إلى المتوكل يستعطفه على نفسه من شدة ما قاسى من الأهوال والعذاب في السجن يقول فيها هذين البيتين :

هى السبيل فمن يوم إلى يوم ... كفرحة النائم الفرحان بالنوم
لا تعجلن رويدا إنها دول ... دنيا تنقل من قوم إلى قوم

قال : فلما قرأها المتوكل رق له وبكى ، وأمر بإطلاقه . فذهبوا إلى السجن فوجدوه ميتا رحمة الله عليه .

---

(١) محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة ، أبو جعفر : وزير المعتصم ، والواثق . عزبه المتوكل وسجنه ، ت[٢٣٣هـ] .

١٣- فصل

خلافة أمير المؤمنين المعتضد بالله أحمد[١]

[١٥٠] كان يسمى السفاح الثانى ، لأنه جدد ملك بنى العباس بعد أن أخلقته الأتراك وأذلته . وفى ذلك يقول على بن العباس الرومى[٢] :

كما بأبى العباس أنشئ ملككم كذا بأبى العباس أيضا يجدد

[١٥١] **ولقد اتفق فى أيامه على ما حكى** : أمر فظيع كشفه الله له بهيبته فى نفوس الناس فإنه كان لا يتجرأ أحد منهم أن يكتم ما فى نفسه مخافة صولته ، لأنه كان لشدة حذقه يتخيل لهم أنه يعلم ما فى نفس الإنسان من الضمير ، فاتفق أن أحد وزرائه وأكبر قواده بنى بناء عاليا مشرفا على منازل جيرانه ، فلم يعارضه أحد فيه من جيرانه لمكانته من سلطانه وعزه وكان يجلس كثيرا فى ذلك البناء ، فرأى يوما من الأيام فى دار من دور جيرانه جارية بارعة الجمال فولع بها فسأل عنها فأخبر أنها بنت أحد التجار فأرسل إلى والدها خاطبا . فقال له أبوها :-وكان من أهل اليسار- لست أزوجها إلا من تاجر مثلى ، فإنه إن تزوجها من هو مثلى لم يظلمها وإن ظلمها قدرت على النصفة منه وأنت إن ظلمتها لم أقدر لها

---

(١) أحمد المعتضد بالله بن الموفق ، أبو العباس : بويع له بالخلافة يوم وفاة عمه المعتمد، فاستقل بالأمر . وكان شجاعا ، عادلا ، ذا هيبة ، وذكاء مفرط ، ت[٢٨٩هـ=٩٠٢م] .

(٢) على بن العباس الرومى : شاعر بغداد ، من أعظم شعراء الدولة العباسية ، ت[٢٨٣هـ].

على النصفة منك ، ولا على الحيلة لنصرتها . فلم يزل يرومه فى ذلك بكل أمر ، وتوسط إليه بالأكابر والأماثل من الناس وهو مع ذلك يمتنع .

فلما يئس منه أن يجيبه شكا إلى أحد خواصه ، فقال له : ألف مثقال يقوم لك هذا ، فقال : كيف ذلك ؟ والله لو علمت أنى أنفق عليها مائتى ألف مثقال أو أكثر وتأتينى لفعلت . قال له : عليك أن تحضر لى ألف دينار ، فأمر بإحضارها فمشى بها ذلك الرجل إلى عشرة رجال كانوا عدولا عند القاضى فى شهادتهم وذكر لهم الأمر، وقال : هذا أمر ليس عليكم من الله فيه تبعة فإنه يصدقها كذا وكذا ألفا وأغلى لهم المهر ، وإنكم تحيون نفسا أشرفت على الهلاك ويكون لكم عنده مع هذا من الجاه ما ترغبون وأبوها إنما هو عاضل لها فى الزواج ، وإلا فما يمنعه من ذلك وقد خطبها مثل فلان فى جلالة قدره ومكانة أمره وقد أعطاه صداقا لا يعطى إلا لبنت ملك ، ثم هو مع هذا يأبى هل هذا إلا عضل بَيِّنٌ !

ولكن لكم ألف مثقال لكل واحد منكم مائة وتشهدون أنه قد زوجها منه ، فإنه إذا علم أبوها بأنكم قد شهدتم عليه رجع إلى هذا إذ ليس فيه إلا الخير والخيرة ، فأخذ الشهود كل واحد منهم مائة وشهدوا أن أباها زوّجها على صداق مبلغه كذا ورفعوا فى الصداق إلى غاية ما ترفع إليه صداقات الملوك . فلما علم أبوها بذلك زاد نفارا وإباء ، فمشى الوزير وذلك القائد إلى القاضى وقال : إنى تزوجت فلانة بنت فلان على هذا الصداق وهؤلاء شهدوا عليه ، ثم قد ناكرنى وأنكر الشهود ، وقد أردت أن أدفع له حق بنته وآخذها ، فأمر القاضى بإحضار الشهود فشهدوا عنده وأحضر مال النقدين بين يدى القاضى والرجل على إنكاره متماد ، فأمر

القاضى بإمضاء الحكم عليه وأن تؤخذ ابنته منه أحب أو كره ، وأمر بحمل المال إليه .

فلما وصلت الجارية عند الوزير لم يزل أبوها يروم الوصول إلى المعتصم وكان المعتصم غليظ الحجاب لا يصل إليه أحد من غير الخاصة ، فقيل للرجل : إنه يحضر كل يوم ساعة من النهار على بنيان له بقصره فإن استطعت أن تكون مع جملة رجال الخدمة تصل إليه وتكلمه بما أردت ؛ ففعل الرجل ذلك وغير شكله ودخل فى جملة رجال الخدمة للبناء . فلما كان ذلك الوقت الذى كانت عادة أمير المؤمنين المعتضد يقف فيه على ذلك البناء خرج ذلك الرجل فترامى على الأرض وجعل يحثوا التراب على رأسه ويستغيث ، فسأله عن شأنه فقص عليه القصة فأرسل المعتضد فى ذلك المقام خلف ذلك القائد وأغلظ عليه فى القول فحملته هيبته له وقلة إقدامه على الكذب عليه أن وصف له الصورة على ما كانت عليه وهو يطمع أن يعذره فى ذلك إذ قد جعل لها من الصداق ما هو فوق قيمة قدرها وأمر بإحضار الشهود فصنعوا مثل صنيع صاحبهم - وذلك كله رهبة له وإجلالا أن يخاطبوه بكذب مع تخيلهم أنه يصفح لهم عن هذه الزلة ، إذ قد أرادوا إحياء نفس ذلك الوزير ، وأيضا قد دفع له بين يدى القاضى نقدا لا يكون إلا فى صداقات الملوك ، وقد جعل لها من الصداق ما هو فوق قيمة قدرها ؛ فكأنما قد أخذها بحقها وبأكثر من حقها .

فلما تحققت عنده جلية الخبر ؛ أمر أن يصلب كل من شاهد منهم على باب داره وأن يوضع ذلك الوزير فى جلد ثور طرى السلخ ويضرب بالمرازب ، حتى يختلط عظمه ولحمه بدمه ، ثم أمر به لما صنع به ذلك

أن يفرغ بين يدى نمور كانت عنده . فلما لعقت تلك النمور ذلك الدم ، أمر الرجل أبا البنت أن يأخذ ابنته ، ويأخذ كل ما ذكروا لها على ذلك الوزير فى صداقها من عقار ودور ومال ، ثم مات المعتضد وولى ابنه المقتدر ، وكان صبيا صغير السن فعادت الأتراك إلى ما كانت عليه من ذلك ، والله تعالى أعلم .

[١٥٢] ويقرب من شهامة هذا الملك، ما ذكره فى حياة الحيوان فى ترجمة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن[١] صاحب بلاد المغرب من أنه وقع بينه وبين الأذفونش نصرانى طليطلة مكاتبات قال : بعث الأذفونش إلى الأمير يعقوب يتوعده ويتهدده ويطلب منه بعض حصون وكتب له رسالة من إنشاء وزيره ابن النحار وهى: "باسمك اللهم فاطر السموات والأرض ، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الفصيح ؛ أما بعد فإنه لا يخفى على ذى ذهن ثاقب ولا ذى عقل لازب أنك أمير الملة الحنيفية كما أنى أمير الملة النصرانية ، وقد علمت ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والنكول والتكاسل واهمالهم أمر الرعية وإخلادهم إلى الراحة والأمنية ، وأنا أسوسهم بحكم القهر وإخلاء الديار وسبى الذرارى[٢] ، وأمثل بالرجال وأذيقهم عذاب الهوان وشديد النكال ولا عذر لك فى التخلف عن نصرتهم ، إذا أمكنتك القدرة وساعدك من عساكرك وجنودك كل ذى رأى وخبرة وأنتم تزعمون أن الله تعالى قد فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم والآن خفف الله عنكم وعلم أن

---

(١) يعقوب بن عبد المؤمن : ثالث خلفاء الدولة المؤمنية الموحدية بالمغرب والأندلس . له فتحات عظيمة فى الأندلس ت[٥٩٥هـ-١١٩٩م] .

(٢) الذَرَارى : الأطفال و النساء .

فيكم ضعفا رحمة منه ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا لا تستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا ، ولقد حكى عنك أنك أخذت فى الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك سنة بعد أخرى تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فلا ندرى أكان لجبن إبطاؤك أم لتكذيب بما وعد ربك ، ثم قيل لى : إنك لا تجد إلى الحوار سبيلا ولعله لا يسوغ لك التقحم فيه ميلا وها أنا أقول لك ما فيه الراحة وأعتذر عنك ولك أن تفى بالعهود والمواثيق والاستكثار من البرهان وإلا جئت بجملتى إليك : وأقاتلك فى أعز الأماكن عليك ، فإن كانت النصرة لك كانت غنيمة كثيرة جاءت إليك وإن كانت لى كانت يدى العليا عليك ، والله الموفق لا رب غيره ولا خير إلا خيره" .

قال : فمزق يعقوب الكتاب وكتب على قطعة منه : ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ، الجواب ما ترى لا ما تسمع واستشهد ببيت المتنبى :

ولا كتب إلا المشرفية عنده ولا رسله إلا الخميس العرمرم[1]

ثم أمر بكتائب الاستنفار ، واستدعاء الجيوش من الأمصار ، وضرب السرادقات من يومه بظاهر البلد وسار إلى البحر المعروف بزقاق سبته[2] ، فعبر فيه إلى الأندلس ودخل إلى بلاد الإفرنج ، فكسرهم كسرة شنيعة وعاد بغنائمهم ، والله أعلم.

---

(١) المشرَفيَّة : كناية عن السيوف التى تصنع فى المشرفية ، والمشرفية مكان فى اليمن . الخميس العرمرم : الجيش الكثير ، الشديد البأس .

(٢) زقاق سبته : اسم مضيق جبل طارق قديماً فى المغرب ، يطل على البحر المتوسط.